ALEXANDRA.AHLAMONTADA.COM

منتدى مكتبة الأسكندرية

رواية

أحمد ابراهيم الفقيه

رواية

حقول الرماد

أحمد إبراهيم الفقيه

حقول الرماد

المقدمة

" عذبني الرحيل عبر المسافات الطويلة الشاقة، خضت الأودية المستنقعات، واجتزت الجبال العالية الوعرة. وقطعت صحراء القيظ والعطش سيرا على الأقدام أسابق حركة الليل والنهار، وأغافل العسس وحراس الحدود ؛ كى أنقـل هـذه الرسالة الخطيرة التى اؤتمنت على حملها إليكم .

وعندما وصلت وجدت أنها تمزقت بداخل الجيب الذى خبأتها فيه .. تفككت حروفها، وذاب حبرها، ولم تعد تصلح للقراءة "

(١)

الذاهب من طرابلس إلى " قرن الغزال " على أطراف الصحراء سيدهشه أن يرى طريقاً يواصـل الصـعود دون انحدار، وجبلاً يفضى إلى جبل فوقه كأنها سلالم تقود إلـى السماء، هذا ما أحس به أعضاء البعثة العلمية عندما وصلوا بسيارتهم إلى منطقة الجبـال، رأوا طريقـاً يصـعد الجبـل فسلكوه، وانتظروا أن يعقب الجبل سفح فى الجانب المقابـل ولكن الجبل لا سفح له، بدلاً من ذلك أسلمهم إلى مرتفعـات

أخرى، ثم فى خط صاعد وجدوا أنفسهم يجتـــازون القـــرى الجبلية ببساتينها وحقولها ويصلون إلى ذروة الجبـــل التـــى انبسطت وامتدت وأصبحت أرضاً فسيحة واســـعة برحابـــة الأفق، كالحة جرداء، تتناثر فيها بعض النبتات الصـــحراوية التى أصفرّ لونها وأذابت شمس الصيف أوراقها مثل الشـــيح والزعتر والرتم والعجرم، وتنبثق بين الحين والآخر شـــجرة سدر أو أثل أو بطم .

اختفى البشر والعمران، واختفت البســـاتين والحقـــول وران الصمت والوجوم فوق فضاء يمتد ويملأ القلب وحشة، كأنه ليس بعده شيء، وليس قبله شيء، إذ به بدأ الكون، وبه سوف ينتهى، وطريق أســـفلتى، ضـــيق، متعـــرج، ملـــىء بالمطبات، شاهد وحيد على أن حضارة العصر قد مرت من هذا المكان، لا يتسع الطريق لغير سيارة واحدة، فإذا حـــدث وجاءت سيارة من الاتجاه المقابـــل، تقاســـم الســـائق معهـــا الطريق وحاد بنصف سيارته إلى التراب مثيراً زوبعة مـــن الغبار تملأ الأفواه والعيون، فيغلقون زجاج النوافذ ثم يعيدون فتحه مرة أخرى بحثاً عن نسمة هواء تبدد القيظ والاختناق، وعلى امتداد الطريق رأوا أنفسهم يجتازون أودية فى شـــكل

مسارب صغيرة صنعتها السيول، تلوح بين الحين والآخر خيمة سوداء نصبت على ضفافها، أو قطعان من شياه الماعز تدس رؤوسها بين أحجارها بحثاً عن الأعشاب التى أيبستها الأشهر التى مضت من هذا الصيف. والبون الصحراوى يمتد ويتسع، وسيارتهم ترتفع بها الأرض وتنخفض ثم ترتفع مرة أخرى وهى تجتاز تلاً صغيراً، لينشق الأفق عن مشهد البطاح التى تلوح بعيداً بلونها الضارب إلى السمرة، عارية، صخرية، تغطيها غلالةً رقيقةً من أبخرة الشمس، تجمعت تحت أقدامها كثبان من الرمال التى صنعت خطاً بلون الذهب يمتد بامتداد الأفق ويذوب فى أطراف السماء التى أطبقت على الأرض، ووسط السمرة والذهب ولون السماء انبثقت دائرة خضراء من أشجار النخيل، تعلوها ثلاثة أبراج طويلة سوداء تغرس رؤوسها فى السماء وتتخلل ذلك كله نقاط بيضاء هى قباب المسجد والضريح وقصر الحكومة، لوحة متعددة الألوان، منقوعة فى ضوء الشمس، معلقة بين السماء والأرض، وتستند على حافة الأفق، تلك هى بلدة " قرن الغزال ".

(٢)

ما إن وصل أعضاء البعثة العلمية التى يرأسها خبيـــر أمريكى إلى القرية، حتى أدركوا أن مظاهر الأشياء لا تنبـــئ بجوهرها، وأن تلك اللوحة التى بدت فيها القرية صبية فـــى ثياب العرس تهجع غافية فى أحضـــان الجبـــال، ليســـت إلا واجهة خادعة لمجموعة من البيوت القميئة الملتصقة بالأرض والدكاكين الفارغة وحظائر الدجاج وسحب الذباب والأتربـــة ورائحة الفقر التى تنبعث من كل مكان. عرف أهل القريـــة بوصول أعضاء البعثة فصاروا يعقدون زحاماً حولهم أينمـــا وقفوا، ويجرى الأطفال بأقدامهم الحافية وقمصانهم الممزقـــة وراء سيارتهم أينما ذهبوا، وأقام لهم الشيخ مسعود وليمة فى بيته دعا إليها المتصرف وبعض رجال القريـــة حيـــث دار الحديث حول مصنع الزجاج الذى اعتزمت الحكومة إقامتـــه فى »قرن الغزال« والذى ما جاءت هذه البعثـــة إلا لوضـــع المخطط النهائى لإنشائه ومعاينة المكان الذى ســـيقام فوقـــه البناء. أنبأهم الخبير أن التجارب العلمية أثبتـــت أن رمـــال قريتهم تصلح بطبيعتها المتميزة لصناعة أفخر أنواع الزجاج، واتخذ المتصرف هيئة الرجل الذى يقف وراء هذا الإنجـــاز

قائلاً إنه سيكون مصنعاً عملاقاً يغطى حاجة البلاد وينتج فائضاً للتصدير ويستوعب فى تشغيله أهل القرية وأبناء المديريات الصحراوية التابعة للمتصرفية ممن يحتاجون للعمل، تواترت كلمات الحمد والشكر والتهليل والثناء من كل الجالسين من أهل القرية، لقد صلوا أكثر من مرة صلاة الاستسقاء طلباً للّه أن يرزقهم بالغيث، ولكن للّه حكمته التى لا يدركها البشر، فها هى السماء تمطر بدل الماء زجاجاً، وقال الخبير الأمريكى عن طريق المترجم أن أناساً كثيرين فى العالم سوف يعرفون هذه القرية عندما يشربون فى أكواب ويتناولون طعامهم فى صحاف كتب فوقها باللغة الإنجليزية »صنعت فى قرن الغزال«، ونطق الاسم محرفاً فتساءل الشيخ مسعود منزعجاً لماذا لا تكتب »قرن الغزال« بالإنجليرية بمثل ما ينطقها أهلها دون تحريف أو تبديل، فأخبره الرجل بأنهم لا يملكون فى الإنجليزية حروفاً مثل القاف والغين، وأضاف المترجم قائلاً إنهم لا يملكون أيضاً الخاء والعين والحاء والصاد والضاد والظاء والطاء، فأدهشه أن تكون لغة مشهورة مثل الإنجليزية فقيرة إلى هذا الحد، وأدرك أن اللغة العربية أكثر شرفاً وغنيِّ ولهذا اختارها اللّه

لتكون لغة الوحى ولسان أهل الجنة، ونظر الحاضرون من أهل القرية بعضهم إلى بعض بحسرة وأسى لأن العالم سوف يقرأ اسم قريتهم ممسوخاً وقد يظنها قرية أخرى، وشرحوا للخبير معنى الاسم فقال ضاحكاً:

– ولكننى لا أرى غزلاناً فى القرية.

نقل المترجم كلامه ضاحكاً مثل ضحكته، فأخبروهما أن ذلك كان فى أزمنة غابرة عندما كانت هذه الأرض مرتعاً للظباء والغزلان، تجرى أوديتها أيام الشتاء بالماء كالأنهار، لقد بنيت لتكون محطة للقوافل الغنية القادمة من البلاد الإفريقية محملة بالعاج والذهب وخشب الإبنوس وريش النعام، ثم انتهى ذلك العهد لتبقى مركزاً تجارياً لبدو الصحراء، مصدراً للمؤن والغلال، وحلقة وصل بينهم وبين العمران، وها قد جاءت أعوام الجفاف فأمحلت الآبار والعيون وهجرت أرضها الغزلان والطيور، وسكتوا متحرجين من ذكر الأسباب الأخرى لمشاكلهم، فأكمل »ضوء الهلال« وهو رجل لم يدعه أحد لهذه الوليمة، ولكنه يفرض نفسه فرضاً على كل اجتماع، معتبراً نفسه من أعيان القرية ورجالها الكبار:

– ثم جاءت نكبة اكتشاف النفط.

نظر الشيخ مسعود نظرة غاضبة إلى ضوء الهلال، وقال يمنعه من مواصلة الكلام، ومعتذراً للضيوف عما قال:

– ما النفط إلا نعمة من اللّه على أبناء هذا الوطن.

ولكن ضوء الهلال خشى أن يميع الموقف وتضيع فرصة أن يعرف هؤلاء الضيوف الكبار المحنة الحقيقية التى تمر بها القرية فانتقل ليجلس مقرفصاً أمام الخبير الأمريكى ومضى يشرح بأسلوبه العصبى إشارات يديه التى صار الخبير يتفاداها خوفاً من أن تصل إلى وجهه، المفارقة العجيبة التى تعيشها »قرن الغزال«، فما أن جاء النفط وازدهرت أحوال المدن والقرى الأخرى حتى نكبت »قرن الغزال«، نضبت الصحراء التى حولها من البدو الذين باعوا أغنامهم وطووا خيامهم وهرولوا للعمل أجراء بشركات النفط، وتركوا هذه البلدة التى لم تبنَ إلاّ من أجل خدمتهم تعانى الفقر والبطالة وتمتلئ بالدكاكين الفارغة التى تغرد فيها الرياح، خلع الخبير نظارته يمسح آثار الأبخرة التى صنعتها أنفاس ضوء الهلال فوق زجاجها وجلس صامتاً يستمع إلى الترجمة.

وجاء صوت الحكمة على لسان المتصرف يقول:

– إنه بأموال النفط سوف تبنـــى الحكومـــة مصـــنعاً للزجاج تباهى به القرية المدن الكبيرة.

وشارك عامر اليتيم فى الحديث قائلاً:

– وسوف تصبح »قرن الغزال« نفسها مدينـــة كبيـــرة بإذن اللّه.

عاد ضوء الهلال إلى مكانه ولم يقل شيئاً، فهو يعرف أنه لم يبقَ من الوقت ما يكفى لبناء المصنع، لأن حرباً كونية سوف تقوم وسوف يجد العالم نفسه فى صراع ضروس لـــن يبقى فيه إلا من ملك الشجاعة والقدرة على احتمال الأهوال. رآه الشيخ مسعود صامتاً فحمد اللّه أنه لم يبدأ حديث الحرب التى ينذر أهل القرية كل يوم بقرب قيامها. انتهـــى الغـــداء، فخرج الشيخ مسعود ورفاقه يقودون أعضاء البعثة العلمية فى جولة عبر شوارع القرية ومعالمها، فاجأهم الخبير الأجنبـــى عندما أخرج خريطة كبيرة زاهيـــة الألـــوان رســـمت بهـــا تضاريس القرية ومعالمها، نشر الخريطة أمام وجهه ليحـــدد المكان الذى ينطلقون منه، مدوا أعناقهم يتأملونها بانـــدهاش،

وقد أفرحهم أن تكون قريتهم من الأهمية بحيث يتعب الخبراء أنفسهم فى رسم خرائطها وتلوينها.

كانت آثار الجفاف وزحف الصحراء بادية فى كل مكان يمرون به، آبار كثيرة مهجورة بعد أن جف ماؤها وتحولت المزارع من حولها إلى خلاء، وجوه الأطفال الذين يتحلقون حولهم مريضة متيبسة هربت منها الدماء، البيوت واطئة وخالية من أى جمال، مسقوفة بجذوع أشجار النخيل ومطلية بالجير الذى تحول بياضه إلى سواد، لا تملك نوافذ وإنما كوى صغيرة بأعلى الجدران، سأل الخبير عن السبب، فأبلغوه أن النوافذ تفتح غالباً على صحن البيت الداخلى المكشوف صوناً للحرمات من أعين المتطفلين، أما مكانتها كمركز تجارى انتهى زمانه، فقد بدا له واضحاً من رؤيته لهذه الحوانيت التى لا تُحصى، صفان طويلان من الحوانيت وبينهما ساحة كبيرة مليئة بالأوساخ والأتربة أخبروه بأنها مكان انعقاد السوق يوم الجمعة، تتوسطه شجرة اثل لها عروق ظهرت فوق الأرض وامتدت تغطى مساحة كبيرة من ساحة السوق، وحوانيت تفضى إلى حوانيت بعدها خاوية كلها، لا بيع ولا شراء، أرففها خالية إلاَّ من بعض المقتنيات

البسيطة التى يصنعها أهـل القريـة مـن سـعف النخيـل، وصناديق البلح والرطب التى لا يشتريها أحد حتـى فسـدت وصارت تلوث برائحتها المكان، وقميص هنا وحذاء هنـاك كأنها معلقة من أجل الزينة، أما أصحاب الدكاكين فقد أخرج كل واحد منهم حصيراً افترشه فى ظل الحائط أمام الدكان أو ظل الحائط المقابل واتكأ عليه يطارد الذباب ويفرغ غلّه فـى حبات المسبحة التى فى يده، كان الخبير يتأملهم بنظرة تمتلئ فضولاً واندهاشاً وكأنه يشاهد مشهداً فى مسرحية تتحدث عن عبث الحياة، سأل باستغراب وهو يرى هذا كله:

- إذن كيف تعيشون؟

هذه هى المعضلة التى لا يمكن لأحد منهم أن يجد لها جواباً، إنهم يعيشون، أما كيـف يعيشـون فهـم أنفسـهم لا يعلمون، وأسرع عامر اليتيم الذى كان يـرافقهم فـى هـذه الجولة قائلاً جملته الشهيرة:

- لا حول لا قوة إلا باللّه.

وابتسم لنفسه فقد ذكره سؤال الخبير بالأحاجى الشعبية، وتمنى لو استطاع أن يقول على أسـاليب تلـك الأحـاجى سأمنحك مدينة لو قلت لى أنت الجواب، ولكنـه تـذكر مـا

أصابه من خير أنجاه من البؤس الذى يعيشه كثيرون من أهل القرية فصمت عن الكلام، سمع الشيخ مسعود يقول:

- إننا لا نعيش.

قالها الشيخ وهو ما يزال يقلب السؤال فى رأسه، ثم سرعان ما أدرك أنه لم يقلها إلا مكراً وابتزازاً، لعواطف الرجل، إنه يعلم أن اللّه لم يقفل الدنيا فى وجوههم إلى هذا الحد، لاشك أن هذا الأمريكى لا يعرف أنه لا يزال هناك فى الدنيا من يستطيع أن يعيش على حفنة من التمر أو رغيف من الخبز مع طاسة الشاى، وهى أشياء لا يعجز عن تدبيرها أحد، إذ ليس فى القرية إلا عدد قليل ممن لا يحتفظون ببضع شياه يعهدون بها لأحد الرعاة بأطراف القرية، تفيدهم فى مواسم الأفراح وضحايا العيد وتعينهم على مواجهة ظرف طارئ مثل الذى واجهه اليوم عندما رأى من واجبه أن يستضيف أعضاء هذه البعثة، وقد يطارد الواحد منهم فى مواسم الحرث سحابة أمطرت فيزرع حفنة من الشعير وقد يكون له صبى بعث به للعمل بالمدينة أو ولد كبير أصبح جندياً فى الجيش يرسل له مالاً كل شهر، وقد تواتيه إحدى ضربات الحظ الحكومية ويصبح ضمن قوائم المستفيدين من

أجور الحكومة ومرتباتها. أما مصدر الأمان والبركة فسيقى دائماً كما كان فى كل أوقات الشدة والمحن وأيـــام الحـــروب والمعارك التى تمتد لأعوام طويلـــة عنـــدما تقفـــل الطـــرق وتنضب موارد الرزق الأخرى، هو شجرة النخيل المباركـــة التى جاء على ذكرها القرآن وكانت ثمارها طعاماً للأنبيـــاء، والتى تمنحهم خيراً يكفيهم طوال العام، ولا تطلب منهم شيئاً، ولا تقتضى عملاً أو جهداً، تحمل الريح إليهـــا اللقـــاح فـــى موسمه ويجنون ثمارها دون أن تكلفهم عناء ريها أو تسميدها أو تلقيحها أو تقليب أرضها. تذكر الشيخ مسعود كـــل هـــذا فشكر اللّه على نعمته وكتم الأمـــر عـــن الرجـــل الغريـــب مستغفراً اللّه فى سره لأنه خالف الآية التى تقول: وأما بنعمة ربك فحدث، ملتمساً العذر فى أن دين الرجل يختلـــف عـــن دينه، وقد يعدل عن بناء المصنع إذا عرف سر بقاء القريـــة وصمودها. قال يحرضه على الإسراع فى إنجاز المصنع:

- البركة فيكم وفى الحكومة، فلا حياة لقريتنا بغير هذا المصنع.

أخذوا الخبير إلى ركن قديم بالقرية لكى يشاهد مـــآثر أجدادهم حيث تنتصب تلك الأبراج الثلاثة التى كانـــت ذات

يوم حصوناً لسد الغارات على القرية، طويلة سوداء، مليئـــة بالثقوب التى يكفى الواحد منها لإخراج ماســورة البندقيــة، تهدمت من حولها الأبنية الأخرى، وانتهى عصر الغـــارات وقراصنة الصحراء وظلت هى واقفـــة تتحـــدى العواصـــف وتحمل فوق حجارتها صدأ السنين.

أثار منظرها فضول الرجل الأمريكى فسأل عمّن بناها وكيف بُنيت، لكن الشيخ مسعود رأى من الأدب إلاّ يخبره بما يعلم، لأن الذى بناها كان خبيراً أجنبياً مثله جـــاء مـــن وراء البحر، اكتراه أهل القرية لبنائها، وبعد أن أكمـــل إنجازهـــا دفعوا به من فوق برج النعام، وهو أعلى هذه الأبراج، ليلقى مصرعه خوفاً من أن يذهب إلى خصومهم فيبنى لهم حصوناً مثلها. تناسى سؤاله وحدثه عن شهرة القرية قديماً فى صناعة البارود وأهميتها العسكرية منذ عهد الرومان الذين بنوا بهـــا قلاعاً لا تزال أطلالها قائمةً بأطراف القرية، فأخبره الرجـــل الأجنبى بأن ذلك أيضاً مرسوم بالخريطة التى يحملها، أبدى إعجابه بما رأى وخلع عن عنقه آلة التصوير والتقط الصور للأبراج والأطفال ولمن كان معه من أهل القرية، أكـــد لهـــم بأنه سوف لا تمضى سوى أيام قليلة حتى تصـــلهم الأخبـــار

التى تقرحهم، ثم ركب سيارته مع أعضاء البعثـــة يـــرافقهم المتصرف لإكمال جولتهم ومعاينة الأماكن التى تصلح لبناء المصنع، وفى الليل أقاموا لهم حفلاً كبيراً بســـاحة الســـوق، شارك فيه أهل القرية بالغناء الجمـــاعى وجـــاء المتصـــرف بالزنوج الثلاثة الذين يحيون أعراس القرية وحفلات ختانهـــا بالرقص وضرب الطبول والعزف على النـــاى والمقرونـــة، فقدموا عرضاً استمر إلى ساعة متأخرة من الليل، ولا يدرى أحد كيف وصلت إلى الخبير جرّة من خمر النخيل (اللاقبى) فكان يسكب منها فى كأس أمامه ويطلق الصيحات الجـــذلى معبراً عن امتنانه بما سمع وما رأى، وفى الصباح سافر مع رفاقه تاركاً أهل القرية يحلمون باليوم الذى يشـــاهدون فيـــه الصحون والأكواب والتحف والتماثيل الزجاجية التى كتـــب فوقها »صنع فى قرن الغزال«.

(٣)

- من كان يظن يا أهل الخير أن هذه الرمـــال التـــى تذروها الرياح فى عيوننا تصبح مصدراً لخير بلدتنا وموردا ً للثروة التى سوف تهبط علينا؟.

- وتصير قرن الغزال التى لم يسمع بها أحد، حــديث الناس فى العالم، ويأتى على ذكرها المطربون الذين يتغنون بمنجزات الحكومة.

- سوف تمتلئ بالسائحات الأجنبيات الراغبــات فــى التعرف إلينا واقتناء تماثيل الغزلان المصنوعة مــن زجــاج مصنعنا.

- لقد انتشى ذلك الرومى من خمر نخلنا وســوف لا يطول غيابه عنا، سوف يأتى محملاً بآلاته وأفرانه ومداخنــه لينصبها بيننا ويقيم معنا ليلتقط لنا الصور ونحن نرتدى ثياب العمل الجديد.

- لا أظن أن الذى دبر له جرّة الخمر إلاّ عامر اليتيم، فقد أبدى نهماً شديداً لعقد صداقة معه.

- لو أنه عزمه فى بيته وأراه جمال ابنته لمــا غــادر القرية أبداً.

لقد أنستهم أخبار المصنع أحاديثهم عن عــامر اليتــيم الذى لم يعد يأتى ذكره أو ذكر ابنته على ألسنتهم إلا لمامــاً، فها هو حدثٌ كبيرٌ يأتى ليُحدث تحولاً هائلاً فى حياتهم وحياة قريتهم وها هى الحكومة التى أهملتهم وأخذت أموال الــنفط

لتنفقها بعيداً عنهم تذكر الآن المحنة التى جاءتهم بسبب النفط وتختار قريتهم لتكون موقعاً لهذه القلعة الصناعية الجديـــدة. انتظروا لأيام طويلة أن تأتى الشاحنات تحمل عصراً جديـــداً إلى القرية وتقضى على ثقل ورتابة الحياة فيها، كان الخبيـــر قد جاء مع أواخر الصيف، انقضى الصيف وانقضت بعـــده أشهر الشتاء، والعصر الجديد لا يأتى والحياة لا تفقد رتابتها ولا فقرها فيطوون قلوبهم على الحلم الجميل الذى قد يتحقق ذات يوم ويعودون لمراقبة التحولات التى طرأت على عامر اليتيم.

فمنذ وقت مضى صاروا يلاحظون أن عـــامر اليتـــيم يضيف جُملاً أخرى يشارك بها فى الحـــديث غيـــر جملتـــه المعهودة التى لم يكن يفتح اللّه عليه بغيرها وهى »لا حـــول ولا قوة إلا باللّه« والأدهى من ذلك أنه صـــار الآن جليســـاً للمتصرف والشيخ مسعود وإمام المسجد، وعنـــدما جـــاءت البعثة العلمية كان يسير كتفاً لكتف مـــع الخبيـــر الأجنبـــى ويشارك فى الحديث والنقاش.

– لا حول ولا قوة إلا باللّه.

كان هذا هو تعليقه الوحيد على كل ما يسمعه، خيــراً كان أو شراً، يلونها بحسب المناسبة، يقولها ضاحكاً ســعيداً معبراً عن رضاه أو عابساً حزيناً معبراً عن غضبه بــل إن انفعالات مثل الغضب والحزن والفرح لا تزوره إلا لمامــاً، فهو يمشى كأنه غائب عن الدنيا، ولكنه يقولها إذا طلب منــه رأى، وعادة لا أحد يطلبه إلاّ إذا كان مازحاً، لا يضيف إليها شيئاً ولا ينقص منها شيئاً. يأتى إلى المجــالس التــى تعقــد بساحة القرية ليلاً أو يمر بالمقهى يستمع بفضول إلى الحديث الذى يدور ودون أن يقول شيئاً يمضى إلى مستودع سيارات الحكومة الذى يشتغل به حارساً ليلياً، فلا يحس أحد بمجيئــه أو ذهابه، لا يهتم أحد بدعوته إلى حفل أو مأدبة أو اجتمــاع اللهم إلاّ إذا جاء ذلك عرضاً، ولكن لا أحد ينتبه إلى حضوره أو عدمه، يمر بالناس ويمرون به وأقصى ما يمكن أن يدور بينهم من كلام هو إلقاء التحية أو تعليق ساخر يــرد عليــه بجملته المعهودة، ويمضى، نادراً ما كان يناديه الناس باسمه كأنه ليس لعامر اليتيم اسم، يمر فى الطرقات يدلدل ذراعيــه ويجر قدميه جراً ويسدل فى انطفاء ملامح وجهه التى تبــدو مائلة نحو الشمال كأن تشويهاً قد لحق بها، لا يؤذى أحداً ولا

يتعرض له أحد بالأذى، مثله مثل آخرين فى القريـــة ممـــن ارتضوا الحياة على هامش الدنيا قانعين باللقمة التى يحصلون عليها. ولكن شيئاً فى بيت عامر اليتيم كان ينمو ويكبر ويتهيأ لأن يُحدث انقلاباً فى حياته، كان هـــذا الشـــىء هـــو ابنتـــه »جميلة«. فقد أكملت ابنته المدرسة الابتدائية وجلست ثـــلاث سنوات فى البيت لأنه ليس هناك بعد الابتدائية مدرسة للبنات تواصل بها تعليمها، إلى أن جاء المتصرف الجديد بابنته التى حصلت هى أيضاً على الشهادة الابتدائية، فأنشأ لهـــا فصـــلاً جديداً ألحقه بمبنى ابتدائية البنات وجعله نواة لمعهد المعلمات ونقل للتدريس به مدرساً مصرياً وزوجته، وبحث عن البنات اللاتى فى مستواها الدراسى، فكان أن التحقت ابنة اليتيم مع خمس فتيات أخريات لإكمال دراستها، وعندما عرف رجـــال القرية بأنه أرسل ابنته إلى المدرسة الجديدة سافرة الوجه مثل ابنة المتصرف وضابط الشرطة وبنات الممرض الذى جـــاء حديثاً إلى القرية، لا تختلف عنهن فى شىء إلاّ أنها ترتـــدى جلباباً طويلاً وتضع فوق رأسها منديلاً، لم يثوروا فى وجهه أو يغضبوا لأنه اخترق تقاليد القرية وقلّد هؤلاء الوافدين، ولم يدخل معارك مع أحد كما فعل ضوء الهلال عنـــدما ســـمح

لابنته بأن تذهب فى ثياب الممرضات لتشتغل بالمستوصف ممرضة للنساء والأطفال، لأنهم يعرفون أن اليتيم لا يعى ما يفعله ولا يملك مدارك يميز بها بين الخطأ والصواب وإنه جاء إلى الدنيا يتيماً لا أهل له يضيرهم عمله، فتركوه إلى حاله وأسقطوه من حسابهم ولم يهتم بأمره أو أمر ابنته أحد.

ولم تمضِ سوى أشهر قليلة على ذهابها إلى المدرسة حتى انتبه الناس إلى جمالها، وصاروا يلهجون باسمها مصحوباً بكلمات مثل »ما شاء اللّه« و »ما أبدع ما خلق اللّه«، فى الحق هم لا يلهجون باسمها، ففى القرية مازال الحديث عن أسماء النساء يثير التحفظ والخجل، ولكنهم يقولون »ابنة اليتيم«، فقد صار معروفاً أن لابنة اليتيم جمالاً لم تعهد البلدة مثله من قبل، وتدريجياً بدأ الناس ينتبهون إلى وجود والدها بالمجالس، وصار شيئاً فشيئاً يدخل دائرة اهتمامهم ويحظى منهم بمعاملة تختلف عن المعاملة السابقة، بدأ الأمر بالمدرسين الشبان الذين لم يتزوجوا بعد، فهم أول من اهتدى إلى الثروة التى يضمها بيت اليتيم، وهم أول من بدأ التودد إليه وعقد الصداقات معه ويستعيرون تعبيره تقرباً

إليه، فيبادرونه قائلين بمرح وابتهاج: - لا حول ولا قوة إلاّ باللّه.

فيرد عليهم بمثلها ضاحكاً وينادونه بعمى اليتيم فيفرح بندائهم، ويرسلون أمهاتهم إلى معسكر الطليان القديم، الذى تحولت بيوته إلى خرائب تسكنها العائلات الفقيرة بالقرية حيث يسكن أيضاً عامر اليتيم، محملات بالشاى والسكر واللوز والبسكويت عقداً للصلة التى قد تأتى بنتائجها عند التفكير فى الزواج، ولأن حلم الزواج بامرأة أخرى يصلح به الرجل خطأ الزواج من المرأة الأولى هو حلم كل المتزوجين. فقد بدأ الرجال عزاباً ومتزوجين، حتى كبار السن منهم، يهتمون بعامر اليتيم ويتوددون إليه ويدعونه إلى المناسبات التى تشهدها القرية، بدأ أطفاله فى المدرسة الابتدائية فجأة ينقلبون إلى تلاميذ أذكياء يعودون كل يوم بالجوائز التى يمنحها لهم المدرسون تزلفاً وتملقاً لوالدهم، ويأتون الواحد بعد الآخر يستأذنون فى تقديم دروس خصوصية لهم، فكانت زوجته تشير عليه بأن يقبل عرضهم وأن يبعث بالأطفال إلى بيوتهم ويعتذر عن استقبالهم فى البيت لأنه لا يليق بالمقام، وكان أصحاب الحوانيت، رغم

كساد تجارتهم، أو بسبب كساد تجارتهم، هـــم أكثـــر النــــاس منافسة للمدرسين فى محاباتهم لليتيم، تختفى البضـــاعة مـــن أسواق القرية لمجيء عيد أو مناسبة دينية ولكن حق عـــامر اليتيم يبقى دائماً محفوظاً، وينتهى لحم الماعز أو الجمل مـــن دكان الجزار فى أيام المواسم، ولكن الجزار يـــأتى هامســـاً لليتيم بأن نصيبه موجود، وكلما جاءت من المدينــــة ســـيارة شحن محملة بالفاكهة أو الخضار جاء أحد الناس يطرق بابه حاملاً بعض الغلال قائلا بأن واجب الجوار اقتضاه أن يأتى بهذه الهدية للأطفال، وكان لابد أن يصل الأمر إلى أســـماع الحكومة، وأن تدخل بكل ثقلها للفوز برضا اليتيم، فهـــو لـــم يكن يحلم يوماً بأنه سيكون على قائمة المرشحين لاستلام أحد البيوت العشرة الجديدة التى بنتها الحكومة، فمـــازال نصـــف سكان القرية ممن هم أكثر منه نفوذاً وعلماً وخبرة بـــالأمور يسكنون بيوتاً قديمة توشك على السقوط، ويبذلون مســـاعيهم للحصول على بيت حكومى، ولكنه وجد نفسه فجأة يتصـــدر قائمة الناس الذين وقع عليهم الاختيـــار للفـــوز بأحـــد هـــذه البيوت، دون أن يقدم بذلك التماساً أو يأتى من شيخ القريـــة بشهادة تثبت أحقيته لمثل هذا البيت كما فعل مئات غيره من

أهل القرية، وعرف أن المتصرف بنفسه هو الـــذى وضـــع اسمه على رأس القائمة، وأكثر من ذلك فقد جاء من يســـعى إليه مستعطفاً أن يتوسط لدى المتصرف من أجل الحصـــول على بيت مثله، ولم يدر عامر اليتيم ماذا يقول أكثر مـــن »لا حول ولا قولة إلا باللّه«، دون أن يعرف صاحب الطلـــب إذا كانت هذه العبارة تعنى قبوله بالتوسط أو رفضه له، وهو فى الحقيقة لم يقبل ولم يرفض كل ما فى الأمر إنه يعبـــر عـــن اندهاشه من هذه الدورة الكبيرة التى تدورها الأفلاك فترفـــع أقداراً وتهبط بأخرى. واكتشفوا فى مستودع الســـيارات أنـــه موهبة أسىء فهمها وأن الأمد قد طال به فى الخدمة دون أن ينال ترقية فإذا بهم ينقلونه من الحراسة الليلية ويمنحونه لقباً مهيباً هو »مشرف تشغيل«، كان سعيداً بالترقيـــة والعـــلاوة التى تأتى معها، ورغم أنه لم يكن يشرف على شىء، ولـــم يكن يهمه أن يشرف على شىء، فقد صار الآن بإمكانـــه أن ينام فى بيته وأن يأتى للعمل متأخراً دون أن يحاســـبه أحـــد ويخرج دون أن يستأذن من أحد، وجد مكانته فى القرية تتأكد يوماً بعد يوم، ثم تدريجياً بدأ يكتشف أن اللّه قد حـــل عقـــدة لسانه وبعث الحياة فى هذا العضو العضلى الذى يرقد فى قاع

الفم فصار يتحرك بالكلام كألسنة النــاس، غمرتــه نشــوة الاكتشاف وأقبل وسط اندهاش الناس جميعــاً يشــارك فــى الحديث بشهية عظيمة، شهية رجل حُرم من الكــلام طــوال عمره، دون أن يعبأ بما يصيبه من تعثر فى نطــق بعــض الكلمات مما يجعل الناس يضحكون أحياناً من كلامه، وصار يجد نفسه يقتحم مجالس الرجال الكبار الذين لم يجرؤ يومــاً على أن يرفع إليهم عينيه، فيعاملونه كأنه واحد منهم، وهــو الرجل البسيط الذى لا يعرف قراءة ولا كتابة ولا يعرف أهلاً ولا قبيلة، تربى يتيماً على الإحسان إلى أن التصق اليتم بــه وصار اسمه، فيحمد اللّه على نعمته ويتمنى لو كانــت أمــه على قيد الحياة لترى المكانة التى وصل إليها، ويستقبل حياته الجديدة بفرح وحب غامرين.

وصار إذا ما قام حفل فى القرية ولم يحضره عــامر اليتيم فإن أكثر من رجل يتفقده ويسأل عن سبب غيابه ويجد فى ذلك مبرراً لأن يذهب إلى بيته حالماً بأن تفتح له جميلــة الباب، ليسألها عن غيبته راجياً أن يكون المانع خيراً، بل إن الجملة الوحيدة التى كان يقولها صاروا الآن ينظرون إليهــا فى ضوء جديد، لقد بدت وكأنها تعليق ناجز مختصر علــى

كل المواقف فى الحياة وتحمل فلسفة عميقة لم ينتبهوا إليها إلاّ الآن، ويجدون سعادة فى ترديدها سواء كان ذلك فى حضوره أو غيابه. ولا شك أن دافع الزواج لم يكن وحده سبب كل هذا الاحتفاء بدليل أنه مرت أكثر من ثلاث سنوات وهى تخطر أمامهم فى طريقها إلى المعهد دون أن يتقدم أحد لخطبتها قائلين بأن والدها لن يسمح بزواجها قبل أن تنتهى من تعليمها، ويلتمسون بهذا القول عذراً عن عدم الذهاب إليه وطلب يدها، كان واضحاً أنهم بقدر ما يتعلقون بجمالها النادر الغريب فهم أيضاً يرهبونه ويرهبون كونها امرأة متعلمة ستفوز قريباً بشهادة التدريس، فمن يجرؤ على ترويض امرأة تحمل شهادة مثلها، خصوصاً وأنها تعودت على الخروج سافرة الوجه مثل نساء المدينة. ليس حلم الزواج وحده إذن وإنما شىء آخر غامض لا يجدون له تفسيراً يجعلهم جميعاً يحتفلون به، كأن مجىء ابنة من صلبه لها كل هذا الجمال يجعله متميزاً عن الآخرين، ويجعلهم جميعاً يوقنون بأنه يحتوى على معدن نادر أهملوه طويلاً وحان الآن أن يردوا له اعتباره.

ولم يكن عامر اليتيم على يقين من السبب الذى يجعله على مدى هذه السنوات الأخيرة يصبح صاحب حظوة لـــدى الناس، كان فى جزء من عقله يدرك أن لجمال ابنته علاقـــة بالموضوع ولكنه يأبى أن يصدق ذلك، كان يريد أن يثبـــت لنفسه أن الأمر يعود إلى قيمة يحملها فى ذاته، قيمة تميز بها وحده وغفل هو عنها كما غفل عنها بقية الناس، وكان يقلقـــه أحياناً جمال ابنته واهتمام الناس بها وحديثهم عنها، ويجد فى ذلك شيئاً يثير فى قلبه الخوف، ويفكر أحياناً أن يعيدها إلـــى حجابها مرة أخرى، ولكن الوقت تأخر الآن، ثم إنـــه لـــيس أفضل من حكام القرية ورجالها الكبار الذين يرسلون بنـــاتهم للدراسة سافرات مثلها، بل هن أكثر سفوراً منها لا يرتـــدين مثلها الملابس التى تجر فى الأرض أو يضعن مثلها مناديـــل تغطى الشعر، فلماذا الخوف وابنته ستكون بعد أشهر قليلـــة معلمة مثلها مثل بنات هذه العائلات الكبيرة.

كان اليتيم قد رمى إلى غير رجعـــة ذلـــك المعطـــف المهترئ القديم الذى كان يرتديه حتى فى أكثر أيام الصـــيف قيظاً ويرتدى بدلاً منه ألبسه نظيفة وعباءة جديـــدة، وصـــار يبسط وجهه المتجهم الملىء بظـــلال وتجاعيـــد لـــم تكـــن

الشيخوخة سبباً لها، بل إن الظلال ذاتها صارت تختفى من وجهه وتجرى فيه نضارة جديدة حتى إن ذلك التشويه الخفيف فى ملامحه اختفى ولا يراه إلا من يدقق النظر إليه. لم تسقط من حديثه عبارة »لا حول ولا قوة إلا باللّه« لقد احتفظ بها وصار يضيف إليها كلاماً له معنى، ويطلق الدعابات ويقول رأيه فى أمور القرية ويأتى على سيرة الرجال الذين يديرون أمورها باعتبارهم أصحابه، وسط عيون مفتوحة على آخرها، اندهاشاً واستغراباً لهذا الانقلاب الذى طرأ عليه، وما أن يغادر مجلساً من مجالس أهل القرية، حتى يبادر أحدهم معبراً عن دهشته من عامر اليتيم الذى لا يعرف كيف يقول السلام عليكم فأصبح صاحب فصاحة وفتاوى ونداً للشيوخ والمدراء والمتصرفين، ويضرب كفاً بكف قائلاً وهو يقلد لهجة اليتيم:

- لا حول ولا قوة إلا باللّه.

فيضحك الجالسون.

وعندما رأوه ذلك اليوم الذى جاءت فيه البعثة العلمية يسير بصحبة الخبير الأمريكى يمازحه ويضحك معه كما يفعل المتصرف والشيخ تأكد لهم أن اليتيم سيكون له شأن

كبير فى مستقبل الأيام وأن له من الدهاء ما يجعله يقنع ذلك الخبير بأن يعينه مسؤولاً محلياً للمصنع ورئيساً لكل العمال.

(٤)

جاء الانتقال إلى البيت الجديد مناسبة يختبر بها عامر اليتيم مدى ما وصل إليه من جاه ونفوذ، أشاد خيمة كبيرة أمام البيت وزيّن مدخله بسعف النخيل وعلق حذوة حصان فوق الباب جلباً للفأل الطيب، ومدّ الخيوط التى تدلت منها المصابيح المصبوغة بمختلف الألوان، وحضر من يساعده فى نحر الخراف وشياه الماعز التى جاءته هدية من أهل القرية وأقام للرجال وليمة كبيرة حضرها المتصرف والشيخ مسعود نصر الدين وضابط الشرطة ومدير التعليم وجاء من المدينة الحاج عبد الجليل ممثل المنطقة فى مجلس النواب كما جاء بعض مدراء النواحى حيث أجلسهم على بساط نضت فوقه الوسائد بوسط الخيمة فى حين جلس بقية أهل القرية فى أطرافها الأخرى وفوق الحصائر التى مدت خارجها وارتدى هو الجريدى والزبون لأول مرة فى حياته، كما ارتدى طاقية حمراء لها زر طويل كتلك التى يظهر بها الملك فى الصور

الرسمية، قام على خدمة ضيوفه حتى انتهى الطعام، وجـــاء موعد السهر فجلس بينهم يرحب بهم، سعيداً لأنه جمع فـــى مجلس واحد كل هؤلاء المسؤولين الذين لا يلتقون مثل هـــذا اللقاء إلا نادراً، دار الحديث عن همـــوم القريـــة ومشـــاكلها ومصنع الزجاج الذى تأخر إنجازه، أخبـــرهم الحـــاج عبـــد الجليل أن مسائل مثل هذه لا تتم فى شـــهر أو شـــهرين وأن إعدادها يحتاج إلى عام أو عامين وطمأنهم بأن ميزانية كبيرة سوف يرصدها مجلس النواب للمشروع وأنه لن يترك الأمر حتى يرى المصنع قد خـــرج إلـــى حيـــز التنفيـــذ، خشـــى المتصرف أن يذهب الثناء كله إلى الحاج عبد الجليل فتدخل بالحديث قائلاً بأن المياه الى يحتاجها المصنع لن تكون مشكلة كما صورها البعض كل ما فـــى الأمـــر أنهـــم يحتـــاجون لاستخراجها من أعماق بعيدة كما حدث مع البئر الذى تشرب منه القرية. رأى عامر اليتيم ضوء الهلال ينتقل إلى مجلسهم ويهم بالتدخل فى الحديث فخشى أن يفسد جمال هذه الجلســـة ويغضب هؤلاء الضيوف بحماقته وعصبيته فقام من فـــوره يأخذه إلى مجلس خارج الخيمة بحجة أن بين الرجال هنـــاك من يود الحديث إليه، ثم عاد يلهج بالثناء على جهود النائـــب

المحترم والسيد المتصرف وقد صار يقيناً فى ذهنــه أنهــم جميعاً قد اعترفوا به وجيهاً من وجهاء البلدة وواحــداً مــن أعيانها.

وأقامت زوجته فى الليلة التالية حفلاً لنساء القرية لــم تتخلف عنه حتى العجائز الطاعنات فى السن، جئن جميعهن مدفوعات بفضول عظيم للتعرف على هذه الفتاة التى صارت مصدر غواية للرجال وحديث أهل القرية صــغاراً وكبــاراً، تأملتها وهى تقوم صامتة على خدمتهن، خضــبت بالحنــاء أصابع يديها وقدميها وعلقت فى أذنيها أقراطاً وفــى عنقهــا قلادة من العقيق وارتدت احتفالاً بهذه المناســبة رداءً تــزين حواشيه خيوط الفضة ومن تحته فستان له ألوان زاهية ممن ترتديه نساء القرية فى الأعراس، بدا جمالها باهراً كجمــال الأميرات فى الأساطير الشعبية، فكن يعلقن أنظــارهن بهــا مندهشات كيف لامرأة عمشاء مثل أمها، منخــورة الأســنان وداكنة السمرة كالزنجيات، أن تلد ابنة لها وجه كفلقة القمــر وعيون كعيون الظباء، وتبحث الواحدة منهن عن نقــص أو عيب فى جمال الصبية يمكن أن تنتقده فلا تجد شيئاً، ولكنها تأبى التسليم وتدس رأسها فى رأس المرأة التى بجوارها وقد

أدركت أنها عثرت على موطن الضعف فى شخصيتها قائلــة بلهجة متآمرة هامسة بأن جمال الفتاة كجمال التصاوير، حياة بلا روح، وأن المسكينة قد ورثت عن والدها عــدم القــدرة على النطق السوى، فهى صامتة لا تقول شيئاً وإن قالت فهما مجرد كلمتين، تفضلى وشكراً، لا تستطيع أن تقول غيرهما، وترتاح لاكتشافها وتتمنى على اللّه أن يكون كلامها صحيحاً فلا يخيب ظنها وإلا خرجت من هذا البيت بداء »الفدة«، ثــم بدأ الحفل وضج المكان بالعزف والرقص والغناء، أخــذتهن الزنجية العجوز أمى سعيدة بغنائها فى رحلة حنين إلى الأيام البهيجة القديمة عندما كانت تحيى أعراس القريــة بأغانيهــا وعزفها على الطبلة، لقد اعتزلت الغناء منذ أعوام طويلــة، ولكنها إكراماً للعلاقة التى تربطها ببيت اليتيم جاءت وغنــت هذه الليلة، وبرغم صوتها الذى زحفت عليه الشيخوخة وفقد طلاوته، فقد طربن لغنائها، وأعادت إلى أذهان المتزوجــات منهن اللاتى غنت أمى سعيدة فى أعراسهن سحر تلك الأيام الخوالى التى لن تعود، وتوالت النداءات التى تــدعو جميلــة للمشاركة فى إحياء هذه الليلة وسحبها من يدها لكى تنضــم للرقص مع بقية البنات، رأينها تمتنع وتعتــذر قائلــة بأنهــا

مشغولة بخدمة الضيوف، فازددن يقيناً بأنها مجـــرد مظهـــر ساحر الجمال لامرأة خاملة الـــروح وخاليـــة مـــن المـــرح والدعابة، ولكن جميلة قبل ختام الحفل بقليل جـــاءت تخيـــب ظنهن وتمنحهن سبباً آخر للحسد والغيرة، رأت الحفل قد دب فيه الفتور فلبت أول دعوة جاءت تدعوها لأن تغنى، فكـــرت فيما يمكن أن تغنيه، لأنها لا تحفظ شيئاً من أغانى الأعراس ولا تعرف إلا الأغانى التى تسمعها عـــن طريـــق المـــذياع فأعجبت بها وكانت ترددها بينها وبين نفســـها، قـــررت أن تغنيها لنساء الحفل، كانت أغان جديدة على أسماعهن، فلـــم يستطعن مشاركتها الغناء، وإنما بقين يستمعن إليهـــا وهـــى تغنى بمفردها مبهورات بصوتها وعذوبة غنائهـــا وجمـــال الألحان التى تحفظها، وما أن تنتهى من أغنية حتى يطالبنها بأغنية أخرى فيتدفق صوتها يبعـــث فـــى القلـــوب البهجـــة والحسرة والفرحة والشجن فى وقت واحد، وسرت فى الحفل روح جديدة ودب الحماس والنشاط بين الفتيات فعـــدن مـــرة أخرى للرقص، وقلعت جميلة الرداء الثقيل الذى يعوقها عن الحركة وفكت المنديل الذى يربط شعرها ورقصت مع بقيـــة البنات فتطاير الشعر الأسود الطويل فى الهواء وتمايل الجسم

الذى يشبه جداول الماء انثنى مع الإيقاع والتوى، ثم أسرع الإيقاع فانتفض الجسم الجميل كلهب النار يشعل قلوب النساء حرقة وحسداً وغيظاً من تصاريف الأقدار التى تمنح هذا الجمال النادر لابنة رجل معتوه وامرأة عمشاء وتمنعه عن بنات آباء وأمهات أكثر وسامة وعراقة، وبدا لهن أن ذلك شىء لا يتفق مع طبيعة الأشياء ونواميس الكون وأن جمالها الذى يشبه جمال الجنيات سوف يوقظ الفتنة ويشعل الحرائق فى »قرن الغزال«، وتوالت برغم ذلك التعليقات التى تشيد ببراعتها فى الرقص والغناء، فوقفت إحدى النساء وقد فاض بها الكيل ولم تستطع أن تدارى غيظها، وردت على هذه التعليقات بصوت عال كأنها أرادت أن تسمعه جميلة وأمها وبقية النساء:

– وماذا يعلموهن فى المدارس غير التهتك والخلاعة، حفظنا اللّه وأسبل علينا ستره.

سمعت أمى سعيدة ترد بغضب على كلماتها وتسألها أن تقفل فمها فارتدت بسرعة لحافها، وصرخت فى غيظ تنادى ابنتها، فخرجت من وسط الزحام صبية تلتصق الأرض، خالية من أى جمال أو أنوثة، شدت على يدها

تسحبها بقوة وعنف وراءها، وخرجت تغمغم باللعنة على هذا البيت الذى يمتلئ تهتكاً وفجوراً.

(٥)

بالغت أم جميلة فى الاعتناء بابنتها حتى صـــار هـــذا الاعتناء حصاراً، أدركت الأم أن هذا الخير الـــذى أصـــابهم والبيت الجديد الذى منح لهم ليس إلا بسبب جمـــال ابنتهـــا، فذهب فى يقينها أن أعين الحساد لن تتركها ولن تترك النعمة التى جاءتهم بسببها دون أن تفعل فعلها وتحـــاول أن تلحـــق الأذى بجميلة وأهلها، وخائفة صارت تلهج بالدعاء وتكثر من إحراق البخور داخل البيت، وتذهب كل يـــوم جمعـــة إلـــى ضريح سيدى أبو قنديل توقد له الشموع وتســـأله أن يحفـــظ ابنتها من العين وتعود بصرة من تراب الضريح تنشرها على عتبة البيت، ولم تعد تترك جميلة تـــذهب إلا بصـــحبة أحـــد الأطفال من إخوتها، يتولى حراستها، وأحيانـــاً تقـــوم هـــى بمرافقتها، ترتدى لحافها وتصحبها إلى المدرسة وتنتظرهـــا أثناء العودة منها، وهى خائفة من أن يلحـــق النـــاس شـــراً بابنتها، وبرغم أن أحداً من رجال القرية أو شبابها لم يجـــرؤ يوماً على الاقتراب منها أو محاولة التحدث إليها، إلا أن جواً

غريباً كانت جميلة تحس به يغمر الدنيا من حولها، وتعـرف أن عيون الناس وإن لم تحدق مباشرة بها إلا أنها تتناولها من بعيد كأنها عدسات سرية مبثوثة فى كـل مكـان تراقبهـا، وتدرك أن لديها شيئاً تتميز به عن بقية البنات ممـا يجعلهـا تواجه غيرتهن منها بشيء من الاعتزاز والكبرياء فينعتنهـا بالغرور ويفتعلن الخصومة معها، وكانت علامات الصـحة والعافية والتورد فى وجهها مثاراً لاستغراب نسـاء القريـة اللاتى يجدن بناتهن ضعيفات نحيفات لا تورد فى وجـوههن ولا اكتناز فى أجسامهن مع أنهن نشأن فى بيوت أفضل مـن تلك الخرابة التى كان يسكنها اليتيم ويتناولن طعاماً أفضل من الطعام الذى يوفره لابنته وهو الذى لا يملك نخلاً ولا غنماً، فيدعين بأن السر فى ذلك هو أن أمها كانـت تسـقيها منـذ طفولتها لبن الحمير والعياذ باللّه، وبينهن مـن تقسـم بأنهـا شاهدت أم جميلة تقوم بحلب الحمارة التى كان يجلب عليهـا اليتيم الحطب إلى بيته قبل أن يشترى موقد الغاز، حتى صار حلب الحمير سراً وسقى حليبها للبنات هوايـة كثيـر مـن الأمهات، ويذهب بعض أهل القرية إلى التأكيـد بـأن تلـك الأمطار الغزيرة التى هطلت منذ ثمانية عشرة عاماً وصنعت

سيولاً أهلكت الأغنام إنما حدثت يوم مولدها ثم أعقب ذلك الجفاف وزحف الصحراء فعقمت السماء وأمحلت العيون التى تدر الماء واختفت الأشجار والظباء والطيور، وأن جميلة إنما هى فتاة تحتوى على عنصر عجيب وأنها نطفة غريبة تنتمى إلى تلك القوى الخفية المجهولة التى تعيش معنا ولا نراها، وتسمع جميلة أطرافاً من هذا الكلام الذى يقال عنها، تديره فى عقلها ولا تجد له معنى أكثر من كونه علامة على شىء خصها اللّه به وحدها، فتذهب إلى مرآتها تتأمل ملامح وجهها وتقاطيع جسمها، سعيدة بأنه قد أصبح لها الآن فى البيت الجديد غرفة خاصة بها، تستمتع بخصوصيتها وتحاول أمام المرآة أن تبحث عن سر هذا التميز الذى يتحدث به الناس، تقفل غرفتها على نفسها وتنضو جميع ملابسها وتقف أمام المرآة عارية تتأمل شعرها وجبينها وعينيها وتبتسم لترى جمال ابتسامتها وتهبط بنظراتها محاولة أن تكتشف هذا الشىء فى استدارة نهديها أو ضمور خصرها أو نعومة وتورد بشرتها أو تناسق وانسياب جسمها وتدعى لنفسها أنها لا ترى شيئاً يميزها عن غيرها من النساء، وتخرج لسانها للمرأة العارية أمامها فى المرآة وترى أن

المرأة الأخرى أخرجت لها لسانها ساخرة من رأيها فيها لأنها تعرف أنها أحلى امرأة فى الدنيا، فتضحك فى سعادة وترتمى على سريرها وقد استيقظ فى روحها وجسمها إحساس المرأة بأنوثتها التى نضجت وتفتحت، فتستلقى صامتة فوق سريرها، تنصت إلى نداء الحياة قوياً هادراً يسرى مع الدم فى عروقها.

ولكنها عندما تذهب فى طريقها كل صباح إلى المدرسة، كانت تدس عنقها الطويل بين كتفيها وتخفى تحت جلبابها الواسع استدارة نهديها وتحكم غطاء الرأس حول شعرها، خجولة من جمالها موقنة بأن فيه ما ينافى الأدب وأصول الحشمة.

ولقد أراد أحد الشعراء الشعبيين أن يكتب قصيدة احتفالاً بهذا الجمال الذى أشرق فى دروب القرية، رأى أنه ليس من اللائق أن يترك هذه »الجميلة« دون أن يربطها بعلاقة حب مع أحد شباب القرية، وفتش طويلاً قبل أن يهتدى إلى ولد له مواصفات تليق بحب فتاة فى مثل رقتها وعذوبتها، لم يجد بين الشباب المقيمين فى القرية من يصلح لها، فذهب يبحث عن الشباب الذين رحلوا عن القرية بغرض

الدراسة ثم حصلوا على شهادة ضمنت لهم وظيفة مريحة فى دوائر الحكومة بالمدينة، ومن بين هؤلاء الشباب اختار ولــداً يكثر من زياراته للقرية، فى عينيه أسى يليق بعاشق يعذبــه الشوق لرؤية حبيبته، اسمه »العيد«، فصــنع للعيــد علاقــة بجميلة، وصاغ لهما قصة حب وهمية فى قصــيدة قصــيرة يسهل على الناس حفظها وتناقلها، وأطلق قصيدته بين الناس دون أن يكشف هويته، وصار الناس يتناقلون قصة هذا الحب الذى لا تعلم جميلة بأمره ولا يعرف عنه العيد شيئاً.

(٦)

العيد ليس اسمه الحقيقى، ولكنه لقب منحه له أطفــال القرية ثم وجده الكبار اسماً يليق بصاحبه فصاروا ينادونه به ويهجرون اسمه الأصلى »مصطفي«، ترك له والــده ذكــراً طيباً بين الناس، فقد عاش عمراً كاملاً يحمل الماء على كتفيه إلى المسجد، وعندما دخلت الحنفيات إلى بيوت القرية ولــم يعد للمسجد حاجة به، مات، وبعكس غيره من الشباب الذين يذهبون للدراسة خارج القرية ويحصلون بعــد ذلــك علــى وظائف فى المدينة تنسيهم قريتهم فلا يعودون إليها إلا مــرة كل عام أو عامين، حافظ العيد على علاقة حميمــة بقريتــه

وأبقى أمه مقيمة بها بعد أن رآها تفضل الإقامة بجوار أهلها، وما أن تأتى مناسبة أو عطلة رسمية أو عيد من الأعياد الدينية حتى يكون العيد قد وصل فى مساء اليوم السابق محملاً بهدايا يأتى بها معه ليفرح أطفال أقاربه، فاكهة وألعاب وحلوى، فارتبط مجيئه فى أذهان هؤلاء الصغار بمجىء الأعياد وصاروا كلما رأوه يصل إلى القرية ينطلقون صائحين بأن العيد قد جاء اعتقاداً منهم بأنه هو الذى يأتى بالأعياد إلى قريتهم.

- متى سنفرح بك أنت وجميلة؟

قالها له جمعة الدرويش بمجرد أن رآه يصل إلى القرية، ذهب إليه مهرولاً وألقى عليه سؤاله قبل أن يبادره بالتحية أو يسأله عن علبة الشموع الملونة التى أوصاه بإحضارها له من المدينة، أعطاه العيد علبة الشموع وقال مداعباً:

- لن أتزوج قبل أن أراك عريساً.

ضحك الدرويش ومسح بطرف ثوبه الزبد الذى انتشر حول فمه ودس رأسه فى الأرض خجلاً، ثم فتح علبة الشموع يتأمل ألوانها مبتهجاً، نظر إليه العيد مبتسماً وهو

يراه سعيداً سعادة طفل بلعبته، متسائلاً بينه وبين نفسه عمن وضع فى رأس هذا الدرويش فكرة زواجه من جميلة، كان العيد يعرف أن لليتيم ابنة يتحدث بجمالها الناس اسمها جميلة، ولكنه لأول مرة يسمع أحداً يربط بينه وبينها.

– من أين جئت بهذه الفكرة؟

سأله العيد باهتمام فلم يزد الدرويش على أن قال:

– كل الناس ينتظرون هذا اليوم.

وفرحاً بشموعه ذهب يعدو باتجاه ضريح سيدى أبو قنديل حيث يقيم وحيث سيوقد هذه الشموع ويستمتع بلهبها المتعدد الألوان.

عرف العيد بعد ذلك أن أهل القرية يتناقلون أبيات قصيدة زجلية تتحدث عن علاقته الوهمية بابنة اليتيم، وبرغم أن القصيدة أثارت فضوله لرؤية الفتاة، إلا أنه أخذ الأمر كله مأخذ الدعابة قائلاً لمن يذكر الموضوع أمامه بأنه الآن وقد التحق بالدراسة الجامعية طالباً من منازلهم، فإنه لا وقت عنده للحب ولا رغبة فى الزواج قبل أن ينتهى من دراسته التى تستمر لأعوام طويلة تكون خلالها ابنة اليتيم قد تزوجت وصارت أماً.

كان قد نسى الموضوع عندما فوجئ خلال إحدى زياراته إلى القرية بعامر اليتيم يأتى مع أول الليل إلى باب بيتهم يسأل عنه، خرج إليه مرحباً وسأله أن يتفضل لتناول العشاء معه، أخبره اليتيم بأنه على عجل وأنه رأى وهو فى طريقه عائداً من المستودع أن يمر به من أجل كلمة صغيرة على انفراد، تمشى معه قليلاً أمام البيت، ظل اليتيم صامتاً والعيد ينظر إليه قلقاً، متسائلاً عن سر هذه الزيارة، محاولاً أن يتكهن بفحوى هذه الكلمة الصغيرة التى يريد أن يقولها له رجل لا تربطه به إلا علاقة المعرفة البعيدة، وجد اليتيم يقف، ويلتفت شمالاً ويميناً ليتأكد من أن أحداً لا يراهما، ثم استمع إليه يقول بلهجة حانقة أنه لم يتوقع من رجل مثل العيد كان دائماً يحترمه ويحترم السمعة الطيبة التى خلفها له المرحوم والده، أن ينشر شائعات كاذبة عن ابنته مدعياً أنه على علاقة بها، ويسأله غاضباً أن يبتعد عن طريقها وأن يمتنع عن رميها بالشائعات التى تضر بسمعتها وسمعة عائلتها.

كان عامر اليتيم قد وصلته أخبار هذه الشائعات التى تربط بين العيد وابنته وأحس بأن فى الأمر مساساً بكرامته

وأراد أن ينتقم أول ما ينتقم من ابنته ولكن أمها منعته عنهـا مقسمة بسيدى أبى قنديل الذى لا تقسم به حانثة أن جميلة لا تعرف العيد ولم تره فى حياتها أبداً وأن الأمر مجرد شـائعة يروجها الحاقدون على ابنتها، وذهب فى ظن اليتيم أن العيـد هو الذى اخترع هذه الحكايات مدعياً لنفسه علاقة بابنته فجاء من بنى على أقواله هذين البيتين من الشعر، وأن أسلم طريقة هى أن يذهب إليه يوقفه عند حده لكى لا تهدد هذه الشائعات مركزه الجديد فى القرية، وتجعل الناس الذين يولونه كل هذا الاحترام يعودون لإهماله والسخرية منه مرة أخرى، وازداد خوفاً من خطر هذه الشائعات عندما رأى بعض المدرسـين يعيدون إليه أطفاله الذين يرسلهم لأخذ الدروس الخصوصـية معتذرين بانشغالهم بعد أن عرفوا أن جهودهم قـد ضـاعت هباءً وأن العيد قد فاز بجميلة دونهم.

ولهذا فقد كان حنقه حقيقياً وهو يسأل العيد أن ينصرف إلى شؤونه ويترك ابنته إلى حالها.

نفى العيد بقوة أن تكون له علاقة بترويج هذا الكـلام الذى فوجئ به كما فوجئ هو، وأنه مشغول بأعمـال أكثـر جدوى من مجرد تلفيق الحكايـات الكاذبـة، وهـو يعتبـر

الموضوع مجرد حديث عابث لا يمنحه الإنسان العاقل شأناً، بدليل أن الإشاعة ماتت وانتهت ولا أحد الآن يذكرها.

ولكن اليتيم أفهمه بأنه لا يقبل مثل هذا العبث بسمعته وأنه على استعداد لأن يصدق كلامه إذا عمل على درء هذه الشبهات بالامتناع عن المجيء إلى القرية لفترة طويلة، يكون الناس خلالها قد أدركوا أن الأمر مجرد كذب وافتراء.

لم يكن العيد غاضباً، حتى إذا كان غاضباً فإن اندهاشه كان أكبر من غضبه، لم يكن قد رأى اليتيم منذ مدة طويلة ولذلك فإنه لأول مرة يرى الرجل ينطق كلاماً غير »لا حول ولا قوة إلا باللّه« قادراً على تكوين جمل وكلمات لها معنى وقادراً على أن يغضب وينفعل ويطلب منه طلباً كهذا، كان يراه فى القرية خلال الأعوام الماضية يجوس عبر دروبها كأنه غصن شجرة ذابل يمشى فى الطريق، فإذا به اليوم يأتى إلى بيته بوجه تبدلت ملامحه ويتحدث بمنطق من عاشر الوجهاء والعلماء طوال عمره، خائفاً على شرفه من همسة يحملها الريح، قال العيد ضاحكاً وهو يرى عامر اليتيم يحكم بنفيه عن القرية بأنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه هذه العقوبة وأنه يشعر بالأسف لأنه لا يستطيع أن يلبى له هذه الرغبة،

وأنه من الخير أن ينسى هذه الشائعة التى ماتت فلا يوقظهـــا مرة أخرى. ثم سأله بإلحاح أن يبقى لتناول العشـــاء، لكـــن الرجل مضى فى طريقه دون كلام وقد بدا واضحاً وبـــرغم رفض العيد لطلبه أنه أقل غضباً وأكثر اقتناعاً بما قاله العيد.
فى اليوم التالى رجع العيد إلى عمله بالمدينة ورغبته لرؤيـــة جميلة صارت هاجساً يملأ عليه عقله وقلبه، مصمماً على أن يتدبر فى المرة القادمة وسيلة يرضى بها فضوله لرؤية هذه المرأة التى يتحدث بجمالها الريح.

(٧)

برغم أن عامر اليتيم وزوجته يدركان أن ما أصابهما من خير لم يأت هكذا دونما سبب، وأن وراءه سببا يعرفانه جيدا إلا أنهما استقبلاه بفرح ورضا دون أن يـــدور بينهمـــا حديث فى يوم من الأيام عن مصدر هذا الخير. التفت إليهـــا وهما فى خلوتهما بعد صلاة العشاء قائلا دون أن يخفى القلق الذى بدا فى لهجته: الناس يتحدثون عنها كثيرا أليس الحديث عن جمالها خيرا من الحديث عن قبحهـــا لا ســـمح الله؟ إذا كبرت البنت وجب حجبها !

هل تأتى لتقول هذا الكلام بعل أن أضحت ابنتك قريبة من نيل الشهادة التى لم تأخذها فتاة فى القرية من قبل؟

لم يقل لها إن ابنته عندما خرجت إلى الشارع منذ أكثر من ثلاث سنوات كان هو ضعيف الإدراك لا يملك رأيا معها، وإنها هى التى سمحت بخروجها مستجيبة لإلحاح الزنجية أمى سعيه التى لا يضيرها أن تمشى جميلة حاسرة الوجه مثلها ومثل غيرها من النساء الزنجيات .

قال : – لا يعجبنى أمر ذهابها فى الطريق وهى حاسرة الوجه

– وهل تريدها الآن وبعد كل هذه السنوات أن تذهب إلى زميلاتها وهى ترتدى لحافا كما تفعل الجاهلات ؟. إنها تقول إن ما ترتديه هو اللباس الإسلامى الصحيح. وتدعو بنات القرية ونساءها إلى ارتدائه.

ها قد أصبحتما متفقهتين فى الدين، يكفى ما تعلمته ولتبق فى البيت تنتظر نصيبها مثل بقية البنات فلا أحد بحاجة إلى شهادتها.

كان واضحا أن عامر اليتيم يحس بخوف غامض مـــن هذه الشهادة ومن كلام الناس ومن المجهول الذى تحمله الأيام القادمة. .

- لابد أن أحد الناس قال كلاما أغضبك.

إن كل ما يقولونه إن هو إلا حسد وغيرة، ولـــن أنـــام هانئة حتى أراها معلمة تحـــرق بعلمهـــا وشـــهادتها قلـــوب الحاقدين والحاقدات. إنها أكثر البنات اجتهادا ونجاحـــا فـــى المدرسة فدع عنك هذه الأفكار وأطفئ النور ودعنا ننام بالله عليك .

ولكن عامر اليتيم لم يواته النـــوم. لقـــد أقلقتـــه هـــذه الشائعات التى يطلقونها حـــول ابنتـــه، وكـــأنهم لا يجـــدون موضوعا غيرها، ارتدى عباءته قائلا لزوجته بأنه ســـيذهب لتفقد حراسة المستودع ممنيا نفسه بكوب من الشاى يتسلى به مع الحارس الليلى وجد وهو فى طريقه إلـــى المســـتودع أن أضواء المسجد لم تطفأ بعد. حاد عن طريقه مستطلعا علـــه يجد الشيخ نصر الدين ليستفسر منه عن أمر هذه الغولة التى يقول الناس بأنها ظهرت له ليلة البارحة. رآه مـــازال قائمـــا على صلاته فانتظره حتى أكمل الصلاة وخرج ليجلس معـــه

على المحراب أمام المسجد، كانت أنسام ليل الربيع تهب ناعمة خفيفة تنعش القلب وتفتح الشهية للحديث والسمر. بادره الشيخ قائلا :

- ما الذى أخرجك فى هذا الليل يا نائب عامر .

العمل يا سيدنا .خرجت لتفقد المستودع، ولكن ما هى أخبار الغولة التى لاقتك ليلة البارحة يا شيخ نصر الدين؟ سمعت الناس يتحدثون بأمرها فلم أعرف إن كان ما يقولونه صدقا أو كذبا .

صار عامر اليتيم يدرك أن ليس كل ما يقوله الناس صحيحا بعد أن رأى نفسه ضحية لأقاويلهم وحكاياتهم. وكان سعيدا بأن يلتقى بالشيخ نصر الدين إمام القرية وعالمها المبجل. سيستأنس برأيه عنده إجابة لهذه الأسئلة التى تشغل باله والتى تخص دراسة ابنته وخروجها حاسرة الوجه ورأى الدين فى اللباس الذى يجب أن ترتديه المرأة. ولكنه رأى أن ينتظر حتى يعرف حقيقة هذه الشائعة حول الشبح الذى رآه الشيخ .

رد الشيخ قائلا :

- لا غولة فى الدنيا إلا الإنسان .

قال فى نفسه هذا حديث رجل اختبر النـــاس وعــرف جوهرهم .وعليه أن ينصت جيدا إلى كلماته. ظنه قد اكتفــى بهذا الشرح الموجز القصير الذى لا يرضى فضــوله فقــال يدفعه لمواصلة الحديث :

– إذن فالأمر مجرد إشاعات .

استجاب الشيخ لإلحاحه وانطلق يسرد القصة بكاملها: إنها ليست إشاعات، كنت فى طريقى لأداء صـــلاة الفجــر عندما رأيت ماردا أسود طوله بطول أحد الأبراج يخرج من بين الخرائب قريبا من برج النعام يعترض طريقى. أمعنــت فيه النظر فإذا به شيء لا شكل له ولا وجه ولا ملامح، ليس بإنسان ولا حيوان. ويخرج أصواتا كأنها طنين مدينـــة مــن النحل. استعذت بالله من الشيطان الرجيم. وقرأت آية الكرسى مرات ثلاث عله يختفى أو يتبخر فى الهواء، ولكن العمـــلاق الأسود ظل منتصبا فى طريقى يصدر أصواته المنكرة ويتقدم ببط ء نحوى. لا أخفيك الحقيقة بأننى أحسست برعدة تسرى فى جسمى. كنت أعرف أنه لن يؤذينى بعد أن تلــوت آيـــة الكرسى. ولكننى طلبا للسلامة أقفلت عائدا إلى بيتـــى غيــر قادر على تفسير شيء من أمر هذا الشبح العجيب .

لا حول ولا قوة إلا بالله . لو كنت مكانك لسقطت ميتا في مكاني. عليك أن تحمد الله أنك لم تكن في مكـــاني فهـــي لحظات تسلب الإنسان عقله. كنت أنكر على الناس خـــوفهم من الظلام. وأنكر على الرجل المؤمن خوفه من الأشـــباح. فمن عمر قلبه كتاب الله لا تعترض الأشباح طريقه. ولكـــن جمعا من أهل القرية ومن بيـــنهم الشـــيخ مســـعود كـــانوا يعارضونني في ذلك ويقولون إن هناك أرواحا شريرة تجـــد متعة في التنكيل بالمؤمنين ومضايقتهم. ولقـــد عـــادني هـــذا الصباح الشيخ مسعود وبعض رفاقه يحملون الذبائح والمؤن يعتذرون بها عن فعلتهم لأن الأمر كله لم يكـــن إلا مزاحـــا منهم. أرادوا اختبار شجاعتي وإبطال رأيي فأرسلوا اثنين من رجال القرية الأقوياء يحملان فوق أكتـــافهم ســـلما طـــويلا يغطيانه بالأردية السوداء ويعترضانني عد ذهابي لأداء صلاة الفجر بالمسجد .

قال عامر اليتيم وهو يحاول أن يتمالـــك نفســـه مـــن الضحك: إذن فإن تلك الغولة لم تكن إلا هزارا .

ألم أقل لك إنه لا غولة إلا الإنسان. لقد قررت مقاطعة الشيخ مسعود ومن كان معه. رددت عليهم هداياهم وسألتهم عدم المجيء إلى بيتى مرة أخرى .

رأى عامر اليتيم أن الشيخ لم يتحرر تماما من حالة الذعر التى أصابته ليلة البارحة فعدل عن إشراكه فى همومه وأرجأ الاستنارة برأيه ورأى الدين فى لباس ابنته إلى مناسبة أخرى .أراد أن يستأذن ويقوم ولكن الشيخ بادره قائلا: وكيف حال ابنتك جميلة ؟

استغرب عامر اليتيم أذ سأله الشيخ هذا السؤال كأنه يقرأ ما فى صدره، بل هو يقرأ ما فى صدره فالشيخ نصر الدين رجل مشهود له بالكرامات .

إنها تقبل يديك يا سيدنا .

إن لها جمالا يجعلها تنتمى إلى الملائكة .

صمت الشيخ قليلا ثم قال بلهجة منذرة :

– ملاك فى عالم مليء بالشياطين من بنى الإنسان. إنها أمانة فى عنقك يا عامر اليتيم. فحافظ على هذه الأمانة ما وسعك ذلك .

ألقت كلمات الشيخ شيئا من الفزع فى قلب اليتـــيم. إن هذا الرجل الصالح يحذره من وقوع شيء ويريده أن يحترس منه منذ الآن . ولكن من أين لى أيها الشيخ ببصيرة كبصيرة الأولياء والصالحين من أمثالك أدرأ بها الخطر قبل وقوعه .

رأى الشيخ يذهب فيطفئ أنوار المسجد ثم يعود وقـــد عم الظلام الدنيا. خاطبه من خلال الظلام قائلا :

– لتدع لها فى صلاتك بالفوز والنجاة .

(٨)

يكتسب المقهى الوحيد فى القرية قيمة أثرية لما يحتويه من لوحات مرسومة على الجدران لفرسان يركبـــون الخيـــل ويمتشقون السيوف ونساء يحمل بعضهن أصـــص الزهـــور وعناقيد العنب وبعضهن الآخر العقارب والأفاعى والجعارين الذهبية ورجال لهم أجنحة يقفون فوق جبال يغطيهـــا الـــثلج ويتحاربون بالنيازك والشهب وطفل مجنح يضع فى جعبتـــه سهاماً ويستعد لإطلاق إحداها من القوس والوتر، رســـومات كبيرة تغطى الجدران الأربعة، بهتت ألوانها وأصاب التشقق بعض أجزائها ولكنها ظلت تمنح المقهـــى جـــواً أســـطورياً وتحتفظ بشخصيته المتميزة التى تعبق بعبير الذكريات القديمة

عندما كان المكان نادياً يؤمـــه ضـــباط الحاميـــة الإيطاليـــة ونساؤهم، تقام فيه حفلات الرقص وتصدح فيه الموســـيقى، واستمر حانة يملكها أحد الإيطاليين حتى انتهاء عهـــد الإدارة البريطانية وخروج الإنجليز وعساكرهم من القرية، وبـــرغم أن الحانة القديمة أصبحت الآن مقهى لا يبيـــع المشـــروبات الكحولية علناً إلا أن ما يصنعه بعض أهل القرية من خمور النخيل ظلت تجد طريقاً لتصريفها عن طريق المقهى، وبرغم أن ملكيته قد آلت إلى سلطان الذى كان يعمـــل نـــادلاً مـــع صاحبه الإيطالى فإنه استمر يحمل شيئاً من سمعته القديمـــة كما استمرت صورة الفتاة ذات الشعر الذهبى التى تعلن عن وجود النبيذ الإيطالى معلقة بمدخل المقهى تقدم صحبة نسائية لرواده، وظل الكبار فى السن من أهل القرية يتجنبون الذهاب إليه ويلومون أبناءهم الشباب إذا قضوا أمسياتهم به وينعتونه دائماً بأنه »وكر الأشرار«، إلا أن هذا الاتهام لم يمنع الشباب من الذهاب إليه وإن ظل أغلب أهل القرية يفضـــلون عقـــد جلساتهم فى ساحة السوق وأمام الـــدكاكين والـــذهاب فـــى أمسيات الصيف إلى غابة النخيل بأطراف القرية، وكان يؤمه مع بعض شباب القرية العمال الغرباء الـــذين يـــأتون مـــع

شركات البناء أو مـــع الشـــركات الأخـــرى التـــى تجـــوب الصحراء، يلعبون الورق ويسهرون به إلى ساعة متأخرة من الليل.

كان مطرب المذياع يترنم بأغنية خفيفة مرحـــة ومـــن خلفه جوقة النساء تردد مقاطع الغناء، قال شعبان وهو يتمايل مع الأغنية ويتخيل عالماً بهيجـــاً يمتلـــئ بنســـاءٍ حاســـرات الصدور:

– يا ليتنى كنت معكن!

واغمض عينيه متنهداً كأنه يستدعى قوة خرافية كـــى تنقله الآن فوراً من عالم خلا من البهجة والنساء، إلى عـــالم الأغنية الملىء بالنهود والسيقان والرقص والموسيقى والغناء، ضحك عاشور، زميله فى لعب الورق وزميله أيضـــاً فـــى التسكع بلا عمل بعد أن كسدت مهنة العتالين ووجدا نفسيهما لا يعملان لأكثر من ساعات قليلة كل أسبوع وقال لصاحبه:

– ولكن لعنة الشيخ نصر الدين ستظل تطاردك حتـــى لو خبأت نفسك تحت فساتين المغنيات.

كان شعبان نادما لأنه شارك عاشور فى تمثيـــل دور الغولة التى ارعبت شيخاً صالحاً مباركاً يحمل لـــه التبجيـــل

والتقدير، ولكن زميله كان يرى فى الأمر مــدعاة للضــحك والتسلية فمضى متباهياً يكشف لرواد المقهى أســرار تلــك اللحظات العصيبة.

– لقد كاد ذراعي ينفصل عن كتفي. . أوجاعه لا تزال تؤلمنى حتى الآن، لقد مال هذا الخنزير بالحمل كله نحــوى، كان سكراناً يكاد يسقط فوق الأرض لا يفعل شــيئاً ســوى معاونتى فى إصدار ذلك الطنين الذى أرعب الشيخ.

بدأ عاشور يحكى القصة، سعيداً بما يثيره حوله مــن اهتمام، فى حين ظل زميله يسأله أن يبحث عــن موضــوع آخر لأنه لا يرى مفخرة فى أن يعتــرض الإنســان شــيخاً صالحاً ذاهباً لأداء صلاة الفجــر، كــان يؤلمــه أن الشــيخ سيعرف بالموضوع بعد أن كشف زميلــه الســر، وســوف يغضب منهما غضباً شديداً، فبأى وجه سيلاقيه بعد اليوم وهو الرجل الذى كان دائماً يشمله بعطفه ويلــح عليــه بــالعودة للصلاة التى هجرها، يريد له الخير والرحمة، لم يكن ليفعــل ما فعله لو لم يسكره عاشور من خمر النخيل حتــى مطلــع الفجر، ثم سحبه من يده دون أن يمنحه فرصة ليتدبر الأمر.

- برغم الظلام وبرغم الستارة السوداء التى التحفنا بها فقد كنت أستطيع أن أتبين من خلال الشقوق رعب الشيخ وهو يقف مرتعشاً كعرف شجرة تعصف به الرياح، كانت أسنانه تصطك خوفاً وذعراً وهو يحاول تلاوة بعض الأدعية الى لا يطاوعه الارتعاش على قولها، كنت أريده أن يختفى سريعاً فقد أعيانى ذلك السلم اللعين.

جاء رواد المقهى يسحبون كراسيهم ويتحلقون حوله ينصتون بانبهار إلى حكايته، إلا أن شعبان سرعان ما وجد حيلة يصرف بها الأنظار عن رفيقه الأرعن.

- لقد رأيت اليوم جميلة.

صار الناس لا يتحرجون من ذكر اسمها مجرداً بدل الإشارة إليها بابنة اليتيم كما كانوا يفعلون سابقاً، لقد دخلت حياتهم وصارت معلماً من معالم قريتهم ولم تعد هناك حاجة لنسبتها إلى أب أو عائلة، لم يكن شعبان قد رأى جميلة هذا اليوم، ولكنه يدرك ما للحديث عنها من سحر وسلطان على قلوب الناس، وجد أن الطريقة الوحيدة لإسكات غريمه هى أن يلقى باسم جميلة فى هذا الجمع وينتظر ما يحدثه من أثر،

أداروا رؤوسهم إليه ينتظرون شرحاً، لم يكن قد أعد شيئاً يقوله، فظل صامتاً يبحث عن تكملة للقصة، استعجلوه قائلين:

- أين رأيتها؟

- رأيتها عند زيارتها لأمى سعيدة.

لم يكن غريباً أن تذهب جميلة إلى زيارة جارتهم القديمة فهم يعلمون أن الزنجية العجوز تعاملها مثل ابنتها ويعلمون أن جميلة لا تعرف بيتاً آخر تذهب إليه عندما تخرج من بيتها غير بيت أمى سعيدة، فما غرابة أن يراها شعبان تذهب إليها، بدا الفتور واضحاً فى وجوههم، رآهم يلتفتون عنه ويعودون مرةً أخرى يعلقون أبصارهم بعاشور، فتش عن شيء سريع ينقذ به الموقف:

- كانت أمى سعيدة تعلمها السحر.

أحس بالسعادة لهذه القصة المثيرة التى اهتدى إليها، أدرك أنها فعلت فعلها عندما رأى العيون والأفواه تتحول إلى دوائر باتساع فناجين القهوة اندهاشاً واستحساناً، لم تكن أمى سعيدة تتعامل بالسحر ولكن أهل القرية عندما رأوا امرأة عجوزاً تعيش بمفردها صحبة كلبها ودجاجها وتملأ خرابتها بالأحواض التى تزرع بها زهوراً وأعشاباً تستعملها فى

صناعة الشاى والعطور والأبخرة أو تعصر منها شراباً أو دواءً، وتعرف كغيرها من عجائز القرية فرش المنديل وخط الرمل على سبيل التسلية ومحاولة التكهن بالمستقبل، ذهب فى ظنهم أنها منذ أن هجرت الغناء فى الأعراس صارت تعيش على السحر، وتستعمل هذه الأعشاب الغريبة فى أغراض الشعوذة، وبرغم أنها كانت تنفى عن نفسها هذه التهمة وتطرد غاضبة كل من يأتى راغباً فى أن يستعين بسحرها على قضاء أمر من الأمور، وهجرت بسبب ذلك فرش المنديل وخط الرمل، إلا أن الشائعة ظلت لاصقة بها لفترة طويلة، ثم فقد الناس مع الزمن اهتمامهم بها فجاء شعبان هذه الليلة يوقظ الشائعة القديمة ويمنح القرية ساحرة جديدة هى جميلة.

قال أحد الجالسين وكأنه قد وجد تفسيراً لمعضلة عظيمة حيرته طوال عمره:

- كنت دائماً أستغرب لهذه العلاقة الغريبة التى تربط الفتاة بالزنجية العجوز.

واصل شعبان سرد حكايته:

- كنت قد ذهبت إلى بيت أمى سعيدة لآخذ منها البيض كما أفعل بين الحين والآخر إلى الدكان الذى يبيعه لها، وما أن وصلت إلى الباب حتى سمعت حديثاً يدور بينها وبين امرأة أخرى عن شرتوخ وشمبروخ وشمهروش وغيرهم من ملوك الجان، فعدلت عن الدخول ونظرت من شقوق الباب فرأيت معها جميلة وبين أيديهما ديك أسود مذبوح يقرآن عليه الأوراد، رجعت دون أن أفصح عن نفسى لكيلا يكتشفا أمرى ويحيلانى بقوة السحر إلى كلب مثل عاشور.

قال عاشور وقد أغضبه أن يرى زميله يسرق منه اهتمام الناس:

- ولماذا يحيلانك إلى أى شىء آخر وقد سخطك اللّه منذ البداية قرداً.

(٩)

أخذ العيد سلة مليئـــة بالفاكهـــة وأكيـــاس الحلـــوى والمشروبات المعلبة ولعب الأطفال وذهب مع بداية المســـاء يحمل الهدية إلى بيت اليتيم، كان قد أرسل صبياً يراقبه لـــه وعرف أن اليتيم لم يعد إلى بيته وأن زوجته خرجت لتشرب الشاى مع جارة لهم، وقف لحظة يستلقط أنفاسه قبل أن يـــدق الباب ويرى جميلة تخرج بنفسها لتفتح له، أحس بالارتبـــاك والحرج وفكر أول ما فكر فى الهروب كأن جمالها أوقع فى قلبه الرعب،سأل بسرعة عن والديها دون أن ينتظر إجابتهـــا قال أنة جاء يبارك لهما الانتقال إلى البيـــت الجديـــد،تهنئـــة متأخر ولكن عذره أنة مقيم بالمدينة،انطلق مســـرع الخطـــى عائداً إلى بيته ، اكتشف وهو يبتعد عن بيت اليتيم بان ســـلة الهدايا لا تزال فى يده ،سأل أحد الأطفـــال أن يعـــود بهـــا إليها،ولم يجد رغبة فى العودة إلى البيـــت فـــذهب مملـــوءا بالانبهار إلى غابة النخيل التى تعود كلما جاء إلى القرية أن يأخذ كتاباً ويذهب إليها.

ركضت إلية أنسام الربيع المحملة بعبيــر أعشـــاب الصحراء تحرك فى قلبه الحنين لمعانقة المرأة الحلم،أرادهــا أن تأتى الان فتجلس بجواره وتتأمل النخيل وتراقب غــروب الشمس وتمنح الأشياء التى حوله دلالة ومعنى، أرسل فكــرة يبحث عن امرأة بين نساء المدينة ممن يعرفهن ويلتقى أحياناً بهن فى دارة على البحر يسميها رفاقه ((مغارة الحلم)) لكـــى تأتى وتقاسمه ألان وحدته، ولكن انبهاره بالفتاة التى رآها منذ لحظات مسح من ذهنه صـــورة النســـاء الأخريـــات، رأى صورتها تغطيها أبخرة الحلم فيعجز عن تبين ملامحها، قـــال يسألها:

-لماذا تسرقين أمواج البحر وتخبئينها فى شعرك؟

-لم أر بحراً فى حياتى

-لا تنكرى، لقد بنيت هذه القرية على البحر،لتكون بناء لسفن تأتى من بلاد الاساطير،لكنك أنت مـــن جـــاء وســـرق أمواجه فتحول البحر إلى رمال.

تذكر ضاحكاً أنة لم ير شعرها، كنت تغطية بمنـــديل أزرق، لعل المنديل هو الذى جاء بصورة البحر إلى ذهنـــه، إن مثله ترتديه كثير من النساء فلماذا يتحول عندما ترتديـــه

خميلة إلى شئ يرسخ فى الذهن ويوحى بالسفن وموج البحر والمدن الأسطورية.ولماذا تغيب ملامحها وتغطية أبخرة الحلم فلا يبقى غيـــر هــذا المنـــديل الأزرق الـــذى غطـــت بـــه شعرها،كيف إذا أحس وهو يراها بإنه فـــى تجربـــة جمـــال جديدة،مبهرة،تمسح صور كل النساء مـــن ذاكرتـــه، رأى أن أفضل سبيل هو استرجاع تلك اللحظات القصيرة عندما قابلها ويديرها ببطء فى عقلة كمن يدير شريطاً سينمائياً بالحركـــة البطيئة،لعلة يهتدى لهذا الجديد المبهر فى جمالها، كـــان أول من أسترعى انتباهه عندما وصل إلـــى بـــاب بيتهـــا حـــدوة الحصان المعلقة فوقه، أنة يذكر الآن أن هذا الشيء الضـــئيل الذى لا قيمة له إلا عندما يكون مضروباً فى حافر الحصان، والذى يعتقد البسطاء والسذج فى قدرته على جلـــب الحـــظ ودفع الشر، كان له دور مهم فيما حدث، فقد بقى للحظـــات يتأمل هذه الحذوة أو لعلة لا يتأملها وإنما يفكر وهـــو ينظـــر إليها قبل أن يطرق الباب إذا كان حقاً يريد أن يـــرى أبنـــه اليتيم، لقد جاء مدفوعاً برغبة أكيدة لرؤيتها ولكنـــة مـــا أن وصل إلى باب بيتها حتى تلاشت تلك الرغبة وحل مكانهـــا خجل ساحق من نفسه ومن تطفله على حرمات البيوت بهـــذا

الشكل، ماذا لو كان والدها قد عاد من عملـــة وجـــاء يفـــتح الباب،لعلة سيحمل هذه المرة خنجراً يطارده به، ثـــم مـــا أن يراها أو لا يراها بحيث يتحمل فى سبيل ذلك عداوة والدها، ثم حتى لو كان حقاً يريد أن يراها،ألم يكـــن أيســـر لـــه أن ينتظرها عند ذهابها إلى المدرسة ويعبر الطريـــق بجوارهـــا فيرضى فضوله لرؤيتها ثم يعود بدلاً من اختلاق هذا العـــذر المضحك وإرسال العسعس لمراقبة بيتها والتخطـــيط للأمـــر كأنة سارق يريد القيام بعملة سطو، كانت هذه الأفكار تمـــلا ذهنه وكان قد قرر أن يعود من فوره، ولكن حذوة الحصـــان المعلقة بحائط الباب هى التى أبقته، أشاعت فى نفسه التفاؤل وأيقظت فى نفسه الرغبة فى اللعب أو العبث، ها هم النـــاس يتقون أهوال الدهر ومصائبه بحـــذوة الحصـــان، فلمـــاذا لا يستخير بها فى قضاء مهمة صغيرة كهذه،وعابثاً دق البـــاب وهو ينظر إلى حذوة الحصان يسألها ألا تتخلى عنـــة، ورأى أول ما رأى زرفه البحر وأحس أول ما أحس بـــأن رؤيتهـــا ليست أو لعباً إنما شئ يحدثه ظهورها فى نفسه كتلك النـــار التى يشعلها الفجر فى الأفق، لم يكن قد هيأ نفســـه لمعيشـــة تجربة جمال كهذا الجمال، فدس رآسة فى صدره غير قـــادر

للوهلة الأولى أن ينظر إلى وجهها،لاشك أنة كــان سيضــع عينية فى عينها ويملا بصرة من ملامحها وقــد يغازلهــا أو يسألها موعداً لو أنة قابلها فى ظروف غير هــذه الظــروف وفى مكان غير هذا المكان، ولكنة جاء مهيأ لأن يرى فتــاة من فتيات

هذه القرية، وجمالاً ينبت فى تربتها وينتســب إليهــا وتحكمه شروط الجمال فى بيئة فقيرة جفت مياهها وزحفــت الرمال على حقولها، تمتلــئ بالغبــار والــذباب وأمــراض التراخوما وفقر الدم،ولكنة رأى جمال مقطوع الصــلة بمــا حوله ،كأن سحابة جاءت وهبطت بها مــن مكــان وزمــان أسطوريين، أدهشه ما رآه وقال بسرعة وارتبــاك الكلمــات التى وجب قولها وأقفل مسرع الخطى عائداً وقد ســها عــن تقديم سلة الهدايا إليها ونسى أن ينظر إلى حــذوة الحصــان شاكراً عونها ومساعداتها.

قرر وهو يرى نفسه يطوف بــين أشــجار النخيــل وحيداً، أن يضم طيفها بين ذراعية وأن يعتذر لها عن هروبه المخجل من جمالها وعجزة عن النظر فى عينيها مؤكداً لهــا

بأنة سيعوض هذا التقصير فى مناسبة أخرى، سـرت فـى جسمه نشوة الالتصاق بها وارتفع خلفة صوت رجل يقول:

-أبقى الله علينا عقولنا.

كان عمران عامل المخبز يحمل فأساً فـى طريقـة للبحث مع غروب الشمس عن الكنز المخبأ فى مكان قريـب من أطلال القصر الروماني، اختفت خميلة، وحـل مكانهـا إحساس بالخجل عندما أدرك أن الرجل قد رآة يكلـم نفسـه ويضم إلى صدره امرأة مصنوعة من الهواء،

-لقد أصابتك النخلة المجنونة بالعدوى.

كان يقف بجوار أطول نخلة فى الغابة،سُميت المجنونة لأنها أول شجرة نخل تطر ح ثمارها عندما يحـين موسـم البلح،وتبقى عراجين أخرى لا تنضج إلا بعد أن ينتهى البلح من أشجار النخيل الأخرى، بها يبدأ الموسم وبها ينتهي.

رأى العيد فى التسمية التى أطلقوها عليها إجحافاً فى حق هذه النخلة المباركة ورأى أن منطق القرية يحكمه مزاج غريب يعتبر هذا العطاء السمح الكريم الـذى تقدمـه نخلـة تفوقت بخيرها على بقية أشجار النخيل، جنوناً.

تذكر جميلة وما يقولونه عنها،أحس بـــالحنين إليهـــا وصمم على أن يتدبر لقاء معها مرة أخرى وأن يملا بصرة من عينيها اللتين لم يقو على النظر إليهما فى المرة الأولى.

ها هو عمران يسميه مجنونا ولكن ماذا يقول لرجـــل أفنى شبابه فى حفر الأرض الخلاء بحثاً عن كنز لا وجـــود له،قال لكى يغيظه:

-ما جئت إلى هنا إلا بحثاً عن الكنز، لقد اهتديت إلى مكانه ، وسأنتظر مجيء الليل لأذهب وأعود به إلى بيتي.

ضحك عمران ساخراً، لأنة يعرف أن لا أحـــد فـــى الدنيا بإمكانه أن يعثر على الكنز،فهو موعود به منذ أن دفنوا هذا الكنز تحت التراب،تركة ومضى غير عابئ بكلامه، فى حين ظل العيد واقفاً يفكر فيما إذا كان حقاً قد أهتدى إلى كنز هذا المساء.

(١٠)

السحر إذن. . وهل هناك تفسير آخر للظواهر العجيبة التى تحدث فى الكون غير قوة السحر وقدرته الخارقة علـــى تحويل التراب إلى ذهب، والفقر !لى غنى، والقبح إلى جمال

ووسامة، ليس غريبا أن تكون هذه الفتاة المجبولة من طـــين البشر وجمر الشياطين، ساحرة تسخر القوى الخفية المجهولة لخدمتها، وإلا كيف يمكن لعائلة منسية تسكن الخرائب وتعيش على الصدقات أن تصبح بين يوم وليلة إحدى أكثر العائلات وجاهة وغنى، وكيف لرجل أبكم درويش لا يعـــرف كيـــف ينطق اسمه مثل عامر اليتيم، أن يتحول من البكم والبلاهـــة، إلى الفصاحة والذكاء، ويلحق التغيير وجهه الذى عششت فيه الكآبة فيتحول من شيء يشبه كرناف النخيل إلى وجه رجـــل تربى على موائد الملوك، وجد الناس فى الشائعة الجديدة التى صنعت من جميلة ساحرة تتحكم فى ملوك الجن، تفسيرا لكل هذه التحولات التى طرأت على عائلة اليتيم وسببت لهم الكدر والحيرة، تلقفتها النساء بحماس عظيم وصرن يذهبن من بيت إلى بيت ويجعلنها موضوع أحاديثهن حول مواقد النار عندما يعقدن جلسات الشاى، ويجدن تسلية فى ترويجها والإضـــافة إليها، وتختلق الواحدة منهن عذرا وتذهب إلى بيـــت اليتـــيم لتتأكد بنفسها من تعامل جميلة بالسحر، وما أن تراها تداعب قطة أو تطعم دجاجة حتى تأتى إلى جاراتها قائلـــة. – لقـــد رأيتها اليوم تتحدث إلى القطة، إنها تعرف لغة الدجاج أيضا.

وتدعى إحدى النساء الجالسات عدم التصديق، فتؤكد المـــرأة قائلة: - أى والله، لقد رأيتها بنفسى تأمر الدجاج فيطيعهـــا. وزاد الأمر فى أذهانهن تأكيدا أن جمعة الـــدرويش أصـــابته نوبة من الهستيريا والجنون فصار يلهج باسم جميلـــة أينمـــا ذهب ويتجول فى شوارع القرية صائحا: - جميلة، يا ويلـــى من جميلة. ويأتى إلى المسجد ويقف مع المصلين خلف الإمام لأداء الصلاة، وما أن يهم الإمام بالركوع قـــائلا "الله أكبـــر" حتى يرتفع صياح الدرويش فى وسط الصلاة: - جميلة، يـــا ويلنا من جميلة. ويضحك من يضـــحك، وتبطـــل الصـــلاة، فيطردونه من المسجد، ويجدونه جالسا أمام ضريح سيدى أبو قنديل يناجى جميلة ويتحدث إليها حديثا يمتد إلى اخر الليـــل، فيسألونه فى اليوم التالى عن سبب حديثه مع نفسه، فيقول إن جميلة كانت معه، وإنها تأتى متخفية لزيارتـــه كـــل يـــوم، وبالرغم من أن الرجال يأخذون كلامه مأخذا هازلا فهو ليس إلا دليل عته وجنون، إلا أن بعض نساء القرية وجدن فيـــه تأكيدا على أن جميلة تملك من قوة السحر ما يجعلها قـــادرة على أن تتخفى وأن تطوف القرية دون أن يراها أحد، وأنها بلا شك قد ٢ حضرت بعض مجالسهن واستمعت إلـــى مـــا

يقلنه عنها، وأنها بعد أن سلبت من الرجال عقولهم ' ستأتى وتنزل عقابها بالنساء، وترفع الواحدة منهن يديها إلى أعلى قائلة فى خوف ورهبة: – يا خفى الألطاف، نجنا مما نخاف .

(١١)

فى اليوم التالى لزيارته الأولى إلى بيت اليتيم، وفى وقت يماثل ذلك الوقت، سار العيد فى طريقه إلى بيت اليتيم مرة أخرى، لقد تعمد أن يهرب هذا الصباح من والدها الذى عرف أنه يبحث عنه، وعندما جاء المساء وأحس بالحنين إلى رؤيتها، وجد أن اليتيم قد أعطاه مبررا مناسبا للذهاب إلى بيته بحجة أنه ما إن علم بأنه يبحث عنه حتى جاء بنفسه لمعرفة السبب. رأى جميلة يغمر وجهها الاندهاش وهى تفتح الباب، سمع صوتا مفعما بالعذوبة يقول أهلا، سرت فى دمه نشوة الارتحال إلى مدينة الحلم، وقال وهو يتأمل أهدابها الطويلة: – علمت أن والدك يريدنى فجئت أبحث عنه. – لقد خرج إلى صلاة العصر. كان العيد قد تأكد قبل مجيئه أن والدها غادر البيت فقال كاذبا: – سأذهب إذن إلى المسجد للبحث عنه. وجدها لا تزال واقفة لم تقفل الباب، بحث عن

موضوع لحديث يطيل عمر هذه اللحظة التى سـيجعلها زادا يعيش عليه لأيام أخر. وجد نفسه يقول: ، – وكيـف حـال الدراسة؟ فى أحس بثقل السؤال وسخافته، ليكن حديثه معهـا عن " قطعان السحب التى ترعى فى حقول السماء، أو عـن الغزلان التى تركض الصحراء تبحث عن منبع الشـمس، أو عن نضارة العشب أو نعو أوراق الورد أو كبرياء الأشجار، أو عن أى شيء آخر فى الكون له بهجة هذا البهاء وروعـة هاتين العينين، وجدها تهتم بسؤاله و تبتسم قائلة:

– سالما الواجبات المنزلية التى لا تنتهى.

ولكن لمشهد الغروب بين أشجار النخيـل سـحرأ لا يقاوم، فما حاجة امرأة مثلك للاعتناء بأشياء كهـذه، دعـى الواجبات المنزلية وحوائج البيت والمطبخ، وتعـالى نعـانق المدى ونراقب الشمس التى أعياها الرحيل وهى تشد عرباتها فوق الجبال البعيدة وتمد يد" – واهنتين تنشر بهمـا غلالـة الأسى الجميل وتبارك بهما الأشجار والبشر، قال مجاملا: – سنراك قريبا أستاذة بإذن الله. قالت ضاحكة: – كان الله فـى عون الأطفال الذين سأعلمهم. ، ظهر على البعد شبح رجـل

يعبر الطريق، مدت إليه يدها على عجل، حاول أن يبقى يدها في يده ولكنها استلت يدها ضاحكة وأقفلت الباب .

جلس فوق مرتفع يطل علـــى الفضـــاء وأشـــجار النخيل، أقلت صوته بأغنية تتحدث عن ابنة الشمس التى تمد ضفائرها الذهبيتين كل مساء إلى عشيقها لكى يتسلق صاعداً إلى السماء، جاءت جميلة وجلست بجواره، بـــدا الكون جميلاً والحياة أنشودة عذبة لا يعكر صفوها حتمية أن يموت الإنسان، قال يسألها:

ــ لماذا لا يعيش الإنسان ألف عام؟

ــ لا تكن نهماً، يجب أن ترضى بمائة عام .

ــ إن مائة عام لا تكفى لآن أخبرك بكل الأشياء التى أريد أن أقولها لك.

ــ لقد أضعت وقتا كثيرا، فلماذا لا تبدأ الآن؟

تذكر أن والدها يبحث عنه لينشب معركة معـــه ويمنعه من رأيتها فجاء يسألها عن وسيلة يكسب بها رضاه، لم يسمع منها رداً، ونظر فلم يجـــد بجـــواره أحداً، ضاع الوهم وجاء الواقع، رأى على البعد بدويا ينزل الأمتعة عن ظهر جمله ليقيم الليلة بين أشـــجار

النخيل ن تذكر أن حياة البادية أقل تعقيدا من مجتمع القرية، وسبل الاختلاط أكثر يسرا بين رجال ونساء النجوع، أدهشه أن الحياة فى تدرجها مـن مجتمـع البداوة إلى مجتمع المدينة تأخذ عبر مرورها بمجتمع القرية شكلا ممسوخا، خسر تسامح البادية ولم يصل بعد إلى تحرر العلاقات فـى المدينـة، رأى قبالتـه النخلة المجنونة ترفع رأسها فوق بقيـة الأشـجار، فأيقن أن الكون ملئ بالأسرار التـى تمتنـع عـن التفسير، ذهب إلى البدوى وقد أحس بحاجته إلى أن يتحدث إلى هذا الرجل الذى عاش فى بيئة أكثر نقاء من بيئته، جاء البدوى بوعاء اللبن وحبـات التمـر وسأله أن يشاركه الطعام، راوده شعور بلهـو فقـال للبدوىً :

ـ هل تعرف عامر اليتيم ؟

ـ من أى قبيلة هو؟

ـ لا قبيلة له، رجل مقطوع عن أهله.

عبر البدوى عن نفوره من رجل لا أصل لـه ولا قبيلة :

ـــ لا أعرف رجلا بهذا الاسم ولا أريد أن أعرفه.

ـــ كنت أريدك أن تصالح بينى وبينه .

ـــ كيف أصالح بينكما وأنا لا أعرفه ؟

ـــ لا يهم، يكفى أن تذهب إليه وتقول له أنك شيخ قبائل البدو، فهو رجل لايحب معاشرة الشيوخ ولا يرد لهم طلباً .

ـــ ولكننى لست شيخاً.

ـــ كن شيخاً مرة واحدة فى حياتك.

ضحك البدوى عندما أدرك أن ارجل يتحدث هازلا .

ـــ لماذا يخاصمك؟

ـــ ظننا منه أننى أرى علاقة بابنته.

ـــ لا تلعب ببنات الناس.

ـــ إننى لا ألعب .

ـــ هل تقدمت لخطبتها؟

ـــ لم أتقدم.

ـــ إذا كنت لا تلعب فيجب أن تتقدم للزواج منها.

الأمور محددة ومحسومة فى عقل هذا البدوى، نعم، لماذا لم تخطر هذه الفكرة على باله من قبل، لماذا لا يطـــرق

البيوت من أبوابها ويتقدم فى وضح النهار إلى والدها طالبا يدها، ليمتنع إذا شاء عن قبوله، فسوف يسوق عليه الوساطات حتى يلين ويرضى، إنه يدرك الآن أن جميلة أيضا تريده، وسيكون اتصاله بها، وذهابه إلى بيتها، أمرا مشروعا لا يثير حفيظة أحد، ترك البدوى يطعم جمله، وعاد مسرعا إلى القرية وقد اهتدى إلى ما يجب أن يقوله لعامر اليتيم.

(١٢)

تميز المتصرف بزيِّه الجديد على بيئة القرية، جاء يرتدى البذلة الإفرنجية وربطة العنق ويضع فوق رأسه طربوشاً، ولا يتخلى عن هذا المظهر صيفاً وشتاءً، كانت القرية لا ترى الطرابيش إلا فى المناسبات الوطنية التى يزورهم فيها وفد حكومى كبير مثل المرة التى زارهم فيها الوالى منذ سنوات كثيرة مضت لحضور إحدى المهرجانات الانتخابية أو المرات الأخرى التى جاء فيها وزراء لافتتاح بناءٍ جديد مثل المدرسة أو المستوصف، وبخلاف غيره من المتصرفين السابقين الذين كانوا كباراً فى السن لا يعرفون البذلة الإفرنجية ولا يحتملون الإقامة فى القرية لأكثر من عام أو عامين ثم يطلبون الانتقال هرباً من حرها ورياحها

ومياهها الجيرية التى تصيبهم بداء الكلى، فقد كان هـو فـى الأربعينات من عمره، أمضى معهم أكثر من ثلاث سنوات لا يبدى تذمراً ولا شكوى ولا تصيبه مياههم بداءٍ أو علة، ومـا أن رأى أهل القرية طربوشاً يقيم بينهم ويطـوف الشـوارع مثلهم حتى استبشروا خيراً، فها هى الحكومة أخيراً ترسـل لهم واحداً من رجالها، يعتمر هذا الشيء الذى لم يـره أحـد منهم إلا فوق رؤوس الولاة والوزراء، واعتبروه فألاً طيبـاً على القرية خاصةً وأن السيد المتصرف جاءت تسبقه سمعة كبيرة فى الحنكة والدهاء، اكتسبها منذ أن عمل رئيساً للجان الانتخابية التى أثبت فيها ولاءه القوى للحكومة وقدرته علـى تنفيذ أوامرها وبسط هيبتها فى أحلك الأيام وأكثرهـا تـوتراً وعصبية، فحاز بذلك ثقة المسؤولين الكبار وصار نافذ الكلمة فى الدوائر العليا.

ودخل الطربوش قاموس القرية دخولاً مشرفاً كريمـاً، فهو لا يذكر إلا مقروناً بالهيبة والإكبار التى لا ينال منها إلا تزيد بعض الساخرين والماكرين الذين يبالغون فى الاحتفـاء بالطربوش ويقدمونه على المتصرف نفسه كأن يقول الواحـد منهم:

- لقد رأيت اليوم الطربوش ومن تحته السيد المتصرف.

ولقد رأى الناس الطربوش ومن تحته السيد المتصرف يكثران من زيارتهما إلى بيت عامر اليتيم فى الأيام الأخيرة، بدا غريباً أمر علاقة تنشأ بين ممثل الحكومة ورجل بسيط من أهل القرية مثل عامر اليتيم، ولكنهم سرعان ما يتذكرون أن الحظ الذى أصاب اليتيم ورفع من أقداره ترافق مع مجىء المتصرف إلى القرية وافتتاحه للمدرسة الجديدة التى ذهبت إليها ابنته، وأن الطربوش كان فأل خير على اليتيم أكثر من أى أحد سواه، فلا غرابة إذن أن تنشأ مثل هذه العلاقة، وأن يختار المتصرف بيته من بين كل البيوت مكاناً مفضلاً لزياراته، برهاناً عظيماً على ما وصل إليه عامر اليتيم من جاهٍ ونفوذ، وما للشمس الصغيرة التى تشرق بين جدران بيته من سحر على العقول والقلوب.

كان المتصرف قد رأى جميلة، سمع الحديث الذى يتناقله عن جمالها، وقاده فضوله إلى مدرسة البنات لرؤيتها بحجة أنه يقوم بجولة تفتيشية؛ وما أن رآها حتى أدرك أنها شجرة ورد تنبت فى صحراء الرمال، وأنه لابد من يد حانية

تتعهدها بالسقاية وتمسح عن أوراقها التراب وتدرأ عنها خطر الرمال، وقرر بينه وبين نفسه أن يتولى هذا الدور، أوصى بها المدرسين خيراً، وعرف أنها تنتمى إلى عائلة فقيرة تسكن الخرائب القديمة فمنح والدها بيتاً، ثم تلى البيت العلاوة والترقية فى العمل، جاء إليه والدها شاكراً فأبلغه صادقاً بأنه لم يقم بغير الواجب، فقد كان يراه واجباً أن تلقى فتاة فى مثل جمالها معاملةً متميزة عن بقية الناس، لقد أحبها اللّه وحباها بكل هذا الحسن، فكيف لا يحب هو أيضاً من أحبها اللّه، لم يكن فى ذهنه غرض أو يبغى لنفسه منفعة أكثر من المتعة التى يحس بها وهو يخدم هذا الجمال، ثم تدريجياً صار يرى نفسه مهموماً بمستقبلها والمصير الذى ستؤول إليه فتاة مثلها فى قرية وسط الصحراء، لو كانت فى بيئة أكثر حضارة وتقدماً لأقيمت من أجلها المهرجانات ولتسابق الأغنياء لإغراقها بالهدايا والهبات ولأصبحت صورتها على غلاف كل مجلة ولجاء أبناء الملوك يطلبون يدها، وكان يتألم عندما يرى أن كل هذا الجمال سينتهى به المطاف إلى أن يدفن فى بيت واحد من رجال هذه القرية الذين لا يعرفون

قيمته ولا يستطيعون خدمتـــه، ولا يفرقـــون بـــين المـــاعز والنساء.

إن فكرة الزواج من امرأة أخرى يختارهـــا بذوقـــه لا بذوق الآخرين فكرة تلح على ذهنه منذ اليـــوم الأول الـــذى رأى فيه وجه المرأة التى ساقتها الظروف لتكـــون زوجتـــه والتى لم يرها إلا ليلة العرس، لم يجد فى نفسه مـــيلاً إليهـــا ولكنها كانت طيبة، مطيعة، تقضى له حوائجه، وتسهر على راحته، راضيةً بدور الخادمة، فلم يجد فى نفسه قدرة علـــى طلاقها ولم يجد فى وقته وقتاً للبحث عـــن امـــرأة يختارهـــا بنفسه لتكون زوجة ثانية، هرب من البيت وأعطى كل وقتـــه وفكره للوظيفة، ووجد فى تقدير المسؤولين لعمله تعويضـــاً عن الحياة البيتية السعيدة، ولكنه كان دائماً يعرف أنه لا يريد خادمة تشاركه حياته وإنما امرأة، امرأة بكل ما تحمله هـــذه الكلمة من دلالات، امرأة تمتلئ بالوعد والنداء وشهوة الحياة، وغيمة تهطل بغيثها على أعشاب عمره اليابسة فتعيد إليهـــا نضارتها واخضرارها، امرأة تكون بحق وصـــدق شـــريكةً لحياته يسكن إليها، ويغترف الفرح من عينيها، ويستمتع كـــل مساء بالسياحة فى حدائق جسمها الغناء، إنه فى مقتبل العمر

ما يزال، لم يصل السن التى يصبح فيها الزواج من امــرأة أخرى مسألة تبعث على السخرية والرثاء، العمــر يمضـــى، والفرصة التى تأتى لا تعود مرةً أخرى، وشجرة الورد التى قرر حمايتها عليه ألا يتركها لعواصف الصحراء تعبث بها، يجب أن ينقلها إلى بيته ويحرص العمر كله على أن يكــون بستانياً يعزق أرضها ويتعهدها بالعناية والرعاية إلـــى آخــر العمر.

قال المتصرف يخاطب عامر اليتيم عندما ذهــب مــع المساء لزيارته:

- تعلم أن انتخابات مجلس النواب ســيحين موعــدها آخر هذا العام، وتعلــم أن مولانـــا يهــتم شخصــياً بهــذه الانتخابات.

استغرب عامر اليتيم أن يفتح المتصــرف موضـــوعاً كهذا يعرف أن اليتيم لا يفقه فيه شيئاً، ولكنه وجد اسم الملك يذكر أمامه فأحس بالرهبة والخوف وبادر قائلاً:

- حفظ اللّه مولانا ورعاه.

واصل المتصرف حديثه:

– إنها انتخابات غير عادية هذه المرة، لقد ساء مولانا الملك ما يثيره بعض الأعضاء من مشاكل فى وجه العلاقات المتينة التى تربطنا ببعض الدول الصديقة، فأمر بألا لا يدخل البرلمان فى دورته الجديدة إلا مـــن أدرك مصـــلحة الـــبلاد وقدمها فوق كل اعتبار.

ولكن عامر اليتيم لا يعـــرف بالضـــبط مـــاذا يفعـــل البرلمان، أو لماذا يكون مهماً إلى حد أن يغضب الملك، كان البرلمان فى ظنه مجرد مجلس كغيره من المجـــالس التـــى يسمع الناس يتحدثون عنها مثـــل مجـــالس المحافظـــات أو مجالس الآباء أو غيرها، فلماذا يكون هذا المجلس وحده الذى يثير هذه الزوابع وتنشأ من حوله الخلافات، وتقام له صناديق الاقتراع، لابد أنه مجلس خطير إذن، ولكـــن لمـــاذا يـــأتى المتصرف اليوم ويقحمه فى أمر لا يعرف عنه شيئاً، ســـمع المتصرف يقول:

– إن رؤوساً كثيرة سوف تطير، والـــذين يتمتعـــون بالحصانة البرلمانية سوف يفقدون حصانتهم.

الأمر مازال لغزاً فى ذهن عامر اليتيم فهو لا يعرف أيضاً ما هى هذه الحصانة التى سيفقدها أصحابها وما علاقتها بالبرلمان، ولماذا يجب لتلك الرؤوس أن تطير.

- إن القرية يجب أن تعرف كيف تختار من يمثلها.

لابد أن يقول شيئاً مجاملة للرجل، فقد ظل صامتاً فى حين كان المتصرف ينتظر منه فى كل مرة تعليقاً، تذكر أن للقرية والمناطق الصحراوية التى حولها نائباً يمثلها فى البرلمان هو الحاج عبد الجليل فقال وكأنه عثر على اكتشاف:

- البركة فى الحاج عبد الجليل، لقد تمتع دائماً بثقة الحكومة.

سمع المتصرف يقول:

- لقد أمر مولانا بتطعيم المجلس بالدماء الجديدة.

ماذا يعنى هذا الكلام، هل سيفقد الحاج عبد الجليل وظيفته ويعود إلى كتابة الأحجبة كما كان يفعل فى زمن قديم، ولكن لماذا تبدل الحكومة رجلاً من رجالها الأقوياء الذين كثيراً ما فرضت فوزهم فى البرلمان بقوة الشرطة والسلاح.

- إن وزارة الداخلية تعد منذ الآن قائمة بأسماء المرشحين الحكوميين لكى ترفعها إلى الديوان الملكى، ومطلوب منى أن أذهب إلى طرابلس لأقدم اسم المرشح الجديد عن هذه المنطقة.

ثم سكت قبل أن يضيف:

- وباعتبارك صديقاً أقدره وأحترم رأيه فقد جئت أستشيرك فيمن تراه صالحاً لهذه المهمة.

أسقط فى يد عامر اليتيم، ماذا عساه أن يقول، أراد أن يضحك، ولكنه خشى أن يعتبر المتصرف ضحكه هزءاً وسخريةً من كلامه، أتراه يتكلم جاداً أم مازحاً، ولكنه يسدل ملامحه فى تجهم وخطورة تدلان على أن الأمر جد لا هزل فيه، ظل صامتاً لا يعرف ماذا يقول، استعجله المتصرف قائلاً:

- لم تقل رأيك.

- وهل لنا رأى معك، إنك أنت الخير والبركة.

- ولكنك ابن هذه المنطقة وأكثر منى خبرة بأهلها ورجالها.

قال مستعطفاً، مسترحماً، كأنه يطلب العفو عن ذنب لم يقترفه:

- إننى كما تعلم قليل الدراية بالسياسة ولا أعرف غير الحاج عبد الجليل أهلاً لهذه المكانة.

- لقد مضى عهد الحاج عبد الجليل وآن له أن يتقاعد، ولقد فكرت طويلاً فى الأمر ولم أجد أحداً أطمئن إليه وأحمل اسمه إلى الوزارة وأنا واثق كل الثقة من فوزه برضا الديوان الملكى لأنه ليس فى سجله ما يعيب، وليس فى حياته مأخذ، ولم يشترك فى نزاع أو خصومة وصلت مراكز الشرطة غير رجل واحد.

بقى اليتيم ينتظر فى شوق معرفة الرجل، وقد أحس بالارتياح لأن المتصرف قد حمل عنه العبء ولم يعد محتاجاً لرأيه فى الموضوع بعد أن اهتدى إلى الرجل الذى يريد، رأى المتصرف صامتاً لا يذكر اسم الرجل، فسأل بدافع الفضول:

- من هو هذا الرجل يا سيادة المتصرف؟

- إنه أنت يا عامر اليتيم.

انتفض اليتيم كأن المتصرف ألقى فى حجره ثعباناً.

- أنا؟!

قالها بعد أن وقف وصار ينظر إلى وجه المتصــرف باحثاً عن علامة مــن علامــات العتــه أو الجنــون، رأى المتصرف الرعب الذى أصابه فقال:

- ظننت بأن الخبر سيفرحك.

لم تكن لدى اليتيم كلمات يعبر بها عن الشعور الــذى انتابه فى تلك اللحظة، وجد نفسه يقف ثم يجلس مرةً أخــرى والمتصرف ينظر إليه متعجباً والطربوش يرتفع ويهبط مــع وقوف اليتيم وجلوسه.

- أجلس يا رجل وقل ما الذى أصابك؟

قال اليتيم وهو يفتش فى نفسه عن تفسير لهذا الرعب الذى اجتاحه:

- إننى لا أعى شيئاً من هذه الأمور، ولم أذهب إلــى طرابلس ولو مرةً واحدة فى حياتى، ولا أعرف كيــف أفــك الخط أو أركب الفرس البرلمانية، فكيف باللّه عليك تريــدنى أن أكون نائباً فى مجلس النواب؟

تساءل المتصرف فى حيرة:

- ولكن عن أى فرس تتكلم؟

ثم انفجر ضاحكاً.

– لعلك تقصد الحصانة، فهمت الآن، لا يهم، لا يهم.

عاد إلى شرح الأمر الذى غمض على اليتيم بعد أن فرغ من الضحك:

– إنها ليست وظيفة كتابية تحتاج لإتقان القراءة والكتابة، إنهم يضعونها شرطاً ونحن لدينا الوقت لأن نتغلب على هذا الشرط، أما عن النقاش والحديث داخل المجلس فإن أهم شروط النائب الناجح هو ألا يتكلم أبداً، أما فيما يخص ركوب الفرس. .

وعاد يضحك من جديد قبل أن يواصل الحديث :

– فهذه مسألة سأشرحها لك فيما بعد، إننى ذاهب الآن، فلا تقفل الباب فى وجه الخير الذى جاء يسعى إليك، إنك خير من يصلح لهذه المهمة، كل ما أرجوه أن يبقى الأمر سراً بيننا حتى يحين الموعد المناسب لإعلام الناس.

ثم قال وهو يتبع طربوشه الذى ارتفع إلى أعلي:

– دعنى أتدبر الأمر ولن يكون إلا خيراً.

وقف بباب المربوعة يضع الحذاء فى قدمه وهو يقول مستدركاً:

- بقى أمر بسيط لا أدرى كيف أفاتحك فيه؟

لم ينتظر تعليقاً من عامر اليتيم الذى مازال غائباً عن وعيه، فمضى يقول:

- لعلك تعلم أن أم الأولاد تعانى من برد فى الركب.

- شفاها اللّه وعافاها.

- ولقد صرت أشقى وأتعذب بسبب هذا المرض الذى منعها من الإيفاء باحتياجات البيت، ووجدت أن أسلم حل هو أن أتزوج امرأة أخرى تعتنى بشؤونى وتنقذنى من العناء.

كان المتصرف يتحدث هامساً، وكان اليتيم يجد صعوبة فى تتبع كلماته، أدرك أن فى الأمر شيئاً لا يرتاح إليه، حاول استحضار عقله الغائب ليواجه به الموقف وقال هارباً من الموضوع:

- أرجو أن تبقى لتناول العشاء.

- أشكرك، إننى على عجل كما ترى، كل ما فى الأمر أننى فكرت طويلاً فى المرأة التى أبنى بها، والعائلة التى أصاهرها، وفى الحقيقة فإننى لم أجد فى القرية من هو أجدر منك بربط أواصر المصاهرة بينى وبينه.

مرةً أخرى يجد عامر اليتيم نفسه يواجه مأزقاً حرجاً، قال فى محاولة لكسب بعض الوقت:

– لقد فاجأتنى بهذا الموضوع ولا أدرى ماذا أقول.

– إننى جاهز لأى مهر تطلبه.

– أستغفر اللّه، فليس بيننا مهر، ولكن الفتاة كما تعلم لم تكمل دراستها ولم يأت بعد الأوان للتفكير فى أمر زواجها.

– خذ ما شئت من الوقت للتفكير، وليبقَ الموضوع طى الكتمان حتى يتم الاتفاق وتعلن الخطوبة.

عرض الصفقة بصراحة ووضوح ودونما إضاعة وقت، جميلة مقابل مقعد فى البرلمان، أى مهر آخر يريد أكثر من هذا المهر، إنه كثيراً ما تولى تزوير الانتخابات لحساب الحكومة ولمصلحة رجال لا يجد أحياناً فى قلبه ذرة ميل نحوهم، ولكن الأمر يختلف الآن، ستكون الانتخابات القادمة أول انتخابات يخوضها بحب وحماس حقيقيين، لأنه سيكون شريكاً فى جنى الأرباح، وسيديرها لحسابه ولحساب الحكومة معاً.

خرج المتصرف وترك اليتيم حائراً، لم ينتبه حتى لإقفال الباب الذى أبقاه المتصرف مفتوحاً .

(١٣)

أمضى العيد أسابيع ثلاثة مشــغولاً بــالفكرة التــى زرعها فى رأسه الرجل البدوي، كان قد ذهب لعملة فى المدينة، وبقى بعيداً عن القرية كل هذه المدة من أجل أن يختبر مشاعره نحو جميلة قبل أن يقدم على خطبتها، لعل ما ظنه حباً لم يكن إلا افتتاناً بامرأة باهرة الجمال،ما أن يبتعد عنها أياماً حتى يتلاشى افتتانه بها وتنسيه جمالهــا الوجوه النسائية الأخرى التى يلتقى بها، أكثر من التردد على مكتبة الجامعة التى لــم يكــن يزورهــا إلا لمامــاً لاستعارة كتاب من كتب المنهج، عل لقــاءه بالطالبــات وحديثه مع عاملات المكتبة ينسيه ذلك الأثر الذى أحدثته جميلة فى نفسه، ولكن جميلة ظلت هاجساً يمــلا عليــة نومة ويقظته، رؤيته للنساء الأخريات لم تزيده إلا شوقاً إليها ويقيناً أن جميلة المرأة الوحيدة التى تبعث فى نفسه هذه البهجة وتجعله يقبل على الحياة وكأنة خلــق خلقــاً جديداً، أراد أن يذهب إلى ذلك البيت الــذى أدار ظهــره إلى البحر، أغلقوا بابه الرئيسى ووضعوا فوقه الأقفــال وتركوه يغطيه التراب وأعشاب البحر اليابسة فبدا كأنــة

بيت مهجور، وفتحوا باباً خلفياً لزبائن الليل، ولكن نفسه المليئة بهذه العاطفة الجديدة عافت الذهاب لشراء لحظات من المتعة الرخصة فى مغارة الحلم، ظل يقاوم كل يـوم رغبته فى العودة إلى القرية، وأرغم نفسه أرغماً علـى البقاء فى المدينة حتى انقضى الأسبوع الثالث، جاء يـوم الخميس وانتهت ساعات الدوام ووجد نفسه محشوراً مع عدد من الرجال فى سيارة أجرة تنهب بهم الطريق إلـى ((قرن الغزال))، وفى ضحى اليوم التالى جـاء يطـرق باب بيتها، أطلت جميلة تنظر باندهاش إلية، إنها تعـرف أن سؤاله عن والدها فى المرة السابقة لم يكن إلا عـذراً اختلقه لكى يراها وتعرف أنة يهرب من طريق والـدها ويختفى عندما يسأل عنة، فما الذى جاء بـه الآن وهـو يعلم إنه عطلة ووالدها ينتظر داخل البيت لتخبـره مـن الطارق، ظنت أن العيد قد أخطأ التقدير هذه المرة فقالت محذرة:

-إن أبى موجود بالبيت.

قال بابتسامة تطمئنها وتبـدد القلـق الـذى غشـى ملامحها:

-ما جئت إلا لكى أراه.

وأضاف هامساً يريد بسرعة أن يعرف رأيها فيما أقدم علية:

-جئت فى الحقيقة لامر يهمنى ويهمك أنت أيضاً.

ابتسمت عيناها ودخلت مسرعة لإبلاغ والــدها دون أن تعطيه فرصة ليكمل ما أراد

أن يقوله لها ،خرج اليتيم ليرى العيد واقفاً يعلــق عينية بحدوة الحصان، كان قد نسى فى غمرة المفاجــآت التى ساقها إلية المتصرف أنة غاضب على العيد وأنــة منذ أسابيع مضت كان يبحث عنة ليسأله مرة أخــرى أن يبتعد عن طريق أبنته، قال

بلهجة باردة:

- تفضل.

وسار يقوده إلى المربوعة، دخل العيد وقد أسعده أن يرى سورة الغضب التى قابلة بها فى المرة الماضية قــد فارقت وجهه، وسمعة يسأله عن سبب مجيئه قائلاً:

- خيراً؟

- ليس هناك إلا الخير.

بدا خجولاً متلعثماً لا يعرف من أين يبدأ، تمنى لــو أنة استعان على هذه المهمة بأمة أو أحد أقاربه، رأى أنه لابد أن يقول شيئاً يبرر به مجيئه للخطبة بمفردة:

–لقد رغبت فى أن أسبق والدتى إلى زيارتكم لكـــى أقــف بنفسى على رأيكم فى الموضوع .

يعرف لو أنه جاء بأمة ورفض اليتيم طلبها فستكون قطيعة بين العائلتين لا أحد يدرى إلى أى أمــد تــدوم، أدرك عامر اليتيم ما يرمى إليه العيد، ولكنه لم يشأ أن يساعده، إنه ذاته بحاجة إلى من يعينه على الخروج من هذا المأزق الذى وضعه فيه المتصرف، قال العيد:

لقد فكرت أكثر من مرة فى الزواج مــن عــائلات تجاورنى فى المدينة وتربطنى بها أمتن العلاقات، ولكننى فى الحقيقة كنت أتراجع فى اللحظات الأخيرة لأننى أعرف أن زوجة أختارها من بنات قريتنا ستكون أقدر على صون شرفى ورعاية بيتى والعطف بوالدتى أكثر من أى أمــراه أخرى.

حمد الله الذى هداه إلى هذه المقدمة، إنه لم يفكر يوماً فى الزواج من المدينة، ولا يعرف جيراناً غيـر مجموعـة العزاب الذين جاءوا نازحين من الأرياف مثلـه، يـؤجرون غرفاً فى فندق رخيص بالمدينة القديمة يضم مخزناً لقـوارب الصيد ويمتلئ بالرطوبة ورائحة السمك، ولا يعرف بيوتـاً غير((مغارة الحلم)) التى تديرها امرأة كانت فـى صـباها خليلة للحاكم الإنجليزي، اهتدى إليها أخيراً ووجد عند نسائها علاجاً للسأم والارق ووسيلة لحرق ما لدية مـن مـدخرات، أسرع قائلاً قبل أن يجف حلقه ويفقد قدرته على الكلام:

ولذلك فقد جئت راغباً فى طلب يد كريمتكم كان عـامر اليتيم يجلس صامتاً وهو يراقب العيد يغالب خجله وارتباكه، احمر وجهه وعرقت أصابع يديه وهو يستعين بها فى شـرح كلماته، ارتدى الملابس الوطنية وبدت قصـته مـن تحـت الطاقية تنبئ بنعومة شعرة وسواده الداكن، لاحـظ انسـجاما بادياً فى ملامح وجهه الطفولى الذى أضفى علية كدر وعناء المهمة التى يقوم بها براءة جعلت اليتيم يحس بالعطف نحوه ويدرك بينه وبين نفسه أنه أكثر شباب القرية جدارة بهـا لا يزيد عليها فى العمر بأكثر من ست أو سبع سنوات، ويحظى

بحب الناس وتقديرهم لاجتهاده وعصـاميته ولكـن هنـاك اعتبارات أخرى لا يستطيع اليتيم أن يغض الطـرف عنهـا ليس أقلها شأناً الاتفاق الذى جاء يعرضه عليـة سـيد هـذه القرية أنه لا يريد أن يقف موقف المفاضلة بين المتصـرف والعيد فهذا ليس إلا مأزقاً جديداً يأتى هذا الفتى ليضعه فيـه لقد وجد العيد يدخل قلبه ولاشك أن لابنته ميلاً نحوه ولكـن الانسان لا ينال إلا ما كتب له ولم يـرى إلا مـا سـطرته الملائكة فوق جبينه فهو لن يقول له شـيئاً يغضـبه يـؤذى مشاعره أو يكسبه عداوته قال مجاملاً:

أعرف محبة الناس له وما أنا إلا واحد من أهل هذه القرية أحب ما يحبون وأكره ما يكرهون

وبحث عن أى عذر يصرف به العيد

- ولكنك يا ولدى تقيم بعيداً عن القريـة وأنـا أكره أن أرى ابنتى تسكن بعيداً عنى، هـذا من ناحية ومن ناحية أخرى. .
- قاطعه العيد قائلاً:
- سأسعى بعون الله للحصول على الانتقالة.

- – انتظرنى قليلاً، ثم إننى لا أريد أن أشغلها بأى شئ آخر غير دراستها،
- وسأرجئ النظر فى مثل هذه المواضيع إلى أن تكمل دراستها وتأخذ الشهادة.

ثم أستأذن لأن موعد صلاة الجمعة قد أزف، وسيكون بعد قليل فى طريقه للمسجد.

لم يجد العيد فى كلام الرجل شيئاً يوحى برفضه، حتى وإن أرجأ النظر فى الأمر فقد قال ذلك كله بمودة أسعدته، لقد ترك الباب مفتوحا أوعية الآن أن يجتهد فى الحصول على الانتقال إلى وظيفة بالقرية، والعودة بعد ذلك إلى اليتيم مجدداً الخطبة. ولم يجد حرجاً عندما عاد إلى البيت من كتابة رسالة إلى جميلة يخبرها فيها بما حدث ويضع الرسالة بين صفحات كتاب قصصى يرسل به مع طفل إليها .

(١٤)

ها هو العام الدراسى يتراجع ليسلمها بعد شهرين إلى موسم الامتحانات حيث تلوح تلك الجائزة بإطارها

المزخرف، مليئة بالإمضاءات والأختام تحمل اسمها وقد كتب بحروف كبيره أنيقة "جميلة عامر اليتيم" مقروناً بكلمة معلمة، شئ يستحق عناء السنين ويملأ القلب شوقاً ليوم الانعتاق من تلقى الدروس والانكباب على كتابه الواجبات المنزلية، لتبدأ بعد ذلك حياة جديدة مثيرة لم تعرف مثلها أية امرأة من نساء القرية، حيث هى التى تعطى الدروس وتكلف الآخرين بالواجبات، وستدخل تاريخ التعليم باعتبارها إحدى الرائدات فى "قرن الغزال" هكذا إن يصنع التاريخ وتصبح صدفة كهذه سبباً لعقد ألوية لبطولات ومنح الأوسمة فى المناسبات الرسمية كما حدث مع بع المدرسين فى القرية، إن ما يبعث فى قلبها الخوف، ليس الامتحانات فقد استعدت لها، ولكنها تلك العطلة التى تعقبها بأيامها القائظة الطويلة وصيفها المحمل بالغبار والعرق والقرف والذباب ورياح القبلى ورائحة الرطب الفاسد، أسوأ فصول العام وأكثرها بؤساً وقسوة، حيث لا مكان آخر تخرج إليه سوى الطواف حائرة بغرف البيت لا تدرى ماذا تفعل بنفسها، لاشك أن الذين اخترعوا هذه العطلة أرادوها أن تكون مؤسماً للراحة والاستمتاع بمباهج السفر والسياحة، ولكنهم لو عرفوا ما

تفعله عطلتهم بطالبة من طالبات (قرن الغزال) لعدلوا عنها ولجعلوا العام الدراسى اثنى عشر شهراً رحمة بها، ها هو التوتر الذى يثيره اقتراب الامتحانات قد بدأ يفعل فعله، تصحو مبكرة وتنام متأخرة، وتجلس فى غرفتها تنتقل من كتاب إلى كتاب ومن كراس إلى آخر وكأنها تريد أن تحفظ المنهج كله فى يوم واحد، ثم فجأة تكتشف أن الغرفة قد فرغت من الهواء وأنها تحس بالاختناق، فتسرع إلى فناء البيت بحثاً عن نسمة هواء وترفع رأسها فيدهشها منظر السماء الفسيحة الزرقاء، لقد دست رأسها فى الكتب وحصرت نفسها بين جدران البيت والمدرسة حتى نسيت لون السماء، ولقد رأتهم يضربون حولها حصاراً فى البيت لا تدرى كيف بدأ ولا متى ينتهى، منعوها من زيارة أمى سعيدة التى صار بيتها الآن منطقة محرمة بعد أن وصلت إلى أسماع أهلها الشائعة التى تقول بأنها تعلمها السحر، وهى لا تعرف بيوتاً أخرى تذهب إليها، أما الأسواق والشوارع وغابة النخيل والجبال والبرارى فقد صادرها الرجال منذ قرون سحيقة وصارت حكراً عليهم لا تفكر هى ولا أية امرأة أخرى فى الاقتراب منها، ومشوار الذهاب إلى المدرسة

والعودة منها صار واجباً ثقيلاً، تمضى فى الطريــق وهــى تدس رأسها فى صدرها وتمنع نفسها عن الالتفــات شــمالاً ويميناً لكى لا تلتقى بالعيون التى تبحث فــى فضــول عــن العاملات الساحرة فى ملامحها، ولقد وجدتهم فى المدرســة يعاملونها بحذر واحتراس كأن احتمال أن تكون حقاً ســاحرة احتمالاً قابلاً للتصديق وتستغرب أن ترى الجهل والخرافــة يتسللان إلى بيته تحصنت بالعلم مثل المدرسة فتحس بأنهــا غريبة عن كل ما حولها وتضيق أحياناً بجمالها لأنها تعرف أنه مصدر هذا الإحساس بالغربة الذى يداهمها وسبب هــذه الموجات من الحسد والشائعات التى تركض كقطعان الذئاب نحوها، جاء الطفل بالكتاب الذى أرسله العيد وقرأت رسالته، كانت قد أدركت من كلماته عندما جاء ليرى والدها إنه انمــا جاء ليخطبها وانتظرت طوال اليوم أن يرسل والدها بأمهــا تسألها رأيها، كان يحرقها الشوق لأن تعرف ما دار بينهمــا وأقلقها أن يمر اليوم دون أن تفاتحها أمها بشيء، حتى ذهب فى ظنها أن والدها قد رفض العيــد دون أن يأخــذ رأيهــا، أسعدها وهى تقرأ الرسالة أن والدها قد أبقى الباب مفتوحــاً ومعتذراً بْأنه لا يريد أن يشغلها عن دراستها، لم تبادر بكتابة

رد على رسالته فهو لم يكتبها لينتظر رداً، وهي لا تريد تشجيعية على إرسال المزيد منها لأنها تعرف أن مثل هذه الأمور لن تبقى سراً، جاء الكتاب فى الوقت المناسب يمنحها فرصة للهروب بضع لحظات من روتين الحياة وثقلها، كان كتاباً قصصيا مطبوعاً طباعة أنيقة فاخرة، بعكس الكتب القديمة المهترئة التى تضمها مكتبة المدرسة الصغيرة، أغلبها قصص دينية تحكى حياة الأنبياء وتراجم القادة المسلمين وكتب فى الأدب والتاريخ ودواوين الشعر العربى القديم، ولكنها لأول مرة تقرأ قصة حديثة تروى موضوعاً معاصراً، وبنهم قرأت القصة التى كانت مليئة بالمشاهد والمغامرات العاطفية، رجاء ونساء يطارحون بعضهم بعضاً الغرام فى الحدائق والمقاهى وعلى شواطئ البحر، وكان حياتهم قد خلت من كل شئ أخر سوى الحب، لابد أنه شئ مبهج وجميل أن يحب الإنسان، وأن يجد فى الحب شيئاً يملأ عليه حياته ويغنيه عن كل شئ آخر.

وتذكرت العيد.

لم تكن قد رأته إلا مرة واحدة منذ أعوام مضت، كان عائداً لتوه من المدينة ومن حوله بعض الأطفال ينادونه باسم العيد، عرفت فيما بعد أنهم يطلقون عليه هذا الاسم لأنهم يفرحون بقدومه كما يفرحون بقدوم العيد.

ثم لم تره بعد ذلك إلى أن جاءت إليها أمها منذ أسابيع مضت تنقل إليها ما دار من حديث بينها وبين والدها بشأن علاقة يتكلم عنها الناس ويكتبون حولها الشعر تربط بين العيد وبينها، لقد أقنعت زوجها بأن الأمر مجرد إشاعة كاذبة، وكفتها شر الغضب الذى ألم به، وتسألها إذا كان فى الأمر شئ تخفيه عنها، طمأنت أمها بأن ما قالته لوالدها كان صحيحاً، وجلست تفكر فى هذا الرجل الذى جعلوه ودون أن علم حبيباً لها، وعندما جاء بعد ذلك يطرق باب البيت بحجة أنه يريد تهنئة والديها بالبيت الجديد عرفت أنه العيد وضحكت فى نفسها من هذا العذر الذى اختلقه لرؤيتها فالبيت الجديد صار الآن قديماً، وأدركت أن شائعة ارتباطه العاطفى بها هى التى أثارت فى نفسه الفضول بمثل ما أثارت فضولها، كانت تتصوره ولداً ممن عاشوا طويلاً فى المدينة شائعة ارتباطه العاطفى بها هى التى أثارت فى نفسه الفضول

بمثل ما أثارت فضولها، كانت تتصوره ولداً ممـــن عاشـــوا طويلاً فى المدينة فأذابت احتشامهم ومنحـــتهم طـــلاوة فـــى الحديث وقدرة على الاقتحام واللعب بعقول النساء فـــأرادت للوهلة الأولى أن تأخذ حذرها منه، أدهشها وهى تقف تتأمله وتبحث عن سر اختيار ذلك الشاعر له ليكون حبيبها من بين كل الناس الآخرين، أن ترى وجهاً وديعاً لم تفارقه طبيعتـــه القروية، ورجلاً يتحدث بصوت هامس ويتحاشى النظر فـــى عينها كأنه خجول من هذا العذر الذى لفقه تلفيقـــاً، أحســـت بالعطف نحوه وهى ترى خجله وتردده، وترى ذلك الأســـى الذى يسكن عينيه العسليتين، وكان وراءهما سراً، ثم جاء فى زيارته الثانية وقد اختلق عذراً جديداً فأدركت له صار يهـــتم بها وأن عليها أن تفتش فى نفســـها إذا كانـــت تبادلـــه ذات الاهتمام، رأته وقد تحرر من ارتباكه وكأنه أحـــس بالألفـــة معها فرأت أيضاً ألفت إليها وكأنها تعرفه منذ زمن طويـــل، عندما انتهى اللقاء على الباب وجدت نفسها تمد إليـــه يـــدها تودعه كأنها تريد بهذه الملامسة بالأيادى أن تتعـــرف عليـــه أكثر وأن تستمتع إلى النبض الذى انتقل من قلبه إلـــى يـــده وتختبر بهذه المصافحة مدى قوة العلاقـــة التـــى تنشـــأ الآن

بينهما، رأته يبقى يدها فى يده، كانت هذه أيضاً رغبتها، أن تبقى هى أيضاً يدها فى يده،أو لعلها ليست رغبتها وإنما رغبة الدم والخلايا والأنسجة فى تلك اليد الأخرى فأسعدها اللقاء، لعل هذا ما تسميه كتب العلوم كيمياء البدن الإنسانى تعبر عن تفاعل عناصرها بالعناصر التى تقابلها، ولكنها انتزعت يدها من يده، بسرعة وقسوة انتزعتها، وكأن هذه الرغبة إثم يجب أن تحاربه فى نفسها، إنها لا تعرف شباناً آخرين تختبر بعلاقتها بهم والحديث إليهم كنه العلاقة التى تربطها بالعيد، ولكن الأغانى التى تسمعها بالمذياع لا تذكراه بأى رجل آخر غيره، وهذا الكتاب الذى تقرأه الآن لا يوقظ فى قلبها إلا ذكرى اللحظات التى رأته فيها.

- نعم، نعم، هذا هو الحب يا ابنتى .

قالتها أمى سعيدة وهى ترى جميلة تفتح لها الباب وتعانقها بشوق وحرارة، جاءت تتكئ على عكازها ومن خلفها كلبها الذى انطلق مهرولاً يتسلق جسم جميلة ويهز ذيله طرباً بلقائها، جلست أمى سعيدة تعبث بحبات المسبحة وتخاطب أم جميلة.

– لقد تخلفت جميلة عن زيارتى فجئت استطلع السبب.

قالت الأم وهى تولع الموقد لإعداد الشاى.

– مرحباً بك دائماً .

ثم أضافت قبل أن تتورط ابنتها بقول شئ تعرف منه المرأة العجوز السبب الحقيقى الذى جعلهم لا يسمحون لجميلة بزيارتها.

- جميلة فى صحة وعافية، ولكن هم الامتحانات القادمة شغلا عن كل شئ آخر.
- أسعدنى أن الخطاب قد بدءوا يتزاحمون على باب بيتها.

لم تكن جميلة تعرف أن هناك من تقدم لخطبتها غير العيد، نظرت إلى أمها غاضبة لأنها تخبئ عنها شيئاً كهذا لا يهم أحداً بقدر ما يهمها، لكن الأم لم تنتبه لنظرة ابنتها، لقد اقلقها ما قالته الزنجية العجوز، من أين لها أن تعرف أن هناك من جاء لخطبة ابنتها، تعرف الأم قدرتها على ضرب

الودع وخط الرمل فهل هى مجرد تكهنات جاءت تبحث الآن عن تأكيد لها؟ رأت أن من واجبها أن تقول شيئاً تقفل به هذا الموضوع:

- ما أغنانا عن فتح باب كهذا وهى لا تزال تلميذة لم تكمل دراستها.

- لا تخبئ عنى شيئاً فأنا أيضاً أمها.

تتذكر الأم الآن أن أمى سعيدة هى التى أصرت على تسميتها "جميلة" كان من رأيها ورأى نساء كثيرات حضـــرن مولدها ورأين جمال المولودة وبيـــاض بشـــرتها أن تســـمى "الشينة" ليكون هذا الاسم القبيح الذى يناقض شـــكلها تميمـــة عنها الإصابة بالعين وترد عنها حسد الحاسدين، ولكن أمـــى سعيدة أقنعتهم بأن هذا الاسم سيكون مصدر تعاسة لها عندما تكبر، واختارت لها اسم جميلة ليكون اسماً لائقاً بها، وها هى ابنتها الآن تحصد نتيجة هذه التسمية.

قالت ترد على اتهام أمى سعيدة:

– معاذ الله أن نخبئ عنك شيئاً، تعرفين أن ليس هناك من شباب البلدة من يكره أن تكون من نصيبه، ولكن والـــدها لا يريد فتح هذا الباب الآن.

– لقد جئت فى الحقيقة أحذره من أن يقبل عريساً يندم فى المستقبل .

– من هذا العريس الذى تقصدين؟

– المتصرف ولا أحد غيره.

- المتصرف؟

قالتها جميلة باندهاش واستنكار، لماذا لم تعرف بـــه إذا كان حقاً قد جاءها خاطباً، كيف يخبئون عنها مسألة كهذه، أرادت أن تبدأ معركة مع أمها، ونظرت إليها فرأتها تســـتقبل الخبر باندهاش مثل اندهاشها، لم تفاجأ الأم باسم المتصرف، ولكن الذى فاجأها هو كيف وصل الخبر إلى أمـــى ســـعيدة، تعرف أن زوجها حمل عبئ اتخاذ قرار فى هذا الموضـــوع لأيام طويلة، لا تكاد تنقضى ليلة دون أن يســـألها أن تبحـــث معه عن حل لهذا المأزق، إنها لا تريده زوجاً لابنتها، لأنهـــا تعرف أن هناك امرأة أخرى بأطفالها ستكون ضـــرة لهـــا، وابنتها ليست بائرة إلى حد إعطائها لرجل متزوج مهما كان

مركزة، ناهيك عن فارق السن بينهما وعن كونه غريباً عن القرية لن يبقى بها إلا عاماً أو عامين ثم ينتقل بها إلى بر ار أخرى، ولكن زوجها يخشى بأس المتصرف وسلطته، إن اليتيم رجل لا أهل له ولا قبيلة تعينه على مقارعة الشر، والرجل الذى جاء خاطباً إنما هو رجل الحكومة، يسجن من يشاء ويطلق سراح من يشاء، فمن يقوى على الوقوف فى وجهه.

قالت أمى سعيدة وقد أدركت سر صمتها:

- أعرف أنكم تخافونه، ولكن لا تسنى أن وراء كل كبير من هو أكبر منه.

قالت الأم فى انكسار وكأنها تعتذر عما حدث.

- وما حيلتنا نحن تجاه رجل بيده كل مقادير القرية.

أدركت جميلة من كلام أمها أن هناك أمراً مبيتا لتزويجها منه، وقفت غاضبة تصيح فى وجه أمها:

- من أين لكم الحق فى تقرير شئ كهذا بالنيابة عنى، إن عليكم أن تقتلونى أولاً قبل أن أقبل بشىء كهذا.

جاء من يطرق الباب، وجدتها الأم فرصة لأن تهرب من هذا الموقف الذى تأزم الآن، خرجت لترى الطارق وانتهزت أمى سعيدة فرصة غيابها لتقول هامسة فى أذن جميلة:

- لعلك لا تعلمين أن العيد جاء أيضاً لوالدك خاطباً.

هزت جميلة رأسها بالإيجاب والغضب ما زال يغطى ملامحها.

- إنكما تليقان ببعضكما، وسأعمل جهدى كى أمنع هذا الزواج الذى أرادوه لك.

عادت الأم ومن ورائها دخل عامر اليتيم مرحباً بالمرأة الزائرة:

- ما هذه الرياح المباركة التى جاءت بك إلى هنا.

رأى ابنته غاضبة تلعن الحظ الذى جاء بها إلى الدنيا فتساءل عن سبب ثورتها، قالت زوجته وهى تمد له طاسة الشاى:

- لقد جاءت سيرة المتصرف وخطبته لها.

إذن فالأمر لم يعد سراً كما كان يظن، أدرك أن لأمى سعيدة ضلعاً فى إثارة الموضوع فقال مدافعاً عن نفسه:

- ومن يكره مصاهرة رجل له مثل هذه المكانة.

خاطبته أمى سعيدة بلهجة محملة بالوعيد:

- أرجو ألا يكون ما تناهى إلى سمعى صحيحاً يا عامر اليتيم.

لقد وجد عندها دائماً بيتاً مفتوحاً وطعاماً يشبع جوعه عندما كان صبياً لا يجد مأوى ولا عملاً، قال وهو يتجنب النظر إليها:

- لقد فكرت طويلاً فى الموضوع ورأيت أننى لن أجد لابنتى زوجاً أفضل منه.

– اتق الله فى ابنتك يا عامر، أتبيعـا بمنصـب مـن مناصب الحكومة.

من أين لهذه الحيزبون التى حضرت طوفان نوح أن تعرف أن فى الأمر مناصب وصفقات ولكن الخيار صـعب أيتها العجوز التى قضت عمرها فى الخرائب والظلام، أمـا الفقر والسجن ولعنة الحكومة وأما الجـاه والمـال والنائـب المحترم الذى يخشى بأسه الوزراء أنفسهم، بل قد يصبح هو نفسه وزيراً، لن يكون أول وزير فى حكومة مولانا لا يعرف القراءة والكتابة أغمضى عينيك للحظة واحدة وضعى نفسك فى مكانى، من أين سأجد لابنتى زوجاً يغرقها ويغرقنى فـى النعيم الحكومى ولكن من أين لامرأة مثلـك تعـودت علـى معاشرة الدجاج والكلاب وعاشت على ضرب الودع والغناء فى الأعراس أن تعرف قيمة المجد الذى يلقاه من يمشى فـى ركاب الحكومة، ثم لماذا يعطى هذه المرأة فرصة للتدخل فى حياته وإفساد الخطط التى ارتضاها لابنتـه، إذا كانـت قـد عطفت عليه يوماً فقد أعطاها بعد ذلك أكثر مما أعطته، قال بلهجة صارمة:

- إننى أدرى بمصلحة ابنتى، لقد اتخذت قرارى ولن أتراجع عنه.

نهضت أمى سعيدة واقفة، أخذت عكازها ومسبحتها وخرجت غاضبة ومن خلفها كلبها ينبح غاضباً لغضبها، أرادت زوجة اليتيم أن تسترضيها ومدت يدها بالشاى تسألها البقاء، ولكن أمى سعيدة خرجت وهى تلوح بعصاها منذرة متوعدة:

- ستندم يا عامر اليتيم، ستندم يا عامر اليتيم.

وقف اليتيم بالباب لحظة يشيع بنظراته المرأة الغاضبة، إنه لم يرتكب ذنباً يستحق الندم، فلماذا إذن تبعث كلماتها رجفة فى جسمه كله، لقد كان فى نيته أن يذهب إلى المتصرف اليوم أو غداً يبلغه بالموافقة على الخطبة ويتفق معه على تحديد موعد إعلانها، ولكنه الآن بعد أن جاءت هذه المرأة تثير الموضوع أمام ابنته، رأى أن يمنح نفسه مهلة أطول ولعل هذه العاصفة تهدأ ولعل ابنته التى أغضبها أمر هذه الخطبة تلين وترضى.

(١٥)

مهمومة، حزينة، ذهبت جميلة فى اليوم التالى إلى المدرسة، لم يستطع كل هذا البهاء الذى يفيض به وجهها أن يخفى الكدر الشديد الذى غطى ملامحها، جلست إلى مقعدها واجمة، غير قادرة على أن تسمع درساً، أو تكتب سطراً واحداً بلا أخطاء، لاحظت المدرسة المصرية التى جاءت تقدم حصة اللغة العربية والدين ذهولها وكثرة أخطائها، انفردت بها بعد انتهاء الحصة تسألها عن السبب، لم تخبرها جميلة بشىء مما حدث، خشية أن يتحول إلى وقود جديد يلهب المخيلة التى تنسج حولها القصص وتصنع الشائعات، قالت وهى ما تزال فى شرودها:

- ليت الناس يتركون الإنسان فى حاله.

تعرف المدرسة أن هذا مطلب يتعذر تحقيقه، وإن العلاقة بين جمال كهذا الجمال وبين البيئة التى حوله ستظل دائماً علاقة مليئة بالتوتر والصراع، إنهم لن يتركوه إلى حالة لأن هذا الجمال لن يتركهم، فهو يتحول إلى مركز جذب يرغمهم على الاهتمام به، سألتها بلهجة حانية ألا تشغل بالها بشىء غير دراستها التى أوشكت على الانتهاء والحرص على الفوز بالشهادة التى ستكون سلاحها فى معارك الحياة.

ولكن صوت الحكمة الذى تتحدث به المدرسة لم يكــن وحده يكفى لإزاحة هذه الغمامة التى تملأ صدرها، إنهــا لا تجد من حولها أحداً تستطيع أن تفضى إليه بهمومها، جلست فى الفصل تستعرض وجوه زميلاتها، لقد اتسعت المســاحة التى تفصلها حتى عن أقرب الطالبــات إليهــا، رأت ابنــة المتصرف تتحرك من مقعدها وتسير باتجاهها تسأل شيئاً لــم تتبين جميلة إذا كانت تقصدها به أو تقصد طالبة بجوارها، لم تنتبه إلى كلماتها وإنما انتبهت إلى تشابه الملامح بينها وبــين والدها، تصورتها للحظة سريعة أنها المتصرف قادماً نحوها ليخنقها، قامت من مقعدها ترد شرّه عنها، تراجعــت الفتــاة مذعورة وهى ترى جميلة ودونما سبب تقف وتدفعها بكلتــا يديها فى صدرها حتى كادت تسقط فوق الأرض، اعتــذرت لها وهى تحس بالخجل من نفسها وتــرى جــدران الغرفــة تزحف نحوها فتغمض عينيها وتنادى العيد أن يأتى قبــل أن تسحقها الجدران ويأخذها بعيداً عن المدرسة والبيت والقرية كلها وبعيداً عن هذه الهواجس التى تدور كالزوابع الســوداء فى رأسها.

انتهى اليوم الدراسى وخرجت لتجد أمها واقفة بانتظارها أمام بوابة المدرسة لكى ترافقها فى طريق العودة إلى البيت، لقد سألتها مراراً أن تتركها تذهب وتعود بمفردها كما تفعل بقية زميلاتها، قالت بهمس غاضب:

- إنك تحرجيننى أمام بقية البنات عندما تعاملييننى كأننى »عيلة صغيرة«.

- إن خوفى عليك وأنت كبيرة بهذا الطول، أكثر من خوفى عليك وأنت طفلة.

وما أن سارا مسافة قصيرة حتى تناهى إليهما صوت الدرويش صائحاً:

- جميلة، يا ويلى من جميلة.

رأته الأم قادماً يعدو نحوهما، أدركت مذعورة أنه يريد بابنتها شراً، تناولت حجراً ألقمته به، تدارت جميلة تحتمى بأمها، ارتطم الحجر برأسه وتدفق الدم غزيراً من جبينه، ازداد هياجاً وازداد العواء الذى يصدر عنه حرقة والتياعاً، اندفع كأنه كرة من اللهب والدخان نحو جميلة، أطاح بها أرضاً، أطلقت أمها الصراخ تطلب النجدة، أمسكت بجلبابه تحاول أن تمنعه عن ابنتها، تمزق الجلباب فى يدها مظهراً

عرى الدرويش الذى ارتمى فوق جميلة وصار يمزق عنهـا ثوبها وهى باكية تدفعه عنها بلا جدوى، وتطبق ساقيها فـى تشنج لكى لا يتمكن منها، تحول إلى كتلة من الهيجان كأنـه قطيع من النمور الجائعة، يتطاير الزبد من فمه وهو يعـوى باسمها وينشب أظافره فى لحمها ويحاول أن يصل بأسـنانه إلى صدرها وقد سالت الدماء تغطى وجهـه كلـه، تعـاون الرجال الذين هرولوا من الأماكن القريبة لإزاحته من فوقهـا قبل أن يتمكن من اغتصابها، أوسعوه لكما وضربا ولكنه ظل يقاوم ويحاول أن يطولها بذراعيه وأن يعود للارتماء فوقها، سالت الدماء التى تصببت من جبينـه فـوق وجـه جميلـة وصدرها وثيابها، ساعدوها على النهوض وهى تشهق وتبكى وأمها تندب وتلطم وجهها كما تفعـل النسـاء فـى المـآتم، والدرويش يتلقى الضربات ويصرخ مردداً اسمها، انطلق من بين أيديهم يجرى ويعوى ككلب أصابه السعار، جرى نفـر منهم وراءه حتى دخل المقابر واختفى عـنهم، أعـارت الأم لحافها إلى جميلة التى وقفت ترتجف وتبكى، تغطى وجههـا بإحدى يديها خجلاً وتحاول باليد الأخرى أن تلملـم الثـوب الذى تمزق فوق جسمها لتستر به عرى صـدرها، مـلأت

الخدوش وجهها وعنقها وذراعيها، تمزق شعرها وتعفر بالدم والتراب وتناثرت خصلات منه فوق الأرض، وضعت الأم اللحاف فوق ابنتها وصعدت بها إلى السيارة التى جاءت تقلهما إلى مستوصف القرية.

(١٦)

لمدة أربعة أيام كاملة ظلت جميلة تقفل غرفة نومها على نفسها ولا تغادرها أبداً، وفى اليوم الثانى جاءت أمها تطرق بابها وعندما لم تسمع منها رداً أدركت أن ابنتها ما زالت تعانى من آثار المحنة التى تعرضت لها فتركتها تنام وتستريح دون أن يثير الأمر ريبتها، وانتظرت أن ترى فى صباح اليوم الثالث ابنتها قد خرجت تغتسل وتطلب إفطارها ولكنها رأت الباب لا يزال مغلقاً والرتاج محكماً من الداخل فظلت تترك زائراتها، وتذهب لتطرق الباب على ابنتها طرقاً خفيفاً لكى لا تثير فضول النساء الزائرات وعندما لا نسمع رداً تعود إليهن ثم لا يطاوعها قلبها فتذهب لتطرق الباب مرة أخرى بأكثر إلحاحاً وقوة، انقضى النهار فأدركت أن فى الأمر شيئاً،جاءت ومعها نساء أخريات يطرقن الباب بعنف فلا يسمعن صوتاً أو حركة، جلست أمها أمام باب الدار

طوال الليل تبكى وتندب ابنتها فلعلها انتحرت أو ماتت كمداً، لم تشأ أن تكسر الباب قبل أن تخبر والدها، انشغلت بمأساتها وبالنساء اللائى جئن لزيارتها ورأته مشغولاً بزواره فلم تشأ أن تخبره بنوم ابنته وغيابها المريب داخل غرفتها، جلست أمام الباب لعل معجزة تجعل جميلة تسمع نداءها وتفتح لها الباب لأن معنى أن تلجأ لكسرة لا يحتمل إلا تفسيراً واحداً يملأ القلب هلعاً ورعباً، وباكية متشجة تطرق الباب هاتفة باسم ابنتها تلهج بالأدعية وتستجير بسيدى أبى قنديل أن يأتى لنجدتها، وفى اليوم الرابع لم تستطع أن تخفى الأمر أكثر من ذلك على والدها، رأته يأخذا الفأس ويأتى منزعجاً لتحطيم الباب، أدركت أن القضاء قد نزل ووطنت نفسها على استقبال الخير البشع ووقفت بعيداً عن الباب باكية تراقب زوجها ومن حولها عدد من نساء الجيران يشاركنها البكاء وقد بات يقيناً من أذهان الجميع أن جميلة قد صارت الآن جسداً بلا حياة، وتهاوت طرقات الفأس على الباب، وقبل أن يتحطم تماماً بحيث يمكن دفعه والدخول إلى الغرفة، رأوا الأكره تدور وسمعوا يداً تدير الرتاج الداخلى، توقف اليتيم عن ضرب الباب وبقى ينصت إلى الحركة الصادرة من داخل الغرفة، ثم

رأوا الباب ينفرج وجميلة تطل بعينين أثقلهما النوم، تسأل فى استغراب عن سبب هذه الضجة، رمى اليتيم الفأس وذهب، ارتمت الأم فوق صدر ابنتها تحتضنها وتقبلها دون أن تتوقف عن البكاء، رأت جميلة التساؤل فى أعين النساء المتحلقات حولها فأخبرتهن بأنها كانت نائمة ولم تسمع نداءهم ولم توقظها إلا طرقات الفأس على الباب، سألتهن أن يذهبن لأنها تريد أن تعود إلى النوم مرة أخرى، بدت مندهشة وهى تسمع أمها تقول بأنها نامت أربعة أيام كاملة، وأن ضيوفاً من زميلاتها فى المدرسة يترددن عليها كل يوم بغية رؤيتها، استأذنت لحظات لكى تغتسل وتمشط شعرها وتتناول إفطارها، ارتدت أزهى فساتينها وخرجت ترحب بزائرتها، بعض الآتين أردن التعبير عن مواساتهن لها أحسس بالحرج وهن يشاهدنا مرحة مبتسمة، تقابلهن بوجه هادئ وادع لا أثر عليه للمحنة التى تعرضت لها سوى شحوب خفيف من أثر النوم الطويل زاد من حدة الألق الذى تشع به عيناها، أرادت إحدى النساء أن تأتى على ذكر الحادث ولكن جميلة رمتها بنظرة غاضبة أسكتتها عن الكلام،كان واضحاً أنها لا تريد لأحد أن يذكر تلك التجربة المهينة أمامها، كانت النظرة التى

بدت فى عينيها شيئاً جديداً لم يعهدنه فى جميلة مـــن قبـــل، وتجنباً لأى إحراج فقد دار الحديث حول الامتحانـــات التـــى يحين موعدها بعد أسابيع قليلة، وأبـــدت بعـــض الطالبـــات استعدادهن للمجيء إليهـــا بالواجبـــات المنزليـــة، ومـــذاكرة الدروس معها فى البيت إلـــى حـــين موعـــد الامتحانـــات، استغربت جميلة أن تسمع كلاماً كهذا، وكأنها امرأة عـــاجزة يثير ذهابها إلى المدرسة الخوف والاشفاق، ونظرت إلـــيهن متسائلة:

- ولكن لماذا لا أذهب إلى المدرسة؟

قالت ذلك فى براءة وعفوية، وكأنها نسيت ما حدث لها عند عودتها من المدرسة منذ أربعة أيام مضت، لم يجدن ما يقلنه لها،لأنهن لا يستطعن أن يخبرنها بأن صدمه مثل التى تعرضت لها كفيلة بأن تجعل أية امرأة أخرى تفقد عقلها أو تعتزل الناس والحياة، ساد الجلسة جو من التوتر الذى تبدو سريعاً بفضل ما أظهرته جميلة من روح المرح والدعابة حتى بات يقيناً فى أذهان كل الحاضرات أن جميلة صارت قادرة على أن تضع هذه القصة المؤسفة وراء ظهرها وتواصل حياها وكان شيئاً لم يحدث.

قالت أمها بعد أن خلا البيت من النساء الزائرات:

- لم يحن الوقت بعد لعودتك إلى المدرسة، هذا هو رأى والدك أيضاً.

أدركت جميلة أن فى الأمر شيئاً مبيناً، وأنها لو وافقت الآن فسوف لن تعود إلى المدرسة أبداً، ستذهب غداً إلى المدرسة شاء والدها أم أبى، ولكنها تساءلت عن السبب فقالت أمها بلهجة ودودة:

- ليس لأن باستطاعة كائن من كان أن يسئ إلى مشاعر ابنتها، ولكن عندما تصبح البنت فى سنك موضعاً لحديث الناس فإن أسلم شيء لها هو الزواج.
- ها قد بدأ الأمر يتكشف الآن.
- هل هذا هو رأيك أنت؟
- نعم
- ورأى أبى؟
- نعم.

عرفت ما يدور فى رأس ابنتها فقالت قبل أن تبادرها بالسؤال:

- وهو أيضاً رأى المتصرف، لقد كان كريماً وجاء يريد الإسراع بإعلان الخطبة قطعاً لألسنة السوء.

إذن فقد جاء المتصرف، انتهز محاولة الاغتصاب التى تعرضت لها وجاء يوقظها لمشروعه، مؤكداً حرصه وغيرته على شرف العائلة ومبدياً بشهامة وفروسية استعداده للإسراع بالزواج قطعاً لألسنة السوء التى تولغ الآن بشراهة فى سيرتها، لاشك أن أمها أرادت أن تدخل السرور على قلبها لأنه حتى بعد هذه الفضيحة، ووقوعها عارية أمام رجال القرية، ما زال هناك رجل كبير المقام يريد أن يتزوجها.

لم تجد فى نفسها رغبة لأن تدخل الآن معركة مع أمها التى مضت تقول كلاماً كثيراً عن أهمية أن تتزوج الفتاة رجلاً فى مكانه المتصرف، يوفر لها الحماية والآمان، لم تكن أمها قد تحدثت عن المتصرف بهذا الحماس من قبل، أدركت جميلة أن الحادث أفزعها فصارت تخاف عليها من أن تبقى

بائرة لا أحد يجرؤ على الزواج منها فى المستقبل الأيام، كتمت جميلة غيظها ولم تقل شيئاً.

- أنا ذاهبة.

في صباح اليوم التالى ارتدت ملابس الخروج ووضعت فوق رأسها المنديل وأخذت الكتب والكراسات وقالت لأمها باقتضاب:

- أنا ذاهبة.

وقفت الأم تحول بينها وبين الباب تمنعها من الخروج كان عامر اليتيم قد غادر البيت مبكراً وترك لزوجته أن تتدبر الأمر مع ابنتها، أصرت جميلة على الذهاب، لم تجد قدرة على منعها أو إقناعها بالعدول عن فكرتها، أفسحت لها الطريق وارتدت لحاها لكى تصحبها،لكن جميلة سألتها أن تبقى فى بيتها لأنها ستذهب منذ اليوم إلى المدرسة بمفردها، سألتها بلهجة حازمة قوية أحست معها الأم بأن ابنتها قد خرجت من هذه المحنة امرأة أخرى لن تستطيع بعد اليوم أن تعارض كلمتها، قالت الأم باستسلام:

- إذن سأصحبك فى طريق العودة.

- لا حاجة بك لذلك، لأننى سأوزر أمى سعيدة بعد المدرسة.

قالتها أيضاً بلهجة لم تترك معها للأم فرصة أن تعارض أو تناقش أو تحتج.

ما أن خطت أولى خطواتها فى الطريق الى المدرسة حتى وجدت أطفالاً لا حصر لهم يتجمعون أمام البيت ويتطلعون بفضول إليها، لم تعرهم انتباهاً ولم تشعر نحوهم بأى غضب، وعندما صاح أحد الأطفال مقلداً الدرويش:

- يا ويلى من جميلة:

أحست برجفة خفيفة ولكنها سرعان ما تلاشت دون أن تبقى أثراً، كأنها سمعت صدى لذكريات حادث قديم أليم مرت أعوام على حدوثه.

كان نسيم الصباح يداعب وجهها ويعبث بأطراف المنديل الذى وضعته فوق رأسها، فتمد يدها لتسوية المنديل

ودس خصلات الشعر التى تمردت على المنديل، وخرجت تضرب وجهها، والشمس التى لم يمض على طلوعها سوى لحظات قصيرة تصنع لها ظلاً طويلاً يمتد أمامها فتسير تتبع ظلها ولا تنظر إليها ثم يواصلون سيرهم، كان مجتمع المدرسة ينتظر امراة منكسرة، مهزومة، يسربلها الإحساس بالخجل والعار ولكنها فأجاتهم بمظهرها المتماسك القوى رأها احد المدرسين وهى تدخل ساحة المدرسة متألقة، باسمه، كان الحادث زادها بهاء ونضجاً فقال يخاطب زميله:

- لعل من يرها من زميلاتها وقد ازدادت بهجة وجمالاً تمنت أن يرزقها الله بدرويش يهجم عليها.

رد الزميل عليها قائلاً:

- إن هذا المظهر الضاحك مجرد قناع لن يدوم طويلاً فوق وجهها، انتظر ساعة أو ساعتين وستراها كيف تنهار.

وعندما راى اليوم الدراسى ينهى دون أن تفقد مظهرها الباسم الوديع أدرك أن الله قد أنزل السكينة على

قلبها وأن لجميلة قدرة نادرة على صهر الآمها والانتصار على محنتها.

أمضت يومها الدراسى تدفع عنها فضول الطالبات برفق ولطف محاولة تجنب عنه ولكن الأرض ابتلعته.

لتبتله الأرض إذا شاءت فلماذا لا ينسون الموضوع تجاهلت جميلة حديثها قائلة:

- أريد أن أستعير كراسة لنقل ما فاتنى من دروسى وواجبات، ماذا يمكن للواحدة منا إن تفعل داخل جدران البيت لولا الواجبات المنزلية

- فتابعت الحاحها

- ولكن ماذا لو ظهر لك الدرويش فى الطريق مرة أخرى؟

- لعل الدور سيكون عليك أنت هذه المرة ، تركتها جميلة دون أن ترد عليها وعادت إلى مقعدها فى الغرفة الفارغة تراجع دروسها ،ظل السؤال يدور فى رأسها ، تخيلت مشهده وهو يعدو كثور هائج يرفع قرنيه فى الهواء

ويجيء كالعاصفة يغرسها فى جسمها ، كيف لعبيط أهبل مثل جمعة الدراويش أن يفعل ذلك ، لقد كان يأتى إلى بيتهم ويطوف بيوت القرية الأخرى فتستقبله النساء فى المطابخ دون أن يقمن له اعتباراً أو يجدن فيه رجولة تخفيفهن أو تقضى الاحتشام أو الاحتجاب فى حضوره كما يفعلن مع الرجال الآخرين ترسله أمها لقضاء الحوائج من الدكاكين فيذهب فرحاً وتقدم له طعاماً داخل المطبخ فيأكله شاكراً كيف يمكن لشخص فى وداعة الحمل وبلاهته أن يتحول إلى هذه الكتلة من الغرائز المتوحشة الهائجة هذه الحزمة من الأحطاب المشتعلة. ولكن ماذا لو ظهر لك الدرويش مرة أخرى لأمر ما لم يفزعها السؤال لقد مات الدرويش بالنسب لها.

قالت أمي سعيدة وهي ترى جميلة تقف على باب بيتها:

- ما أسعدني وأنا أراك تخرجين من هذه المحنة متألقة كالشمس:

كان وقت غداء، قدمت لها طعاماً خبزاً وإداماً، ثم جاء بإناء نحاسي به بضع جمرات، وضعت أعشاباً يابسة في الإناء، وسألتها أن تقترب وتستنشق الأبخرة التي ستحفظها من أعين السوء، ثم بدأت في تلاوة الأدعية، ضاحكة أسلمت جميلة نفسها لرائحة الأبخرة النفاذة، ما جدوى أن تقول لأمي سعيدة الآن إنها لا تؤمن بأن أعين السوء يمكن أن تطفئها الأعشاب والأدعية وأن هناك هواء فاسداً أقوى من عبير هذه الأبخرة يملأ الدنيا، أغمضت ترتشف العبير وتسلم له حواسا وخلاياها، نسيت الهواء الفاسد وجاء خدر لذيذ يسربل جسمها كله ويوقظ في نفسها رغبة لمعانقة الرجل الذي تحب، أحست بالأبخرة تملأ عينها وانفها وحلقها وتصيبها بالإعياء فاتكأت إلى إحدى الوسائد غطست في غيبوبة جميلة تسلمها إلى عالم من الحب والأحلام، والأساطير وتطفو بجسمها في الهواء

أتى صوت أمى سعيدة من خلف الدخان وأبخرة الحلم قائلة كأنها تقرأ أفكارها:

- جاءنى العيد ليلة البارحة.

وتوقفت تنتظر وقع الخبر على أسماع الفتاة، ولكن جميلة لم ترد كان الحذر اللذيذ مازال يسرى فى عروقها فلا تجد رغبة فى الكلام أو التعليق، أطلقت تنهيدة قصيرة ولم تقل شيئاً.

قضى الليل كله يبحث خلف الشعاب عن الدرويش.

كانت جميلة قد تمددت الآن بكامل جسمها فوق المندار، ساكنة مغمضة العينين كأنها نائمة، إنها الآن فقط وفى حضرة هذه المرأة يعبق بالمحبة والأمومة ورائحة الأعشاب المحترقة تستطيع أن ترتاح وأن تحس بالأمان فترفع الأغطية عن الأبخرة التى تملأ قلبها، كان اسم الدرويش الذى جاءت على ذكرة أمى سعيدة قد ملأ حلمها الآن الثيران الهائجة تحاصرها وتنظر إليها بعيون ميتة، هى ليست ثيراناً تحمل الوجوه ملامح المتصرف والدرويش وقد

عجنت ومسخت فى وجه واحد، ثم رأت وجه والدها قد جاء وامتزج بها، واختلطت ملامحه بملامح الاثنين الآخرين، فهل صار هو أيضاً كائنا ممسوخاً فى ذهنها، ولأول مرة تسأل نفسها فهو سؤال يخص علاقتها بوالدها وإذا المسلمات التى تولد مع ميلاد الإنسان، فكيف لا يحب الأب ابنته، ولكنها الآن تستطيع أن تستحضر صور تلك المجتمعات البشرية القديمة التى كان فيها الأب يدفن ابنته وهى على قيد الحياة فهل كان ذلك الأب الجاهلى يحب ابنته؟ لعل تلك الفتاة الموءودة لم تسال نفسها سؤالاً كهذا وأخذت الأمر باعتباره إحدى المسلمات التى لا يجوز مناقشتها، إذا كان حقاً يحبها فكيف لا تهمه سعادتها كيف على أقدام رجل لا تريده ولا تحبه كأنها قربان يقدمه رجل وثنى لثور بعيون ميتة، جعل منه والدها إلهاً لأنه يرتدى الطربوش ويملك منصباً حكوميا، رأت الثيران تزحف نحوها تريد بها شرا ، فلم تجد اسما تستنجد به غير العيد، حركت باسمه شفتيها فجاء صوت أمى سعيدة يسألها إذا كانت تريد أن تقول له شيئاً، سمعت نفسها تقول وكأن كلماتها تصدر عن امرأة أخرى، كأنها تتحدث بلسان غير لسانها، سمعت نفسها تقول:

- أريد أن ألتقى به.

لم تفكر فيما قالته، حتى لو فكرت الآن وأدركت خطورته فإنها لن تستطيع أن تسترجع الكلمات التى قالتها، لقد خرج الأمر الذى كان رغبة دفينة عن إرادتها الآن، إنها بصدق تريد أن تراه ولديها شئ تريد أن تقوله له، فلماذا تتنكر لمشاعره وتطبق قلبها على رغبة بسيطة هى من صميم حقوقها، تعرف أن عالم النفاق والقيم الكابة التى عاش عليها الناس وتألفوا معها، لا يقر هذه الرغبة، لكن أمى سعيدة سوف لن تسئ فهمها ولن تمتنع عن تحقيق هذا اللقاء، لم تقل المرأة العجوز شيئاً ظلت تتأمل الفتاة التى عرفتها فهى لا تستطيع أن تعبر عنه أو تعبر عنه أو تطالب علانية به، ها هى اليوم تعرف بوضوح ما تريد، وما تريده الآن يخرج عن المألوف ويقفز فوق تقاليد القرية وأعرافها، فكيف تضرب الفتاة موعداً لرجل وتطلب أن تلقاه، إن هذا لا يحدث حتى بين الخطيب وخطيبته، إلا إذا كانت جميلة لا تعنى ما قالته أو قالته وهى غائبة عن وعيها ولم تتنبه لخطورة أن تقابل الفتاة رجلاً لا تربطها به أمام المجتمع أية رابطة، وفى وقت أعطى فيه والدها كلمته لرجل آخر كى تكون زوجته،

ولكن ألا يكون هذا السبب وحده كافياً لأن تسعى جميلة للقاء العيد، حتى لو كان هذا اللقاء مخالفاً للتقاليد، أليس زواجها من المتصرف ظلماً وعسفاً ومخالفة لما يرتضيه الله من حق وعدل، فكيف تستطيع أن تؤمن لها لقاء بالعيد لا ترصده العيون، إن فى الأمر إخطاراً لا قدرة لجميلة على تحملها، قالت تحذرها:

- ما أغناك عن كلام الناس يا ابنتى.

فى تثاقل نهضت جميلة من مضجعا وقفت على باب الغرفة تهم بالذهاب، سألت أمى سعيدة فى لهجة باردة.

- متى اللقاء.
- قالت أمى سعيدة باقتضاب.
- سأتدبر الأمر.

(١٨)

صار المتصرف يأتى كل يوم إلى بيت عامر اليتيم.

ما أن يأتى المساء حتى يجئ مصحوباً بالمدرس الذى عهد إليه بمهمة محو أمية اليتيم استعداداً لموسم الانتخابات.

استسلم عامر اليتيم لنشوة المجد القادم مع الانتخابات الفكرة التى كان يرفض تصديقها، صارت تتحول فى عقله إلى طموح مشروع من حق أى إنسان أن يسعى إليه، إن الأمر كما أخبره المتصرف لن يقتضى منه سوى أن يجلس فى قاعة كبيرة مع الجالسين ويرفع يده موافقاً عندما يرفع الآخرون أيديهم،هذا كل ما يحتاجه عمل النائب من جهد، ليضحك المتنطعون أمام المقهى والسادرون فى ثرثراتهم أمام الدكاكين الفارغة ممن لا يحبون له الخير فسوف يصبح ورغماً عن إراتهم ممثلهم فى المجلس الكبير.

كان الناس قد عرفوا بأمر الدروس التى يأخذها اليتيم كل يوم استعدادا لدخول المعركة الانتخابية ،ويأخذون الموضوع على أنه مجرد نكتة ،وأن الرجل ضحية مقلب

دبره له المتصرف ،لان أحدا فى القرية لا يستطيع أن يصدق بأن عامر اليتيم الذى مازال يتمرن على النطق ولا يعرف موقع يده الشمال من يده اليمين يمكن أن يكون نائبا من نواب الشعب ،يضع التشريعات ويصدر القوانين ويناقش الوزراء ويدير مقدرات البلاد ،حتى لو كان مجلسا صوريا يزيف إرادة الناس ويمتثل لتعليمات الحكومة ،فانه يحتاج الى رجال يملكون دهاء وخبرة وقدرة على تصوير الباطل حقا والحق باطلا وتضليل العقول وإقناع الناس بأنهم يعملون لصالح الشعب كما يفعل الحاج عبد الجليل .

وكان المتصرف قد أعاد فى أحد مجالسه سوء الفهم الذى وقع فيه اليتيم عندما جاء ذكر الحضانة البرلمانية فظنها فرساً، تلقف شباب المقهى ومعلمو المدرسة هذه الحادثة وصاروا يتندرون بها ويضحكون من جهل اليتيم وسذاجته.

- لعله سيبدأ التدريب على ركوب الخيل استعداداً لامتطاء الفرس البرلمانية.

- كيف لا يرى نفسه مؤهلاً لدخول الانتخابات وهو يعرف أن الحصانة تريد حصاناً.

- أقول الحق إن حكومة مثل حكومتنا لا تستحق إلا نواباً مثله.

- لو حدث هذا فسأهجر التعليم وأتفرغ للصلاة والعبادة لأن فى الأمر علامة من علامات قيام الساعة.

وما أن عرف اليتم كيف يرسم اسمه حتى مضى مزهوا بين الناس يبحث عن أية فرصة أو أية ورقة يستعملها لاستعراض اكتشافه الجديد، صارت سجلات مستودع السيارات تمتلئ باسمه الذى يكتبه بمناسبة وبلا مناسبة، وكلما مر على دكان وقف عنده واشترى شيئاً وسأل صاحب الدكان أن يأتيه بالدفتر ليقيده ديناً عليه ليس لأنه لا يملك نقوداً فى تلك اللحظة، وإنما لأنه يريد أن يثبت للناس أنه صار قادراً على كتابة اسمه، وأنه أصبح الآن مؤهلاً لأن يحتل موقعه المناسب الجدير برجل عرف سراً عظيماً كهذا السر.

شئ واحد يفسد على اليتيم نشوته ويتذكره فيحس بالقلق كأن يجد تفسيراً لعنادها، ولا يرى معنى لهذا الرفض العنيد، إنه لا يجد تفسيراً لعنادها، ولا يرى معنى لهذا الرفض الغريب لرجل يحمل وعد الحياة الكريمة الرخية لها

ولأسرتها، مضى يتودد إليها ويتسامح فى ذهابها إلى المدرسة بمفردها وزياراتها لبيت أمى سعيدة ويحادثها بلطف وكياسة لعله يستطيع بهذا الأسلوب ترطيب خاطرها فترضى بما اختاره الله لها وتغنيه مشقة إرغامها مكرهة على الزواج من المتصرف.

انتهز فرصة الهداية التى جاء بها المتصرف، الحذاء والفستان والخاتم وحملها فى صندوق من الورق مربوطاً بأشرطة ملونة إلى داخل البيت، يسأل الأم أن تأتى بابنتها لترى الهدية، كان المعلم قد فرغ من إعطائه الدرس وغادر المربوعة، فى حين بقى المتصرف ينتظر أن يعرف أثر الهدية على أهل البيت بالغت الأم فى إبداء الحماس وقالت مبتهجة تخاطب ابنتها:

- أغمضى عينيك حتى يفتح والدك الصندوق ثم انظرى ما جاء به هذا الرجل المبارك من هدايا.

- قالت جميلة وقد استفزها حماس أمها وابتهاجها:

- لا أريد أن أرى هداياه.

أرادت أن تغادر الغرفة ولكن أمها أمسكت بيدها فجلست تراقب طقوس فتح الهدية ورفع الأشرطة عنها، أخذت أمها الفستان تشيد بلونه ونوع قماشه وأسلوب تطريزه وتسأل ابنتها أن تقف لكى تقيس طوله بطولها، ولكن جميلة لا تقف والأم لا تستسلم، أخرجت الحذاء تقلبه فى ضوء المصباح بجماله وأناقته وكعبه العالى، رأته لا يخلف أثراً فى ابنتها إلا الاشمئزاز والكراهية، ولكن لا يهم، فهى تعرف بحس المرأة ما للذهب من سحر على قلوب النساء، فتحت العلبة الصغيرة التى تضم الخاتم، رأته نائماً فوق القطيفة الخضراء، فمدت ببطء أصابعها إليه كأنها تلمس شيئاً مقدساً قابله لمسقط الضوء فبدأ مشعاً متوهجاً، أخذت يد ابنتها لتضع الخاتم فى إصبعها وهى صامته كأن خاتماً كهذا لا يحتاج لتعزيز مكانته بعبارات الإعجاب كلها لا يمكن أن ترتقع لوصف هذا الشيء الذهبى الذى يبهر بجماله وتوهجه الأبصار، ولكن جميلة بنفور وعصبية أبعدت يدها عن الخاتم وكأنه عقربة أو أفعى نظرت إليها الأم باندهاش كأنها لا تصدق أن فى الدنيا امرأة ترفض حلية كهذه، قالت جميلة بصوت أرادته أن يصل إلى إسماع المتصرف:

- لا أريد هداياه، ولا أطيق لمسها.

قالت الأم:

- لقد جاء بها إليك، فاسترينا مع الرجل يسترك الله من سيرتديها إذا لم ترتدها أنت؟
- لماذا لا يرتديها هو؟

قالتها بلهجة عارية من الخجل أغضبت والدها، لم تقاوم رغبتها فى الابتسام وهى ترى المتصرف وقد ارتدى الخاتم والفستان والحذاء النسائى ومن فوقهم الطربوش، لم يشأ والدها أن يصفعها أو يشتمها تأديباً لها لكى لا يثير مشكلة فى حضور المتصرف، وضع ابتسامة فوق وجهه وعاد إليه.

- أرجو أن تكون الهدية قد أعجبتهم.

قالها المتصرف متظاهراً بأنه لم يسمع الكلمات الجارحة التى قالتها جميلة، أحنى اليتيم رأسه استكانة كأنه يعتذر عن سلوك ابنته قائلاً:

- إنك دائماً تغمرنا بهذا الكرم الذى لا حد له، نسأل الله أن يقدرنا على رده لك.

- تعرف أننى لا أبغى شيئاً إلا رضاء الله ورضاءكم.

ما جاء بهذه الهدية اليوم إلا لتكون مناسبة للاتفاق على إعلان الخطبة، لقد ماطله اليتيم طويلاً، وهو يكره هذه المماطلة، لابد من حسم الموضوع الآن، فهو أيضاً لديه أشياؤه الأخرى التى أهملها جرياً وراء هذه الزيجة التى أنفق فى سبيلها وقتاً ومالاً وكأنه سيتزوج ابنة الملك، إنه يعرف أن جميلة ترفض فكرة الزواج منه ولكنه يعرف أيضاً أن النساء يتمنعن وهن الراغبات، ولذلك فقد قال دون أن يحس بالحرج مما سمعه من كلمات قالتها جميلة:

- أرى أنه قد حان الوقت لإعلان الخطبة.

لقد وجد اليتيم فى الامتحانات القادمة حجة يسوقها لتأخير الخطبة ولكن الانتخابات أيضاً على الأبواب، لن ينتهى الصيف إلا والحملة الانتخابية على أشدها، وهو يريد أن يضمن نصيبه من الصفقة أولاً، يريد أن يأخذ بيد ويعطى

باليد الأخرى، لا يرضى أن يحمل عامر اليتيم على كتفيه، يصعد به سلم المناصب العليا ويركبه الفرس البرلمانية قبل أن يركب هو أيضاً فرسه.

- يجب أن ننتهى من أمر هذا الزواج لكى نتفرغ بكل جهدنا للإعداد للحملة الانتخابية.

هكذا بلا مداراة ولا تغليف، فهذه أمور لا يجب أن يتركها مبهمة غامضة، لا وصول إلى مركز النائب قبل وصوله إلى جميلة، بصراحة يقولها، بل وقبل مباشرة الحملة الانتخابية وتسجل أسماء المرشحين، لكى لا يبقى أى مجال للشك أو الالتباس فى ذهن عامر اليتيم، ولكن اليتيم يريد وقتاً، يريد أن يمنح ابنته بضعة أسابيع تتعايش فيها مع فكرة الزواج، حتى إذا لم تقتنع بعد ذلك فسيكون من حقه عندئذ أن يرغمها كما يفعل أى أب مع ابنته، لقد خرجت لتوها من تجربة قاسية وليس من العدل أن يرمى بها إلى تجربة أخرى قبل أن تهدأ نفسها، فلماذا لا يعطيها وقتاً، اهتدى اليتيم إلى فكرة جديدة مضى يقولها بحماس للمتصرف الذى أبدى استعداداً طيباً لقبولها، وهى أنهم ليسوا بحاجة إلى خطبة يعقبها

بعد مدة طويلة حفل الزفاف، فما إن تنتهى الامتحانات حتى تعلن الخطبة ويتبعها مباشرة الزفاف وكتب الكتاب، وأن يتم ذلك كله قبل موسم الانتخابات بوقت كاف يسمح بالإعداد والتخطيط للحملة الدعائية.

(١٩)

مبهوراً بجمالها وباللحظة، جلس العيد صامتاً يتأمل السناء القادم من وجهها وخصلات الشعر التى تهدلت فوق عينيها وخديها فلم تهتم جميلة بإعادتها إلى مكانها تحت المنديل السماوى الذى تغطى به شعرها، ولم يقل شيئاً، لقد جلس طويلاً فى هذه الغرفة ينتظر قدومها ويعد فى ذهنه الكلمات التى سيقولها لها ولكنه ما أن يهم بقولها حتى يحس بأنها عاجزة عن التعبير عن فورة المشاعر التى تغمره، بدا له أن أى كلام سيكون إهداراً لهذه اللحظة المبهرة الرائعة التى يرى فيها جميلة قريبةً منه محاط وجهها بغلالة الضوء القادم من نافذة الغرفة ممزوجاً بأبخرة الأعشاب المحترقة كالحلم الذى أصبح وجهاً. تحولت الغرفة إلى سحابة من الأبخرة والعبير تصفو بهما إلى عالم خلا من المعتوهين والدراويش وأصحاب الدكاكين الفارغة ولاعبى الورق

والأبراج السوداء والقيم الممسوخة الكاذبة، عالم أكثر بهجة وبهاء، صار فيه البشر ملائكة واستعاد فيه الإنسان فردوسه المفقود.

لقد جاء منتشياً منذ الفجر إلى بيت أمى سعيدة ينتظر قدوم جميلة، سألته المرأة العجوز أن يأتى مبكراً ولا يخرج إلا بعد حلول الظلام فلا يرى أحد دخوله أو خروجه، وبذلك فإن جميلة عندما تأتى مع الظهر لزيارتها، لن يعلم أحد بأن العيد موجود لديها، خططت لهذا اللقاء وكأنها تدير خلية سرية لقلب نظام الحكم، انتهت كلمات الترحيب الأولى وجلس منتشياً بالنظر إلى عينيها، مزهواً لأنها ضربت له موعداً وسألته أن يأتى للقائها وتحمل أن تخاطر من أجله بسمعتها، ولم يجد معنى لكل ذلك إلا أنها تحبه بمثل ما يحبها، وأنه لا يريد شيئاً من الدنيا إلا أن تصبح هذه اللحظة عمراً، ولكن أمى سعيدة التى تركتهما يختليان ببعضهما للحظات قصيرة سرعان ما جاءت تبدد بكلماتها الصمت وهى تحتج لأن الشاى الذى وضعته أمامهما قد تحول إلى شراب بارد، وأضافت ضاحكة:

- ولكنكما ستشربانه شئتما أم أبيتما.

ناولتهما الشاى المصنوع من رحيق الأعشــاب، قــال العيد متجاوزاً حديث المحنة التى تعرضت لها جميلة لكى لا يفسد باستحضار ذكرياتها الأليمة جمال هذه اللحظة:

- لقد قدمت طلباً بنقلى إلى القريــة كمــا أراد عمــى اليتيم.

قالت أمى سعيدة:

- ولكن اليتيم لم يعدك بشىء.

- إنه لم يرفض.

وبلهجة قاسية كأنما أرادت أن تستثير بهــا مشــاعره، قالت جميلة:

- لقد أصبحت موعودة للذبح علــى شــرف الســيد المتصرف.

- ولكن ذلك مستحيل.

قالها العيد مذعوراً وقد صعقته المفاجأة وجعلت وجهه يحتقن بالدماء السوداء، وبأسلوبها العملى قالت أمى سعيدة:

- لقد نال موافقة اليتيم، وسيتم إعلان الخطبة ومراسم الزواج فور انتهاء العام الدراسى.

لم تكن جميلة تعلم أنه قد تم تحديد موعــد الزفــاف، نظرت إلى العيد فرأته مازال مذهولاً غارقاً فــى الغضــب والحيرة

- إننى لا أصدق ما أسمع.

قالت أمى سعيدة وقد رأت أنه آن الأوان لأن تتركهما يتدبران أمرهما:

- سأصعد إلى السطوح أطعم الدجاج، فلا تفتحا الباب لأحد ولا تردا عليه.

انتظرت جميلة حتى رأت أمى سعيدة تغادر الغرفة ثم أحنت رأسها نحوه وقالت بصوت هامس:

- لقد فكرت فى الأمر، إن أهلى يعلمون برفضى لهذا الزواج، ولكنهم إذا أصروا فليس أمامنا سوى حل واحد.

انتظر بلهفة أن يسمع هذا الحل، صمتت قلــيلاً وهــى ترى العيد يعلق عينيه وأنفاسه بانتظار الكلمات التى ستقولها:

- ومن أجل هذا أردت أن ألتقى بك.

لم يقل شيئاً فواصلت الحديث:

- لن يبقى أمامنا عندئذٍ سوى الهروب.

ظل العيد ينظر إليها مبهوتاً كأنه لم يستوعب ما قالته، جاءت كلمة الهروب تركض نحوه كموجة تحمل قارباً فـــى زمن الغرق والفيضانات، الهروب، أخذ يدوِّر الكلمـــة فـــى رأسه ويتأمل المرأة التى قالتها يبحث فى وجهها عن شـــىء غفل عن رؤيته من قبل، لقد رأى جمالها وتعرف إلى سحره ولكنه لمن ينتبه إلى هذه القوة التى تبدت فـــى شخصـــيتها، لاحظ لأول مرة ذلك الألق الذى تشع به عينيهـــا، اكتســـت شخصيتها بدفقة القوة والشجاعة مزيداً من المهابة والجمـــال، أمنْ أجله هو تفعل جميلة كل ذلك، وتبدى استعدادها للهروب معه وتتخطى كل هذه الأسوار والجدران وأكـــداس الطـــين والشوك التى أقاموها حول قلب الإنســـان وعينيـــه وأذنيـــه وقدميه لكى لا يحب إلا ما يسمحون بحبه، ولا يرى إلا مـــا يسمحون برؤيته، ولا يسمع إلا ما يريدونـــه أن يســـمع ولا يمشى إلا فى الطريق الذى حددوه له، إن هناك فـــى القريـــة قصصاً تروى عن نساء هربن مع رجـــال أحببـــنهم، إنهـــا حكايات أشبه بالأساطير، ولكن أن يحدث هذا أمام عينيه وأن يكون الهروب من أجله، وأن تكون المرأة التى تطالب به هى جميلة من دون كل النساء، فكيف سيجد الكلمات التى يعبـــر

بها عن فيض المشاعر وهيجانها. رأته مملوءاً بالدهشة لا يعلق بشيء فقالت تستحثه على الكلام:

- ولهذا فأنا أريد أن أعرف رأيك.

- إنها تضحية كبيرة تقومين بها، فهل أستحق أنا كل هذا؟

نظرت إليه باسمةً ولم تقل شيئاً.

حركت ابتسامتها في ذهنه عالماً أسطورياً رأى فيه نفسه يركب جواداً ويمتشق حساماً ويذهب إلى غريمه المتصرف يدعوه إلى النزال وما أن يخرج إليه حتى يبادره بضربة من سيفه تتركه مشطوراً إلى نصفين، ويعود إلى جميلة يأخذها معه فوق جواده، وينطلق راكضاً في الصحراء. ليته حقاً يجد وسيلة لإزاحته من الطريق بتهديده أو بتحريك أهل القرية ضده، أراد أن يفكر بصوت عال باحثاً عن وسيلة يواجهه بها، ولكن جميلة قاطعته قبل أن يصل بالفكرة إلى نهايتها قائلة:

- لا تفكر بشيء كهذا، إنه لن يعدم وسيلة يلفق بها تهمة ترميك في السجن ويضيع كل شيء.

قال وقد اتجه بتفكيره نحو عامر اليتيم لعله يجد طريقاً إلى قلبه، ويجنب امرأة فى رقة هذه المرأة وعذوبة ملامحها أهوال مخاطرة كهذه:

- ما أشد ما تغير عمى اليتيم.

وعندما لم تقل ابنته شيئاً، أضاف:

- ومع ذلك فسأرسل إليه والدتى طالبة يـدك بصـفة رسمية.

- لا فائدة ترجى من ذلك.

ولكنه لابد أن يستنفد كل الوسائل الأخرى لكى يبقـى الهروب حلاً أخيراً لا سبيل سواه.

وسريعاً انتهى اللقاء ووقفت أمى سعيدة تودع جميلـة وترطب خاطرها ببعض الكلمات التى أنهتها قائلة:

- لن يكون إلا خيراً بإذن اللّه.

بإذن اللّه، بإذن اللّه، تردد الصدى يملأ رأسـه، جـاء الظلام وعاد إلى بيته، ولكن الأمر صار تقليداً أشبه بطقوس وثنية حافظ عليها الناس منذ عصور ما قبل الفتوحات، وهو ألا تتزوج المرأة فى »قرن الغزال« من الرجل الذى تحـب، وألا يتزوج الرجل من المرأة التى يحـب، قـانون يمضـى

بعكس ما تريده الطبيعة وما تحتمه شرائع ونواميس الحياة، لم يكتبه أحد، ولا يقول به علانية أحد، ولكنه نافذ نفاذ الطقوس والفرائض الدينية، اتفقوا جميعاً عليه وامتثلوا لأوامره ونواهيه وزيفوا مشاعرهم وعواطفهم من أجل المحافظة على تنفيذه جيلاً بعد جيل، ما أن تحمل الريح همسة تقول بأن رجلاً أحب امرأة وأراد أن يتزوجها حتى يسارعوا بتزويجها من رجل آخر، كأن فى الأمر إثماً يجلب لهم المصائب والأهوال ويثير غضب آلهة لا يقوى البشر الفانون على مخالفة أوامرها. ويائساً أرسل أمه مع بعض أقاربه إلى بيت اليتيم خاطبة، عادت الأم من رحلتها خائبة فلم تفاجئه النتيجة، قالت والغضب مازال يغطى ملامحها:

- إنها القطيعة بيننا وبين هذا اليتيم إلى الأبد.

صريحة قالها لهم اليتيم بأن على العيد أن يبحث عن نصيبه فى مكان غير هذا المكان لأن ابنته قد تم الاتفاق على زواجها من رجل آخر وانتهى الأمر.

- لكننى لم أسكت له.

عرف العيد كيف أن أمه وقفت لليتيم فى وسط بيته تصب عليه الشتائم واللعنات وتتهمه بأنه يبيع ابنته بيعاً لرجل

متزوج وله أبناء وبنات فى عمر ابنته لا أحد يعرف من أين جاء ولا نسب له ولا أهل وليس ذلك غريباً لأن اليتيم نفسه بذرة رجل تجند مع الطليان وذهب ليموت في حروبهم لا أحد يعرف له أصلاً ولا أهلاً.

كان الخبر قد وصل إلى أسماع بعض أهل القرية ممن يعرفون العيد فرآهم يستوقفونه فى الطريق يستنكرون ما حدث ويسألونه فى فضول عن تفاصيل القصة، لم يظهر لأحد منهم غضبه ولم يطل الحديث معهم وإنما اكتفى بالقول إن الزواج قسمة ونصيب. ترك الشوارع والدكاكين وذهب إلى حيث يمكنه أن يختلى بأفكاره، وما أن وصل إلى مرتفع يطل على غابة النخيل حتى تناهى إليه صوت الدرويش يأتى من قبل الغابة:

- يا ويلى من جميلة.

عاد هابطاً وانطلق يعدو وسط غياط النخيل باحثاً عنه، لم يستطع أن يحدد المصدر الذى يأتى منه الصوت، فهو يبدو أحياناً قريباً وفى لحظات أخرى يبتعد ويتلاشى كأنه يأتى من خارج الغابة، تحمله الريح من الشرق فيتجه شرقاً.

يجد أنه ترك الصوت خلفه فيعود للعدو في الاتجاه المعاكس.

- يا ويلي من جميلة.

كان جمعة الدرويش يقولها برعب وخوف، يمد في حروفها حتى تصبح عويلاً كعويل النساء النائحات، كأنه يواجه الآن هلاكاً محققاً، أو كأن جميلة هي التي تحولت اليوم إلى قطيع من النمور ترد عليه الهجوم، رأى في لحظة من اللحظات أنه اقترب من مصدر الصوت فأسرع في العدو نحوه حتى بدا له أن بإمكانه أن يمد يده خلف النخلة التي بجواره ليمسك به، ثم فجأة اختفى النداء ولم يجد للدرويش أثراً، فتش خلف الأشجار، رفع رأسه يتطلع إلى جريدها علّه تسلق نخلة واختفى بين سعفها وكرنافها وعراجين البلح التي لم تنضج بعد، ولكنه لم ير سوى حدأة تحوم ببطء فوق رؤوس النخيل، انتظر أن يسمع نداء الدرويش مرةً أخرى وعندما لم يسمع شيئاً نفض يده من الأمر وانكفأ عائداً إلى مكانه، وما أن سار قليلاً حتى لاح الدرويش يتوسد حجراً ويتمدد في ظل نخلة قصيرة يلامس جريدها الأرض، هجم عليه يأخذ بأطراف ثوبه ولكنه اكتشف عندما رأى وجهه أن

الرجل ليس الدرويش وإنما عمران عامل الفرن يرتدى أسمالاً كأسمال الدرويش، تغطيه الأتربة كأنه نام تحت الريح عاماً كاملاً، اعتذر للرجل بلهجة حارة وسأله بعد أن شرح له الأمر إن كان قد سمع مثله صياح الدرويش، فاجأه عمران بقوله إنه أمضى وقتاً فى ظل هذه النخلة لم يسمع خلالها إلا صوت النخيل الذى يعارك الريح يقطعه بين الحين والآخر صوت حدأة تأتى وتحوم فوق رأسه.

- لعلك كنت نائماً.

لم يكن عمران نائماً، كان يراقب الظل وينتظر مغيب الشمس لكى يعاود الحفر مرةً أخرى، هل كان الصوت مجرد وهم، هل صار مجنوناً يتخيل الأشياء ويسمع الأصوات التى يظنها حقيقة فيجرى يطاردها بين الأشجار، هل هو ترجيع الصدى لتلك الأفكار التى تملأ رأسه عندما جاء إلى هذا المكان وقد أحالها صوت الحدأة إلى درويش يصيح باسم جميلة، إنه على يقين من أن الدرويش جاء يزرع صوته فى الغابة هذا المساء وما عمران إلا رجل أهبل ملأ عقله بوهم الكنز وأقفله عن كل شىء آخر عداه، فلماذا يأخذ كلامه مأخذاً جاداً، إن الحديث مع عمران لا يكون إلا هزلاً وإلا

اختلطت الأشياء وضاعت الحدود بين الجد واللعب، مضى يتأمله وهو يتكئ بجواره تمثالاً للعناء والعبث، جاءت سيرة الدرويش وجميلة تحرك فضول عمران وتدفعه لسؤال العيد عن صحة ما يشاع من اعتزامه الزواج بجميلة، فرد العيد ساخراً:

– ظننتك لاهياً عن أخبار الدنيا، ولكن لاتنسَ نصيبي من الكنز عندما تلقاه، لقد أصاب الغلاء كل شيء ولم يعد المرتّب كافياً للإيفاء بالتزامات العرس والزواج.

ما أن يجد عمران فسحة من الوقت حتى يترك الفرن ويأتي إلى أطلال القصر الروماني بأطراف غابة النخيل يحفر الكنز الذي ورد ذكره في أغنية شعبية تتحدث عن القصر، كانت أمه قبل أن تموت ترغمه ارغاماً على الحفر، فلقد جاءها هاتف في المنام، وأخبرها بأن الكنز سيكون من نصيب ابنها عمران، ماتت الأم وتحول الهوس إلى ابنها الذي حافظ على عمله بالفرن ولكنه ترك كل شيء آخر، هجر الجلوس في المقهى والذهاب إلى المناسبات والأعراس، كما هجر الصلاة ولقاء الناس وصرف كل ما تبقى من وقته للبحث عن الكنز، لم يبق موقع حول تلك الأطلال إلاّ وحفره،

وعندما يقولون له إن اللّه لن يمنح الكنز لرجل هجر الصلاة، يجيبهم بأنه قطع على ربه عهداً بأنه سيبنى من أموال الكنز مسجداً يعوض بأجره وثوابه كل ما فاته من صلاة، ويسألونه أحياناً ناصحين بأن يتخلى عن هذا الوهم فيضحك فى وجوههم ضحك من يعلم علم اليقين بأنه سيخطر بينهم ذات يوم قريب وقد تحول إلى ابن من أبناء الملوك، فقره صار غنى، وأسماله تحولت إلى عباءة مطرزة بالحرير، وخرابة الطين التى يسكنها أصبحت قصراً مليئاً بالخدم والنساء:

قال معلقاً على كلام العيد:

- لم أكن أعلم أن البحث عن الكنز سيأخذ كل هذه السنين وإلا ما كنت قد تركت الصلاة.

- وماذا ستفعل بالكنز عندما تلقاه.

قال مازحاً وهو يقوم من مرقده:

- أول ما سأفعله هو أن أتزوج جميلة وأتركك تموت غيظاً وحسرة.

- حتى أنت؟

أخذ فأسه ومضى فالشمس أوشكت على الغروب وهو لابد أن يحفر عند المكان الذى ينتهى إليه ظل الحائط فتلك هى حدود المنطقة التى تضم الكنز كما تقول الأغنية.

بقى العيد وحيداً يراقب مشهد الغروب ويتمنى لو أن جميلة بجواره الآن تبدد الإحساس بالوحشة التى تتركها فى نفسه الشمس الغاربة، أراد استدعاء صورتها ولكنها ترفض أن تأتى، إن مجيئها مشروط بتوافر ذلك الصفاء الذهنى الذى يغيب عنه الآن. اشتعل الأفق بمهرجان الألوان، والشمس دائرة حمراء تحفها مواكب السحب الموشاة أطرافها بالذهب والفضة كأنها صبايا العرس يرتدين أجمل الثياب ويأخذن الشمس إلى مضجعها، عادت نداءات الدرويش تملأ رأسه، ها هو قد جعل اليتيم عدواً له بعد أن أرسل أمه إلى بيته تشتمه وتنشب معركة معه، وانتزاع جميلة من بيتها والهروب بها ليلاً صار الآن اختياراً وحيداً لا يملك حلاً غيره، سيهربان كما هرب كثيرون غيرهما، وسيجدان فى مكان ما محكمة ترضى بعقد قرانهما، سوف يجن المتصرف ويرسل كل ما فى حوزته من شرطة للبحث عنهما، وقد يعمم البلاغات الكاذبة على مراكز الشرطة مدعياً بأنه اختطف

خطيبته اختطافاً وأنه مجرم يجب قتله، ليذهب إلى الجحيم هو وشرطته، سيبحث عن مغارة فى أحد الجبال ويقيم معها هناك إلى الأبد، أطبق الظلام على الدنيا وحطت قطعة منـــه فـــى قلبه، وجد نفسه يضيق بفكرة العودة المبكرة إلى البيت فاتجه إلى المقهى، تحلقوا حوله، شعبان وعاشور وسلطان وعـــدد آخر من شباب القرية، يعلقون على ما حدث عندما ذهبت أمه إلى بيت اليتيم ظهر اليوم.

- لقد هجمت عليه كالنمرة تريد أن تقتله.

- كيف يسمح اليتيم لنفسه بأن يفضل عليك رجلاً من خارج القرية متزوجاً وأكبر منه سناً.

- لقد انتظرت قريتنا مئات الأعوام حتى تنجب صبية فى ملاحتها، أليس عاراً بعد ذلك أن يأتى هذا الرجل الغريب ويخطفها رغماً عن إرادتنا؟

- إن المتصرف يهزأ بنا ولا يقيم اعتباراً لمشاعرنا.

- يجب أن نطرده من قريتنـــا إذا كنـــا حقـــاً أبنـــاء المجدوبة.

جاء ذكر المجدوبة فنظر العيد حوله يفتش عما تبقـــى من تلك المرأة التى أرهبت الصحراء، ألّفـــت مـــن أبنائهـــا

عصابة تقودها بنفسها لقطع الطريق وفرض الإتاوات على القوافل التى تعبر الصحراء، وعندما أصبحت غنية ذهبت إلى الحج وعادت تستقر بأبنائها قرب هذه الهضاب، وتترك صيتاً يجعلها مضرب المثل فى البأس والشدة. تلك كانت جدتهم ولكنه زمن ولّى وانقضى والنار التى أشعلتها لم يبق منها إلا هذا الرماد الذى يملأ القلوب والعيون.

انتهت السهرة فقال العيد وقد أحس بدفء العواطف التى أحاطوه بها تبدد شيئاً من سحب الكآبة التى تملأ صدره:

- لا تحملوا هماً، سأعرف كيف أتدبر الأمر.

عاد إلى بيته ونداء الدرويش الذى سمعه فى الغابة مازالت أصداؤه تتردد فى أذنيه:

- يا ويلى من جميلة.

(٠٢)

قبل موعد عودته إلى المدينة التقى العبد بجميلة مرة أخرى

ذهب لانتظارنا فى بيت أمى سعيدة وعندما جاء تصافحه أبقى يده فى يدها وجلس على المندار بجوارها،

أحس بالوهج الذى انتقل إليه من يدها يذيب الهواجس التى ملأت ليلة ونهاره، إنه يخجل الآن من تلك اللحظات التى رأى فيها نفسه واهناً ضعيفاً لا يدرى كيف يواجه الموقف، اكتشف وهو يجلس ملاصقاً لها بأنه صار قوياً قادراً على خوض أكثر المعارك هولاً وتحقيق النصر فيها، وتمنى ألا يكون هذا الإحساس مجرد وهم يتبخر بمجرد أن ينتهى اللقاء معها، ولكنهما الآن معاً، وسيقيان معاً، ولن يستطيع أحداً أن يفرق بينهما، يكفى أن هذا ما يريدانه، بشهوة الحياة وإرادتها يريدانه، بدفق الحب وقوته يريدانه بمثل ما تحقق لهما هذا اللقاء الآن وفى هذه اللحظة وتحت سقف هذه الغرفة ورغماً عن إرادة الآخرين، فإن أحداً لن يمنع هذا اللقاء من أن يستمر ويتواصل، إن حبهما ليس إلا استجابة لنواميس الكون وقوانينه الكبرى، وتلبية لنداء الطبيعة ودورتها المتجددة الخصيبة، فكيف يمكن لهذه النواميس والقوانين أن تخذلهما، كيف يمكن للحياة أن تتحول إلى كرة تعبث بها ريح مجنونة لا تقيم اعتباراً لإرادة الإنسان وأعراس القلب وتسير بحياتهما فى اتجاه يناقض ما أرادته الطبيعة لهما، كان يريد أن يخبرها بقصة الدرويش الذى سمع صوته فى الغابة ويحذرها منه،

وعن المعركة التى نشبت بين أمه ووالدها ويسخر منها، ولكنه عندما رأى مسحة الحزن التى تغطى وجهها، ضغط برفق على يدها قائلاً:

- غدا سوف تصبح كل هذه المشاكل مجرد ذكريات نستحضرها لنضحك منها.

- ليت الحياة تسير وفقاً لما تشتهيه القلوب.

- ليس من العدل أن تسير بما تشتهيه قلوب المتصرفين فقط.

وجد نفسه مرة أخرى يقع فى شرك الحديث عن الأشياء التى تبدد هذا الصفاء، لكنها حقائق الحياة بكل قسوتها وعريها، مجردة من الحلم والأوهام الجميلة، مثل هذا العرق الذى ينز من يده الممسكة بيدها، لا يقتل بهجة التلامس ولكنه يلحق بهما ضيقاً يجعلهما يفكان عناق أيديهما لحظة ثم يعودان للتلامس مرة أخرى،سمعها تقول:

- لا يمر يوم إلا ويحط كسحابة سوداء فى بيتنا، فأحس بالضيق والاختناق ولا أجد شيئاً أفعله سوى أن أشمته

وألعنه بدعوى أننى اشتم القطة التى جاءت تضايقنى وأرفع صوتنى بغية أن تصل إلى لعناتى كى يستحى وينتحى عن طريقه.

- تراودنى كل ليلة أحلام دموية، وأفاجئ نفسى متلبساً بالتفكير فى قتله.

أراد أن ينتهز فرصة وجودهما منفردين ويخبرها بما انتهى إليه تفكيره فى موضوع هروبهما.

- سأذهب غداً إلى المدينة وسأتدبر منذ الآن مكاناً آمناً نلجأ إليه، وما أن تنتهى من الامتحان حتى نكون قد اتفقنا على ساعة اللقاء وتدبر أمر السيارة التى تنقلنا.

نظر إليها يستطلع رأيها، وافق بإشارة خفيفة من رأسها، وجهها يفيض بالسلام والسكينة، كأن هذا الهروب ليس مغامرة تملأ القلب فزعاً، أضاف قليلاً:

- سنضعهم جميعاً أمام الأمر الواقع.

عادت أمى سعيدة تنضم إليهما، لم يكن أحد منهما قد فاتحها بما اعتزما القيام به،كانت جميلة ترجئ إخبارها الى ان يصبح هروبها امرا لا مناص له

ادركت امى سعيدة من سماعها للجملة التى قالها العيد ما ينوبان عمله

إذن فقد عقدتما العزم على الهروب ،كم تمنيت من كل قلبى ألا تصل الأمور الى هذا الحد.

قالت جميلة تدافع عن قرارها .

إنه الاختيار الوحيد الذى تبقى لنا.

نظرت أمى سعيدة بإشفاق إليها، هل ستتحمل أن تعيش منبوذة عن أهلها طوال حياتها، وهل تدرك ما يجلبه الهروب من عار عليها، وعلى أسرتها، إنه شر أهون عليها من الشر الآخر الذى أرادوه لها، ولكنها لا تستطيع أن توافق بسهولة عليه، جاء صوتها يحذر جميلة:

- إنك تحكمين على نفسك بقطع كل علاقة مع أبيك وأمك وأخوتك، قطيعة قد تستمر مدى الحياة.

ولكن جميلة لم تفكر فى هذه القطيعة، كل ما تعرفه أنها ضحية هؤلاء الأهل الذين يريدون تزويجها من رجل تمقت أن ترى ظله لا أن تعيش وتنام فوق راش واحد معه، تمنحه جسمها وتكون جارية له فكيف يكون هروبها ظلماً لهم، حتى لو كان الهروب انتحاراً فإنها تفضل الموت على هذا المصير الذى اختاروه لها.

كانت تريد توضيح ما يعتمل فى نفسها من مشاعر لعل امى سعيدة تفهم دوافعها، ولكن طرقا ًعنيفاً على الباب مصحوباً بالدوشة والصراخ جاء وأنساها الكلام، وقفت وهى ترى العيد وامى سعيدة يقفان مثلها وينظران فى خوف اليها، كان هؤلاء الناس الذين يدقون الباب ما جاءوا إلا بحثاً عنها، ولأول مرة يبدو ذلك الخاطر المرعب الذى لم تفكر فيه من قبل احتمالاً قابلاً للتحقيق، ماذا لو أن المتصرف قد أرسل عيونه يتجسسون عليها، وقد اكتشف الآن أمر لقائها بالعيد فاستنفر أهل القرية يشهدهم على مروقها، الفضيحة والعار

لها ولعيد ولأمى سعيدة التى سيعتبرونها امرأة سوء تجمع الناس فى الحرام، اشتد الصياح واشتد الطرق على الباب مختلطاً بنباح الكلب وأصوات الدجاج الذى أفزعه الصخب.

رأت أمى سعيدة أن أحداً إذا جاء لا يجب أن يراهما يجتمعان فى غرفة واحدة، سألت العيد أن يذهب إلى المطبخ المصنوع من ألواح الصفيح لأنه ليس فى بيتها غرفة أخرى سواه، فى حين رأت أن تبقى جميلة فى مكانها، خرجت وأقفلت باب الغرفة وراءها لا أحد يزورها فى مثل هذه القيلولة، توقع شراً وتظاهر بأنها نائمة فجاءت تفتح الباب وهى تتثاءب كان النوم مازال فى عينيها، وقفت قبل أن تفتح الباب تتنصت لأصوات الطارقين وتفكر فى طريقة تطردهم بها، لم تتبين إلا أصوات الأطفال الذين يصيحون بها أن تفتح الباب، فتحته فرأت عدداً كبيراً من الصبيان ينشئون زحاماً أمام البيت، كان أحد الجيران يحمل لوحاً ويصيح مبتهجاً بأنه صاحب "الختمة" فقد وصل فى دراسته القرآنية فى سورة "الجن"، وجاء يطوف مع بقية التلاميذ يجمعون الهدايا من الجيران ليقدموها للفقيه، استندت أمى سعيدة إلى الحائط تستلقط أنفاسها إثر الفزع الذى ألم بها وتمسح العرق الذى

تصبب من جنبيها ودخل فى عينيها، تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتسأله أن يحمى بيتها من شر الجن والعفاريت، غابت لحظة ثم عادت تحمل لصاحب الختمة بيضاً وتدعو له بالنجاح.

ومسرعة غادرت جميلة البيت.

(٢١)

بأصابع مرتعشة أمسك المتصرف الورقة التى وجدها مرمية عند الصباح تحت باب البيت، وقف مذعوراً يعيد قراءتها وكأنها مكتوبة بحبر الشياطين:

"ارحل عن قريتنا واترك ابنه اليتيم فى حالها، وإلا سننزل بك عقاباً شنيعاً".

بيد لم تتعلم كيف تفك الخط جيداً كتب الرسالة التى لا تحمل توقيعاً سوى عبارة "أبناء المجدوبة" لقد سمع نتفاً من حكايات تتحدث عن امرأة ينسب الناس أنفسهم إليها اسمها "المجدوبة" ولكن من من أبناء هذه الداعرة تجرأ وجاء مع الليل يضع الورقة تحت بابه، لن يكونا لمتصرف إذا لم يجعله

مجدوباً مثل أمه، ويسومه عذاباً يتمنى مه أن تكون الساعة التى تمر به هى آخر ساعة فى حياته.

مهتاجاً وغاضباً طوى الورقة فى جيب سترته وضرب الباب وراءه، ومهتاجاً وغاضباً وصل إلى مكتبه، اقفل الباب بعنف وصاح وشتم يلعن المباشر الذى تأخر بإحضار القهوة، الورقة تحرق صدره، وإحساسه بالكرامة التى جرحت يجعله لا يقوى على الجلوس فى مكتبه، فظل يطوف كحيوان هائج داخل قفصه، يزوم ويضرب كفأ بكف ويصدر أصواتاً لا معنى لها، إنها ليست كرامته التى جرحت وإنما هى كرامة الحكومة، نعم الحكومة، الناس أنفسهم لا يضعون حداً فاصلاً بين شخصه وبين الحكومة، حتى اسمه ضاع ولم يعد أحد يناديه به، وعل احداً لا يذكره لأنه منذ أن صار مديراً ثم متصرفاً صار اسم الوظيفة هو اسمه، وصارت الحكومة هى أهله، وصار لا يرى لنفسه دوراً خارج هذا الدور ولا يعرف للحياة معنى خارج هذا المعنى، وكل ما يقوم به من أعمال إنما هو نابع من هذا اليقين، يقينه الراسخ الثابت إنه والحكومة شئ واحد، وأن ما يضر الحكومة يضره وما يفيد الحكومة يفيده، وإذا كان لا يضيره

أحياناً أن يضع شيئاً من المال العام فى ماله الخاص إذا حانت الفرصة ودون أن يعتبره غشاً أو سرقة، فما ذلك إلا لأن الحدود بين الخاص والعام قد ذابت وتلاشت، كثيرة هى المناسبات التى وجد فيها نفسه ينفق مرتبة ومدخرته الخاصة فى أغراض عامة مثل الولائم التى يقيمها فى بيته لضيوف الحكومة ومندوبيها عندما يزورون القرية، وهو عندما يغش الانتخابات لصالح الحكومة أو يلفق التقارير للإيقاع بأعدائها ومعارضيها ما ذلك غلا لأنه يرى أن الحكومة هى الحق وما عداها باطل، ومن عارضها مارق آثم استحق اللعنة والمطاردة، ويؤمن أن الحكومة لا يخدم أهدافها إلا من كان قوياً قاراً على فرض هيبتها وتنفيذ إرادتها بحزم وشدة، ولذلك فهو يسخر من أولئك الموظفين الذين يأنفون مثلاً من المشاركة فى تزوير الانتخابات أو تحطيم صناديق المرشحين المعارضين للحكومة باسم النزاهة واشرف والوطنية، إن ذلك ليس إلا جنباً وخوفاً وعجزاً عن الارتقاع إلى مستوى المسؤوليات الجسام التى يتطلبها العمل الحكومى لن تفلح أمة يلحق الضعف حكومتها أو يصيب الوهن والجبن موظفيها، وبدافع من هذا الإيمان كان يدخل معارك الحكومة بقوة

وشراسة وينفذ إرادتها بإخلاص واجتهاد ويتحمل تبعات ذلك كله بلا خوف ولا وجل، لقد كاد يتعرض للهلاك فى أحد المواسم الانتخابية عندما جاء أهل الدائرة غاضبين من تزييفه نتيجة الانتخابات يحملون الفؤوس يريدون قتله، لقد نجا من القتل ولكنه كان على استعداد للموت فى سبيل أداء على كسب ولاء الموظفين الذين يعملون تحت أمرته، فهؤلاء هم أدواته فى تنفيذ المهمات التى تكلفه به الحكومة، هم كتيبته التى يحارب بها ولذلك فهو يغدق عليهم الترقيات، يمنحهم العلاوات، ويشاركهم مناسباتهم الحزينة والسعيدة، من أراد قرضاً أخذه، ومن طلب إجازة وقعها له بلا إبطاء، فصاروا يعتبرون عهده عهداً ذهبياً لم تشهد المتصرف فيه من قبل، وما أن سرى الخبر بين هؤلاء الموظفين بأن المتصرف، وحسب التعبير المتداول بينهم "يحيط به الدجاج الأسود" حتى بدوا جميعهم غاضبين لغضبه، أعلنوا حالة الطوارئ،وطردوا جميع المراجعين، واعتبره يوم حداد قبل أن يعرفوا سبباً لغضبه وهياجه.

قال بعد أن هدأت أعصابه قليلاً، يشرب القهوة ويخاطب كاتب الخاص:

- هذه بلدة لا ينفع فيها عمل الخير.

- لماذا لا سمح الله؟

قالها الكاتب بلهفة وقد أدرك أن الفرصة قد حانت ليعرف السبب الذى أغضب المتصرف، سيرضى فضوله وفضول بقية الموظفين الذين ينتظرونه الآن ليروى لهم القصة، ولكن المتصرف لم يكن قدر قرر أن يطلع موظفيه على الرسالة التى تلقاها، ليس قبل أن يهتدى إلى الوسيلة التى يرد بها على أبناء تلك الداعرة قال دون إفصاح:

- يبدو أن هناك من لا يعجبه وجودى فى هذه البلدة.

كان الكاتب يعرف أن أمرا كهذا ليس جديداً وأن المتصرف لا يولى مثل هذه الأمور اهتماماً كبيراً، ما يهمه دائما هو رضا الحكومة لا المواطنين ولكنه قال بلهجة ممالئة:

- قطع اللسان الذى يتحدث عنك بسوء، هل ينسى أهل هذه البلدة أياديك البيضاء عليهم، هل ينسون شعير العلف الذى جئت به إليهم هدية من الحكومة ليكون غذاء

لأغنامهم فأكلوه هم وأطفالهم دون أن تعاقبهم أو تتوقف عن جلبه إليهم كل عام، هل ينسون المصنع الذى ستبنيه لهم فوق الرمال، هل وقبل أن يأتى على كل مكارمه قاطعه المتصرف قائلاً:

- إنهم ينكرون على الزواج من ابنه عامر اليتيم، هل أتيت منكراً عندما أحببت هذه البلدة وأردت أن أرتبط بها برباط المصاهرة الذى لا تنقطع عراه.

ثم أضاف بحدة:

- قد لا يعلم الناس هنا أن المتصرفين فى أماكن أخرى يحصلون على هذه الأشياء بلا زواج، فهل هذا جزائى عندما أصون الحرمات وأحمى الأعراض وارعى فيهم الشرع والقانون.

لم يجد الكاتب فى كلام رئيسه ما يرضى فضوله لمعرفة ما حدث بالضبط، تساءل قائلاً:

- ولكن من هم يا سيادة المتصرف هؤلاء الناس الذين يقولون عنك هذا الكلام؟

قال المتصرف منهياً الحديث:

- لا يهم الآن، سأعرف كيف أنتقم.

في المساء عاوده غضبه وعاوده هياجه وهو يزور اليتيم في بيته مبكراً على غير عادته ويطلعه على فحوى الرسالة، لم يكن اليتيم يظن أن المصاهرة التي ينوي عقدها مع المتصرف سوف تثير حفيظة أهل القرية بهذا الشكل العنيف، صار الآن خائفاً من الأذى الذي سيلحقه من جراء هذه المعركة التي تنشب الآن بينهم وبين المتصرف، خاصة إذا ما استعمل الرجل سلطته وشرطته للبطش بهم، سوف يعتبرون اليتيم هو السبب، سيعجزون عن مواجهة المتصرف وسيتحولون بحنقهم وثورتهم إليه، حاول تهوين الأمر على المتصرف فما هذه الرسالة إلا عمل من أعمال البطش الذي لا يستحق الغضب والانفعال.

قال المتصرف حانقاً:

- كيف لا أغضب وأنت تعرف ما قدمته لهذه البلدة من خدمات، هل أخرج منها في النهاية، مثل من يسلخ الحمير، لا لحم يطعم جوعه ولا رائحة طيبة تعلق بثيابه،

لكنهم إذا أرادوه سلخاً للحمير فليكن، سأعرف عندئذ كيف أسلخ جلود هؤلاء الحمير جميعاً.

كان اليتيم يتساءل بينه وبين نفسه عن هوية هذا الرجل الذى كتب الرسالة ووافته الشجاعة على أن يضعها للمتصرف تحت أنفه، ولا يجد فى ذهنه أحداً غير العيد، فهو الذى يملك دافعاً قوياً لارتكاب هذه المخاطرة ولكن العيد أكثر عقلاً من أن يقترف حماقة كهذه، خاصة وأن المتصرف نعت كاتبها بأنه جاهل لا يعرف كيف يخط حرفاً صحيحاً، من إذن؟ ولكن لماذا يجهد نفسه فى البحث عمن يكون إن فتح باب كهذا سوف لن يجلب لحياته سوى العواصف، والخير كل الخير هو أن ينسى المتصرف هذه الرسالة لأنه لو تابعها فسيكون كمن يحفر كثبان الرمال، لن يجلب الحفر إلا مزيداً من الرمل.

مضى المتصرف يتحدث عن نيته فى التنكيل بأهل القرية جميعاً إذا لم يكشفوا عن كاتب الرسالة ويقدمونه له لينال جزاءه، فقال اليتيم:

- إن هذا بالضبط ما يريده كاتب الرسالة وهو أن يفسد علاقة الود التى تربطك بأهل البلدة، فيتحولون جميعاً إلى أعداء لك.

- إذن اسمعنى جيداً.

كان واضحاً أن المتصرف قد اهتدى الآن إلى الوسيلة التى يرد بها على هذه الرسالة رداً ناجعاً.

- طالماً أن المسألة صارت تحدياً، فسأقبل التحدى وإذا كنت لا تريد تنكيلاً بأهل البلدة فعليك أن توافق على ما أقوله لك.

التقط أنفاسه قبل أن يقول:

- وهو أن تتم مراسم الزواج كلها اليوم، وفى هذه الليلة، دعونا نرى ماذا يستطيع أن يفعل أولاد الـــ ... مجدوبة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

قالها اليتيم وأبقى بصره معلقاً بوجه المتصرف، ها هو يكشف مرة أخرى عن براعته فى توظيف كل شئ

لمصلحته، كأن عقله رحى كبيرة لا يدخلها شئ إلا وتطحنه وتحيله إلى دقيق يصبح خبزا وطعاماً على مائدته، حتى هذه الرسالة التى أرادها صاحبها أن تكون تهديداً يمنعه من بلوغ أهدافه، وجد كيف يحيلها إلى شئ يسرع بتحقيق رغباته، وهذه الكلمات التى قالها اليتيم ليدفع عن نفسه شراً رآه يلوح فى الأفق ها هو يجدها توظف توظيفاً ماهراً ضده وتصبح هى الأخرى طعاماً لأحلام المتصرف ووسيلة لإرضاء شهواته.

ظل ينظر إليه مبهوراً بهذه القدرات العجيبة التى يملكها، مدركاً الآن أن الحكومة لا تختار رجالها عبثاً، ثم قال قبل أن يجد عبارات أفضل يتقى بها هذا المأزق الجديد.

- ولكن الأمر يحتاج إلى استعداد.
- سأتولى ترتيب كل شيء.
- لابد أن تمنحنى وقتاً.
- إذا كنت لا تريد تنكيلاً بأهل القرية فلم يبق إلا هذا الحل، وإلا ضاعت هيبتى وهيبة الحكومة.

حاول اليتيم بقوة أن يقنع المتصرف بجدوى الانتظار ولكن دون فائدة، وفى النهاية خضع لمشيئته واتفق معه على أن يبدأ العرس منذ هذه الليلة كما أراد، وفى الليلة التى تليها يكتب عقد القران لتصبح جميلة زوجته أمام الله والناس، على أن تؤجل ليلة الدخلة إلى ما بعد الامتحانات التى يحين موعدها بعد أيام قليلة فلا تحرم الفتاة من نيل شهادتها هذا العام، وضع المتصرف يده فى يد اليتيم يقرآن سورة الفاتحة قال مبتهجاً بعد ختام السورة:

لتملأ الزغاريد البلدة هذه الليلة، وليمت بغيظهم الحاقدون.

(٢٢)

سعيداً بانتصاره ذهب المتصرف يرسل وراء موظفيه وأعوانه لشراء المؤن ونحر الخراف وإحضار نسائهم لإحياء العرس الذى يريده أن يكون أعظم عرس تشهده القرية، فهو قبل كل شيء وبعد كل شيء عرس الحكومة وهيبتها التى أراد بعض الصعاليك النيل منها، ومن أجل ذلك فقد جاءت سيارات نقل الحكومة وخزانات الماء التى تجرها عربات الحكومة وفتحت المخازن الكبيرة التى يحتفظون فيها بالخيام

والأبسطة والمصابيح والقدور للاحتفال بالمناسبات الرسمية ونقلت جميعها إلى بيت اليتيم. وفى ساعات قليلة أقيم السرادق ومدت البسط وصفّت الكراسى وأضيئت مصابيح الكهرباء بأعداد لا تحصى وجاء من يضرب الطبلة ويعزف الناى والمقرونة كما جاء من مركز الشرطة من يحمل سلاحاً يطلق به النار فى الهواء إظهاراً للفرحة والابتهاج بعرس المتصرف، وبعيون تمتلئ فضولاً توافد الأطفال الذين أرسلتهم أمهاتهم لمعرفة الخبر يملئون ساحة الاحتفال أمام البيت، وأرسل المتصرف عماله يدقون أبواب البيوت يدعون الناس لحضور العرس ويذهبون إلى المسجد والحوانيت يدعون الرجال لتناول العشاء، ووجد أهل القرية أنفسهم فجأة أمام عرس لا يدرى عنه أحد شيئاً.

- إنه عرس كأعراس الجن، ما تدرى إلا وقد ضج الليل من حولك فجأة بالموسيقى والغناء والبارود.

- قل إنه عرس كالموت، فالموت وحده الذى يأتى فجأة ويطلق حناجر النساء بالعويل دونما ترتيب أو تمهيد.

- ها هى الحكومة تذكر قريتنا بعد إهمال طويل فجاءت تقيم بدل المصنع عرساً.

فاجأهم العرس فمنهم من ذهب مهرولاً يمنى النفس بوليمة عظيمة ويتقى غضب المتصرف ومنهم من أزعجه ما حدث فاختار البقاء فى البيت ومنع زوجته وأطفاله من الذهاب.

لم يكن قد جاء أحد من المعازيم عندما وقفت جميلة فى فناء البيت الداخلى تصيح فى وجه أمها وهى ترى الاستعدادات فجأة تقام لمباشرة العرس، غاضبة تبكى وتشتم المتصرف وتهدد أمها بالانتحار، سمع اليتيم صراخها وهو يشرف على بناء الخيمة أمام البيت فدخل مهرولاً يحتوى ابنته بين ذراعيه ويضع يده على فمها محاولاً إسكاتها قائلاً لها:

– إنك تفضحيننا أمام الناس.

بشراسة دفعته عنها حتى ارتطم بالجدار وسقط يتدحرج فوق الأرض، صرخت الأم وهى تدارى وجهها خجلاً ورعباً، قام اليتيم غاضباً وكأن بركاناً اشتعل فى صدره، تناول قطعة خشب وهجم على ابنته يضربها ويشتمها، حاولت الأم أن تمنعه عنها فبدأ يشتمها هى الأخرى لأنها أفسدتها بالتدليل ويشتم المدرسة التى ملأت رأسها

بالأفكار الغريبة فخرجت على آداب القرية وتقاليدها ويقسم بأن الزواج سوف يتم فى موعده شاءت أم أبت. انتزعت نفسها من قبضته ونائحة ينزف الدم من جبينها هربت إلى غرفتها وأقفلت الباب خلفها، وضج البيت بزغاريد النساء القادمات لإحياء العرس.

ما إن وصلت أمى سعيدة حتى طالبت من فورها بأن ترى جميلة، كانت أمها تعتذر للنساء قائلة بأنها كأى فتاة فى سنها لا تحتمل فكرة الفراق القريب عن بيت أهلها فلزمت غرفتها وما أن يهدأ خاطرها حتى تأتى إليهن، لكن نساء العرس يعرفن أنها تقول ذلك مداراة للحقيقة وخجلاً منها، ويعرفن أن جميلة تجلس الآن فى غرفتها تندب سوء طالعها وترفض تزويجها من المتصرف لأنها تحب العيد وتريده زوجاً لها، إنها ليست أول ولا آخر فتاة فى »قرن الغزال« يقوم والدها بتزويجها رغماً عنها، هن يعرفن ذلك ويعرفن أيضاً أنه لا فائدة من مقاومة تقليد ظل لأزمانٍ طويلة قدر النساء فى هذه القرية وسيظل قدرهن لأجيال كثيرة تأتى، ولاشك أن جميلة بعد أيام سوف ترضى وسوف تقبل بقسمتها كما حدث لنساء كثيرات من قبلها.

هبت أكثر من امرأة تتطوع لمرافقة أمى سعيدة عند ذهابها لترى جميلة فى غرفتها، قائلات بأنهن سيشرحن لها الأمور التى لا تعرفها صبية لم تر دنيا مثلها، وسيقنعنها بالخروج من غرفتها للترحيب بالزائرات، إذ ليس من اللياقة أن يقام العرس فتغيب العروس.

قالت إحداهن ضاحكة:

– سأشرح لها تلك الأشياء التى سوف تلقاها عند العريس فتنسيها أمها وأبيها.

– سأتولى بنفسى تخضيب يديها وقدميها بالحناء هذه الليلة، إنه فأل سيئ أن يكتب الكتاب والعروس بلا حناء.

ولكن أمى سعيدة برفق سألتهن البقاء فى أماكنهن لأن هناك ما يكفى من الوقت للحديث معها فيما بعد، فلا داعى لخلق تظاهرة تفزعها، ثم ذهبت تطرق بابها، أدخلتها عندما عرفت أنها أمى سعيدة ثم أقفلت الباب، زاد بكاؤها حدة وهى ترى المرأة التى جلست تنتظرها فلم تتأخر عنها، لم تكن جميلة قد اهتمت بإزالة الدم الذى سال فوق وجهها وثيابها، أخذت أمى سعيدة منديلاً تمسح عنها الدم وتكمد الجرح الذى فوق عينها دون أن تسألها عما حدث.

- لم يخطر ببالى أنه سينقض علينا بعرس كأنه ضربة من ضربات القضاء والقدر.

واصلت جميلة البكاء وهى ترتمى فى حضنها:

- لابد أن أهرب هذه الليلة.

مهسترة، تنتفض وتبكى ظلت تعيدها.

- لابد أن أهرب الآن، لا أطيق أن أبقى فى هذا المكان دقيقة واحدة، لابد أن أهرب الآن.

لابد أن تهرب الآن، لأنها إن لم تهرب هذه الليلة فإنها لن تستطيع أن تهرب أبداً، غداً سيعقد القران وستكون فى عرف المجتمع ونظر القانون امرأة متزوجة، وسيكون الهروب بعد أن أصبحت على ذمة رجل آخر شيئاً مستحيلاً، لن تتولى المحكمة عقد قرانها مع العيد هذه المرة وإنما ستعاملهما باعتبارهما زانيين يستحقان السجن إن لم يكن الرجم بالحجارة حتى الموت كما كانوا يفعلون قديماً، أمى سعيدة تدرك رعب ذلك كله وتدرك ما تعانيه جميلة الآن من عذاب، ولكن إلى أين يمكن أن تهرب والرجل الذى تريد أن تهرب معه سافر بعيداً ولا سبيل إليه، وكيف يمكن أن تهرب ومن حولها عرس يمتلئ بالبشر والعيون والبنادق، حتى لو

انتظرت إلى أن ينتهى الحفل وتسللت مع الفجر خارج البيت فأين يمكنها أن تذهب خلال الساعات التى تفصلها عن طلوع النهار، وفى قرية صغيرة مثل »قرن الغزال«، سيكتشفون بعد لحظات هروبها ويأتون لإعادتها وإرغامها على الذهاب إلى بيت الزوجية مجللة بالعار والفضيحة، الوقت يمضى وموعد عقد القران لا يفصلهما عنه سوى هذه الليلة ونهار الغد، فما الذى يمكن عمله خلال ما تبقى من ساعات، لعلها تجد نصيراً فى زوجة المتصرف التى لابد أنها تجلس باكية فى بيتها، سترغمها على أن تفعل شيئاً هى الأخرى، ستأتى بها فى يوم الغد وستأتى بأولادها وبناتها يقيمون مناحة فى هذا البيت ويبطلون هذا العرس، وإذا لم يفلح ذلك كله فإنها ستقف لهم وسط الخيمة عند كتابة العقد، وطالما أن الشرع يشترط موافقة المرأة فسوف تطالب على رؤوس الأشهاد بإحضار جميلة وأخذ رأيها بحسب ما يأمر به الدين وإلا أصبح عقد القران باطلاً وبات هذا الزواج حراماً، هم عادةً يتظاهرون بإرسال من يأتى بموافقة المرأة قبل كتابة العقد، يذهب ويعود ليقول إنها موافقة بدون سؤالها، إجراء شكلى هم يقولون، ولكنها ستكشف هذه المرة لعبتهم وستمنع كتابة

هذا العقد المجافى للقرآن والسنّة. وبكلمات مقتضبة حاولت أمى سعيدة أن تنقل هذه الأفكار إلى جميلة التى توقفت منذ لحظات عن البكاء وظلت شاردة، ساهمة، كأنها لا تعى شيئاً من كلام المرأة العجوز.

قالت جميلة من خلال شرودها:

- ماذا لو لم تفلح هذه الجهود؟

- ستفلح بإذن اللّه.

وبلهجة باردة خالية من أى انفعال قالت جميلة:

- عندها سأقتله وأقتل نفسى.

كان الجو ثقيلاً داخل الغرفة، والظلام صار دامساً، ولم تعبأ أى منهما بأن تضىء النور، فى حين كان الصخب خارج الغرفة يبلغ منتهاه.

(٢٣)

وقبيل الفجر جاء الدرويش.

كان قد هبط مع منتصف الليل من أحد الشقوق التى يأوى اليها فى الشعاب القريبة، وجاء إلى مقره القديم بمقبرة القرية يبحث فى بقايا النذور التى يحملونها إلى ضريح سيدى

أبو قنديل أو بين أكداس القمامة القريبة من المقبرة عن شئ يسكت به آلام الجوع.

تناهت إليه الزغاريد وأصوات المغنين والعازفين تنطلق من بيت العرس، ورأى المصابيح الملونة تسطع فوق بيت اليتيم، نسى جوعه وتذكر جميلة، أدرك أنهم الآن يحتفلون بزفاف (جميلته) على رجل آخر، وضع طرف جلبابه فى فمه ومسكوناً بالغضب والجنون وانطلق يعدو باتجاه بيت العرس، رأى شبح رجل فى البعيد، ظنه شرطياً فارتد مفزوعاً خائفاً من القبض عليه، اختبأ فى الضريح وانتظر حتى توقف العزف والغناء، وقبيل الفجر بقليل انطلق الدرويش مثل كرة من النار حتى وصل بيت اليتيم، تسلق إحدى المواسير وجلس فوق سطوح الغرف الملونة لاهثاً يستطلع المكان،كأن أهل القرية الذين حضروا العرس قد عادوا إلى بيوتهم رأى على ضوء النجوم العازفين الثلاثة يحملون آلاتهم الموسيقية ويبتعدون، انتهى الصخب والضجيج وبقى الصمت، صمت لا يقطعه إلا غناء الجنادب والحشرات أو ثغاء شاة من الشياه التى تقبع فى الزريبة تنتظر الذبح، نظر من فوق السطح إلى غرفة جميلة، ازداد

اهتياجاً وازدادت عروقه انتفاخاً وصار يصدر فحيحا كأن أحداً أشعل فى جوفه ناراً، لم يجد قريباً منه سلماً أو مأسورة يتسلقها هابطا، أراد أن يقفز ولكنه عندما القى نظرة على فناء البيت ورآه عميقاً كقاع البئر عدل عن رأيه، وجد على السطح وتداُ يشدون إليه حبل الغسيل، حاول أن يستعمل الحبل فتقطع بالشهوة وحلم الارتماء فوق جسد جميلة خلع جلباباً وبنطلوناً ممزقين، بقى عاريا من فوقه النجوم ومن خلفه الظلام، عروقه نافرة وأحليله منتصباً والنار فى جوفه تصدر فحيحاً لاهبا، بسرعة ربط أسماله بعضها ببعض وجدل منها حبلاً لكى يستعمله فى الهبوط إلى فناء البيت، شد الأسمال إلى الوتد وما أن تدلى جسمه متعلقاً بها حتى تمزق وسقط إلى الأرض، أطلق وهو يرتطم بالبلاط صرخة أخيرة، عالية، مدوية، كأنها انطلقت من حنجرة حيوان خرافى،ترددت أصداؤها فى جوف الليل فأيقظت البشر وأفزعت الطيور، وهبت الكلاب فى وقت واحد تملأ ليل القرية بالنباح، خرج أهل البيت مذعورين على ظهره فى فناء البيت، عارياً كيوم ولدته أمه، تهشم رأسه وسال الدم

خيوطاً تخصب وجهه، يده تقبض فى تشنج على مزق من ثوبه، وأحليله نافر.

توافد الناس من أركان القرية الأربعة بجلابيب نومهم يفركون أعينهم بأيديهم ويسألون بعضهم بعضاً عن سر هذا الصراخ الغريب الذى انطلق من بيت اليتيم، وجدوا أن سيارة الشرطة قد سبقتهم وتوزع أفرادها يعاينون المشهد ويمنعون الناس من الاقتراب، عرفوا أن الدرويش وجد عارياً فى بيت اليتيم، وهو مهشم الرأس، أخذوا العناصر الأولى للقصة وصاروا يضيفون إليها، ويعيدون خلقها وروايتها بأشكال مختلفة، فالدرويش فى إحدى هذه الروايات لم يمت لأنه سقط من السطح، وإنما لأن اليتيم اكتشف أمره عندما جاء هاجما على دار ابنته فضربه بعمود من حديد على رأسه وحطمه، ورواية أخرى تقول بان جميلة عندما استيقظت مرعوبة على جسد الدرويش يرمى فوقها عارياً مدت يدها إلى جرة من الجرار وكسرتها فوق رأسه، تنوعت الروايات، وبدأت الشرطة تباشر روتينها، جاء من عاصمة المحافظة ضابط يتولى التحقيق كما هى العادة عند حدوث مثل هذه الفعلة، واعتبر كل من كان موجوداً فى البيت ليلتها متهماً حتى

يتجلى الأمر، اعتزل اليتيم الناس ولم يعد أحد يراه إلا أثناء ذهابه إلى مركز الشرطة عندما يستدعونه للتحقيق،لا أحد يزوره سوى المتصرف الذى كان يحرص على حضور جلسات التحقيق بنفسه مؤكداً لليتيم بأن الأمر لا يعدو كونه استكمالاً لبعض الإجراءات الروتينية التى لا تناله أسرته بشئ يمس الشرف، ومريض لازمت جميلة الفراش، أصابها مشهد الدرويش وهى تراه ملقى على تلك الشاكة فى فناء البيت بصدمة جعلتها تفقد توازنها وتسقط أمام الدار مغشياً عليها، وعندما أفاقت ورأت أن إجراءات العرس قد توقفت، أدركت أن حلقة من حلقات العذاب قد انتهت وأسلمتها إلى حلقة أخرى، كانت تحس بحزن غامض نحو الرجل الذى مات كأنها مسؤولة عن مصرعه، ظل مشهد موته لاصقاً بأهدابها، ما أن تغمض عينها حتى تراه فتقوم مفزوعة من نومها، كان الدم الذى وجدوه يلطخ أحد فساتينها سبباً للاشتباه بها وإدخالها دائرة التحقيق، ونقلها إلى مستوصف القرية لأخذ عينات من دمها، مرات أيام ثقيلة قبل أن تأتى نتيجة التحليل من المعامل الطبية فى المدينة، بان الدم الذى وجدوه على الفستان إنما هو دمها وليس دم الدرويش، وبعد أن

انتهى التحقيق إلى أن موت الدرويش كان موتاً عرضياً بسبب وقوعه من فوق سطح البيت، ظلت تلك السحابة التى أحدثتها الفاجعة معلقة فوق بيت اليتيم، لا تذيبها شمس الصيف القانطة ولا تزيحها من مكانها رياح القبلى المحملة برمال الصحراء.

اقتنعت الحكومة ببراءة اليتيم، ولكن خيال القرية ظل مولعاً بالحكايات التى صاغها رافضاً أن يتخلى عنها، ومقهى القرية تحول إلى فم لا يجد علكة يمضغها أفضل من هذه العلكة:

- ما هى صداقة اليتيم للمتصرف تؤتى نتائجها، تنجيه من تهمة القتل، وتبعد عنه حبل المشنقة.
- ذهب الدرويش ضحية الحب الأعمى، وقد يصبح قبره ذات يوم مزاراً للعاشقين.
- من كان يظن بأن للدرويش هذه القدرة العجيبة على الحب، حتى بعد أن مات ودفن بقى ذلك الشئ واقفاً.
- جسمه فى القبر ولكن روحه المعذبة ستظل تسكن بيت اليتيم إلى الأبد.

كان العيد قد دخل المقهى، ووقف بجوار سلطان وهو يصنع له القهوة، متجنباً مشاركة الآخرين الثرثرة ولعب الورق، متأملا صراع الآلهة الرومانية فوق جدران المقهى، رأى كيوبيد يملأ جرابه بالسهام ويستعد لإطلاق إحداها، فتساءل بينه وبين نفسه منذ متى ظ هذا السهم مشدوداً بين القوس والوتر دون أن ينطلق.

قال عاشور غامزاً بعينه العيد:

- ما اتعس مصير من يحبك يا جميلة يا ابنة عامر اليتيم

دعابة ضحك لها رواد المقهى، ولكن العيد ونقيضاً لما يعرفون عن طبعه الهادئ، فاجأهم بأن تحرك من مكانه غاضباً وهجم على الرجل يضع يديه فى عنقه، تعاون عدد من الرجال على فك الاشتباك بينهما وسحب العيد بعيداً عن عاشور.

- سأقتلك إذا عدت لمثل هذا القول.

متبرماً بالمقهى ورواده الذين صار حياة جميلة طعاماً لأقاويلهم وشائعاتهم، ترك فنجان القهوة دون أن يمسه،

وذهب متسكعاً فى الطرقات على غير هدى، وجد نفسه يطوف قريباً من بيت اليتيم دون أن يجرؤ على الاقتراب منه، ها هو يبعثر أيامه فى القرية، استنفذ مدة الإجازة، وتخلى عن مطالعة دروس الجامعة، وظل ضائعاً يفتعل المعارك فى المقاهى ويحوم بينها كالطائر الذى هدموا عشه، دون أن يجد سبيلاً إلى رؤيتها، شاهد من مكانها البعيد أمى سعيدة تخرج من بيت اليتيم يتبعها كلبها، انتظر حتى وصل إلى بيتها وذهب إليها، كان ق زارها مرة واحدة منذ عودته إلى القرية إثر موت الدرويش، سألها بلهفة وهى تضع أمامه كوباً من رحيق الأعشاب.

- أخبرينى كيف حالها.

- غداً سوف تذهب إلى المدرسة لأداء الامتحان.

قال مبتهجاً:

- إذن فقد تعافت.
- لم تتعاف بعد، ولكنها قالت بأن المرض لن يمنعها من أخذ الشهادة هذا العام.
- ألا يضر ذلك بصحتها.

- لم أستطع إقناعها بالعدول عن هذه الفكر، لقد صارت عنيدة، إذا ما حددت لنفسها هدفاً لا تتنازل عنه أبداً.

منحته هذه الكلمات بعض الطمأنينة، فهو أيضاً يقع ضمن دائرة أهدافها، ثم إنه يريدها قوية قادرة على مقاومة كل هذه القوى التى انطلقت من كهوفها تبغى بها شراً، إنه يحبها ويريد أن يكون عوناً لها ولكنه يرى نفسه عاجزاً عن تقديم أى شى يدفع عنها هذا العناء الذى تلاقيه، إنها مثل إلهة أحبت إنساناً فانياً ودخلت حروباً مع آلهة الرعد والبراكين والعواصف المرسومة على جداريات المقهى، وهى الإلهة الرقيقة التى تصنع الخصب وتحمل فى جعابها سهام الحب وتعشق بالشهب والنيازك ويثيرون فى وجهها الصواعق والبراكين والعواصف، وهو ملتصق بالأرض، يرقب فى عجز هذه الحرب ولا يجد القدرة على أن يفعل شيئاً.

لعله لو رآها لاهتدى إلى شئ عظيم يفعله من أجلها، إنه على يقين من أن لقاء يتم بينهما سوف يفجر فى نفسه القوة ويلهمه ويلهمها طريقاً للخلاص، قال يخاطب المرأة العجوز:

- كيف أستطيع أن أراها.

- لا أعتقد أن الوقت مناسب هذه الأيام.

إنه أيضاً يعرف ذلك، ولكن ما حيلته والعطش لرؤيتها يحرق حلقه، حاول أن يجد كلمات قادرة على احتواء هذا الصخب الذى يضج به صدره، لعل أمى سعيدة تجد سبيلاً لنجدته، لكن الكلمات عاجزة وأمى سعيدة لا تملك لعونه سبيلاً، كان من رأيها أن يعود إلى عمله ودراسته وأن يدع هذه الأيام الثقيلة تمر فلن يحدث شئ فى المستقبل القريب يستوجب منه البقاء.

قالت وهو تودعه:

- كل شئ بأوانه، فلا تجزع يا ولدى ولا تتعجل الأمر.

قال فى نفسه:

- امرأة مباركة، تعرف ما لا نعرف، وترى ما لا نرى.

(٢٤)

جاء مصرع الدرويش فأوقف العرس ولكنه لم يطفئ نهم المتصرف للفوز بجميلة، أو ينقص من رغبته الأكيدة فى إتمام الصفقة التى عقدها مع والدها، إنه الآن أكثـــر حماســـاً

وتصميماً على اتمام العرس، والدرويش الذى لقى مصـــرعه وهو يسعى إليها لم يزد عواطفه نحوها إلا توهجاً واشـــتعالاً لقد أيقظت بجمالها العواطف الميتة لدى رجل لا عقل له، ولا رجولة فيه،حتى لقى حتفه فى سبيلها، فكيف يتركها من يملك عقلا كعقله ورجولة كرجولته، لم يخطر بباله لحظة واحدة أن انتهاء العرس على تلك الطريقة الفاجعة، يعنى نهاية أحلامه فى أن يأخذ جميلة إلى بيته زوجة جديدة يضيفها إلى زوجته الأولى، بل بالعكس من ذلك، إن الحادثة التى اعتبرها الناس نذيراً بهدم ما بناه، لا يعتبرها المتصرف إلا تعزيزاً وترسيخاً لهذا البناء، وإذا كانت قد زرعت هماً عظيماً فى بيت اليتيم، وجعلت ابنته أكثر ضعفاً وهواناً فمعنى لك أن مركـــزه الآن فى مواجهة جميلة أكثر تفوقاً وقوة، إن المقاومة التى أبـــدتها لفكرة الزواج منه سوف تتضاءل وتنهار بعد أن جاءت هـــذه الضربة تكسر روحها المتكبرة العنيدة، وستأتى الآن إلى بيئة طائعة، ذليلة، مرة أخرى يجد المتصرف نفسه قـــادراً علـــى استخلاص نتيجة تخدم أغراضه من بين أنقاض الكارثة، ولقد حرص على أن يعرف كل الناس أنه ما زال وفياً لكلمته، لا يتخلى برغم الظروف الحالكة ورائحة العار والفضيحة مـــن

إنسانة بريئة مثل خطيبته، ويطلق على بيت اليتـيم تسـمية جديدة هى "بيت صهرى" إذا كان عقد القران لم يكتب كمـا كان مخططاً له، فإنه لا شى يمنع من اعتبار الحفل الذى أقيم حفل خطوبة، واعتبار جميلة منذ ذلك اليوم خطيبته التى لـن يهنأ حتى يراها تتمدد كجدول العسل فوق سريره، ولقد انتهى الآن موسم الامتحانات، والحادث الذى عطل إتمام العـرس تقادمت عليه الأيام، وصار من حقه على اليتيم أن يفتح معه الموضوع ويحددان معاً يوماً قريبـاً لعقـد القـران وإتمـام الزفاف.

كان اليتيم قد مل جلوسه الدائم فى مربوعة البيـت، فصار على حياء وخجل يعود إلى حياة القرية ويصبح جزءاً من دورة أيامها الرتيبة، يذهب بانتظـام إلـى عملـه فـى المستودع، ويرتاد السوق يوم الجمعة ويذهب بانتظام إلـى عمله فى المستودع،ويرتاد السوق يوم الجمعة، ويذهب أحياناً إلى الحلقات التى تعقد أمام الدكاكين فى المساء، وجد فتـوراً واضحاً فى لقاء الناس به، وعزوفاً عن الحديث معه، اختفت تلك البهجة التى كان يراها فى أعين الناس عنـدما يلتحـق بمجالسهم وروح الدعابة التى يستقبلونه بها، لعل سلوكه إزاء

ابنته، أو انطفاء الأمل فى قلوب الرجـــال الـــذين يحملـــون بالزواج بها بعد أن صارت موعودة للمتصرف، أو تفضـــيله لرجل غريب عن القرية ليكون صهراً له بـــدلاً مـــن أحـــد أبنائها، أو مصرع الدرويش فى بيته وما رافـــق ذلـــك مـــن قصص واتهامات، لعل سبباً من هـــذه الأســـباب أو لعلهـــا مجتمعة هى التى أسهمت فى خلق هذه الجفوة بينـــه وبـــين الناس، أو لعله دافع آخر لا علاقة له بما تذكره من أســـباب وإنما بهذا الصيف الذى جاء ليكون أقسى فصـــول الصـــيف التى عرفتها القرية منذ أعوام، محمـــلاً بـــالعرق والـــذباب وزوابع الرمل، يملأ العيون بالغبار ويذيب الطراوة فى قلوب الرجال، فيصبحون هم أيضاً أكثر قسوة وخشونة.

وبرغم أن أحداً لم يحاول يوماً استثارة مشـــاعره أو الخوض معه فى موضوع من المواضيع التى لا يودد إثارتها أو سؤاله حتى من باب الفضول عن تفاصيل التحقيقات التى أجريت معه، بالرغم من ذلك فقد أحس بأن شـــرخاً عميقـــاً يصعب سده قد أصاب علاقته بهؤلاء الناس، إنه يـــذكر الآن بحنين بالغ تلك الأيام عندما كـــان مهمـــلاً، لا يهـــتم أحـــد بحضوره أو انصرافه ولا يثير من حوله غضباً ولا نفـــوراً

ولا بهجة ولا رضى، لقد كانوا هم أيضاً بالنسبة له كماً مهملاً لا يهتم بهم ولا يعبأ برواحهم ومجيئهم، لقد كان غائباً عن الدنيا، أو لعله لم يكن غائباً عن الدنيا وإنما غائب عن الناس، كان فى الدنيا كالريح اللينة التى تمر فلا تثير مشاعر أحد ولا تسعى لجلب اهتمامه، وكان مثل الريح حراً، ولا يرى هذا الصراع الذى ينشب بين الناس ولا يحس بهذا الحصار الذى يحس به الآن ويجعله أكثر ضيقاً وتبرماً بالناس والحياة، لقد انتهت بسرعة حفلات التكريم التى أقاموها له عندما عاد إليهم وأصبح واحداً منهم، لقد كان مجرد احتفال قصير مثل الذى يقيمونه لرجل عاد إلى القرية بعد غيبة طويلة، ثم ما يلبث هذا الرجل أن يصبح جزءاً من معاناتهم وأشجانهم وخصوماتهم وأحقادهم، إنه ليس غاضباً من أحد، ولكن العبء كبير، لقد جاءت يد خفية، مجهولة تدفع به من ظهره ليقفز من مكانه على السور إلى داخل الميدان الذى تدور فيه المعارك والصراعات ويصبح طرفاً فيها، إنه لا يستطيع أن يعود كما مهملاً، بريئاً وحراً كما كان، وعليه أن يواصل السير إلى آخر الشوط.

(٢٥)

وجد اليتيم فى المسجد ملجأ هادئاً يبعده عن صخب الأسواق وحلقات النقاش الدائر أمام الدكاكين فاكثر من التردد عليه، رأى الشيخ نصر الدين، أمام القرية وعالمها الجليل، يرحب به ويبش فى وجهة ويظهر له وداً لم يعتقد أن أحداً فى القرية ما زال يحتفظ له بمثله، فأقبل على صحبته، وصار يواظب على حضور صلاة الجماعة فى الأوقات الخمسة، ويتأخر أحياناً بعد صلاة المغرب للجلوس على المحراب أمام المسجد يستمع إلى أحاديث الشيخ ويستفيد من علمه وتقواه، ويجد فى الجلوس إليه راحة وطمأنينة تمسح عن قلبه عناء النهار، بل صار أحياناً يدعوه إلى تناول الشاى فى بيته بعد صلاة العصر فيبقل الشيخ نصر الدين عزومته شاكراً، وتجرأ اليتيم ذات يوم وسأله أن يبارك البيت لئلا تكون روح ذلك المجنون الذى مات صريعاً قد سكنته كما يروج بعض الناس، فطاف الشيخ بكل غرف البيت مرتلاً التسابيح والأوراد، وداعياً لليتيم بالبركة ولبيته بالطمأنينة والسلام، كانت جميلة لا تزال فى تلك الأيام مريضة تلازم فراشها عندما جاء والدها يصحب رجلاً بديناً، قصير القامة تغطى

اللحية البيضاء صدره، عرفت أنه الشيخ نصر الدين الذى أبلغتها أمها منذ لحظات بأنه سيأتى ليبارك غرفتها كما فعل مع بقية غرف البيت، دخلت الأغطية وعادت إلى النوم إلا أن والدها جاء يسألها أن تقوم وتقبل يد الشيخ وتتلقى منه البركة، رأته يمد نحوها يداً يغطى أصابعها شعر كثيف، وضعت فمها فوق الأصابع وهى تغمض عينها، ثم انصرف إلى قراءة أوراده وغادر بعدها الغرفة.

وبمثل ما كان اليتيم حريصاً على صداقته الجديدة للشيخ نصر الدين فقد كان حريصاً على العلاقة التى تربطه بالمتصرف، مؤمناً بأنه أسبغ عليه عطفاً كبيراً عندما منحه بيتاً جديداً، وعملاً كريماً مريحا، ووقف بجواره فى أوقات الشدة والضيق، ورأى فى صداقته للشيخ نصر الدين من جهة، وعلاقته بالمتصرف من جهة أخرى شيئين يكملان بعضها البعض، قطبين ترتكز عليهما حياته ويمنحانها توافقاً وانسجاماً، أحدهما صار فى ذهنه معادلاً للدين والآخر معادلاً للدنيا، فهو هنا فى رفقة الشيخ وحمايته، وارتياد المسجد وإقامة الصلاة فى أوقاتها يعمل لآخرته كأنه سيموت غداً، أما فى صحبته للمتصرف فهو يعمل لدنياه، كأنه سيعيش أبداً،

كلاهما يكمل الآخر ويمنحان حياته غطاء يقيه عثرات الدنيا وظلمات القبر، لاحظ خلال هذه الأيام التى أعقبت الحادث أن المتصرف تجنب الحديث فى موضوع العرس طـوال هـذه المدة، فارتاح لذلك وتمنى أن يستمر الأمر على هذه الحـال، ما ضر لو تأخر هذا الزواج الذى جلب إليه المشـاكل لمـدة عام آخر، فالمتصرف لن يصبح فجأة شيخاً هرماً وابنته لـن تربى أجنحة وتطير، وهو لن يتراجع عن كلمته التى أعطاها للرجل طالماً أوفى بوعوده، كل ما فى الأمر أن ذلـك يتـيح لكل الأطراف وقتاً يتجاوزن فيه آثار هذه الفاجعـة، ويتـيح لابنته زمناً كافياً تطيب فيه نفسها لهذا الزواج الذى تنفر منه الآن، فلا يبقى مضطراً لإكراهها عليه، إنه ما زال لا يفهـم لماذا ترفض ابنته رجلاً بيده مفاتيح النعيم الأرضى، إن كـل أب فى القرية يتمنى مصاهرة رجل لـه نفـوذ المتصـرف وسلطانه، فلماذا تريد أن تقفل باباً فتحه الله عندما سخر هـذا الرجل يغترفون من خيره، ولكنه أدرى بمصلحتها وسـيعمل ما يراه نافعاً لمستقبلها، وهو على يقين من أنها سـتفهم ذات يوم دوافعه وستدرك الخير الذى أراده لها من هذه الزيجـة، فليت المتصرف يساعده بقليل من الصبر وقليل من الوقـت،

ولكنه يعرف فى دخيلة نفسه أن المتصرف لن يستمر طويلاً فى سكوته وأنه الآن وبعد أن أكملت ابنته امتحاناتها،سوف يأتى ليطالب بحقه فى إتمام العرس الذى بدأ ولم يتم، ترى ماذا سيقول له، وكيف سيقنعه بوجهة نظره التى لا ترجو إلا الفائدة للجميع، رأى الشيخ نصر الدين يجلس قريباً منه وقد خلا المجلس إلا منهما، أن يشركه فى حيرته وأن يستضىء بنور علمه وحكمته بعض ما أدلهم عليه من أشياء قال مفتتحاً الحديث:

بمثل ما لأبنائنا من حقوق علينا، فإن لنا نحن أيضاً حقوقاً عليهم، أليس كذلك يا سيدنا؟

ارتاب الشيخ فى السؤال وأصدر دمدمة غامضة تبين منها اليتيم قوله:

- نعم، نعم، إن هذا صحيح.

- وأنا أريد أن أستشيرك فى أمر ابنتى جميلة التى أرجو ألا أكون مقصراً فى حقها، لقد أوصيتنى بها خيراً، ولا شك أنك تعلم أن هناك من جاء يخطبها.

وقبل أن يكمل كلماته رأى الشيخ يقف منتفضاً، مرتجفاً إلى حد أن اليتيم أشفق عليه من السقوط فوق الأرض انفعالاً وغضباً، وقف هو الآخر مذعوراً يسأل فى دهشة:

- لا بأس يا شيخ نصر الدين.

قال الشيخ جافلاً:

- لا شيء، لا شيء، أريد أن أجدد الوضوء.

دخل مرتعشاً محموماً إلى حمام المسجد، وترك اليتيم مزروعاً فى مكانه يملأ وجهه الاندهاش، وقف اليتيم قليلاً حتى زايله الذهول، ومتطيراً متشائماً ذهب وجلس فى بيته يطرد عن وجهة الذباب الذى جاء يهاجمه بأعداد لا حصر لها، وينتظر زيارة المتصرف، وما أن جاء وبدأ حديثه مهنئاً بانتهاء الامتحانات حتى أدرك اليتيم أن الموضوع الذى لا يريده أن يفتح، سوف يفتح الآن، وأن عليه أن يقرر بنفسه وبدون معونة من الشيخ نصر الدين ما يجب عليه أن يفعله،رأى أن يبدأ هو الحديث بدلاً من أن ينتظر المتصرف حتى يتكلم، ليأخذ المبادرة فى يده ويباغت المتصرف حتى يتكلم، ليأخذ المبادرة فى يده ويباغت المتصرف الذى يتهيأ

الآن للكلام، سيتيح له ذلك فرصة أفضل للسيطرة على الحديث لقد اتخذ دائماً موقف الدفاع ثم الإذعان لمبادرات المتصرف فليجرب هذه المرة الحديث من موقع الهجوم باشر كلامه قائلا:

- أعتقد أنه قد حان الوقت لأن نتحدث فى موضوع العرس.

- منذ متى صرت تقرأ ما فى الصدور، كأنك تعرف أن هذا ما أردته أن يكون موضوع حديثنا اليوم.

لم تكن قد تهيأت لليتيم فرصة يرتب فيها أفكاره، وجد نفسه يخاطبه قائلاً:

- صار من المتعذر بعد فاجعة كتلك الفاجعة أن نقيم فى بيتنا عرساً هذا الصيف، وأرى أن يتأجل إلى الصيف القادم.

قال كل شئ دفعة واحدة، تمنى لو أنه تمهل قليلاً وأطال فى المقدمات والمبررات حتى يكون حديثه أكثر ليونة ورفقاً، انتظر وقع ذلك على الرجل.

- لقد هولت الأمر يا يتيم.

رآه يقولها ضاحكاً، محاولاً تهوين الموقف وكأنه على يقين من أن المسألة لن تقتضيه سوى بضع كلمات حتى يقنع اليتيم بالعدول عن رأيه، يعرف اليتيم مكر الرجل ودهاءه، وما هذا المضحك إلا نوع من الغش في اللعب، ولذلك فهو سعيد لأنه بدأ الحديث، حريص على أن تبقى المبادرة في يده إلى آخر هذا الشوط من اللعب، واصل المتصرف حديثه:

- أن يرمي مجنون بنفسه إلى الموت، فهذه ليست مسؤولية أحد، ولا يجب أن يقف موته حاجزاً عن المضي في مشروعنا، العن الشيطان يا رجل ودع الأشياء تمضي كما خططنا لها.

ولكن اليتيم لم يلعن الشيطان، إنه بدلاً من ذلك قال:

- إنك تعرف أن ابنتي ما زالت عند موقفها من رفض هذا الزواج، ولن يضيرنا شئ لو

أمهلناها بعض الوقت حتى يطيب خاطرهـــا وتذهب إلى بيتها سعيدة راضية.

توجس المتصرف شراً، ها هو اليتـــيم يـــدخل فـــى الموضوع عاملاً جديداً لم يرد فى حديثه من قبل، هو رفض ابنته للزواج منه، فما الجديد الذى طرأ هذه المرة، كلاهمـــا يعلم أنها رافضة، ولكن متى كان الآباء يعيرون انتباهاً لأراء بناتهم، أليس هو والدها ومن حقه أن يعطيها لمن يشاء.

- ما هذا الكلام يا يتيم، هل صارت الدنيا تمشى بالمقلوب، أم أنها فعلاً تمشى بالمقلوب وأسلمنا أمر تقريرها للنساء.

وغاضباً واصل حديثة:

- إذا كان ما يزعجها أنها تأتى إلى بيت بـــه ضـــره، فلقـــد أعددت لها بيتاً منفرداً تكون هى سيدة الأمر والنهى فيه، ألا يكفى هذا لإرضائها؟

ظل اليتيم هادئاً لا يبدى تأثراً لغضـــب المتصـــرف وهياجه، لقد وجد فى نفسه القوة على قول ما قالـــه، فـــأحس براحة عميقة لم يفسدها ما أصاب المتصـــرف مـــن تـــوتر وهياج، ولم يشعر بأدنى رغبة فى إرضائه أو التسرية عنه،

كأنه لم يعد يهمه كثيراً أن يغضب أو يرضى، أو كأن إرضاءه سيكون تسليماً للمواقع التى تحصن بها عندما بادر الهجوم، ولم يخرجه أن المتصرف تكلم بصوت عال يصل إلى أسماع ابنته وزوجته فى الغرف الأخرى، لن يضيره أن يعرفا أنه يتكلم مع المتصرف كما يتكلم الند للند.

هدأ صوت المتصرف قليلاً عندما جاءت سيرة الانتخابات، صار يتحدث بأسلوب يتفق مع خطورة القضية، كان اليتيم يعرف أنه لن يطول الوقت قبل أن يرمى المتصرف بأهم أوراقه فى اللعب، استمع إليه يعيد كلامه القديم عن هذه الانتخابات التى قرب موعدها وواجب الإسراع بالعرس ليباشر فور انتهائه خوض معركتها، وصار اليتيم يفتش فى ذهنه عن حقيقة رأيه الآن فى انتخابات، لقد ألهته الأحداث التى مرت عن التفكير فيها ولم يجد فرصة يختبر مشاعره نحوها ويعرف إذا ما كان قد لحقها التبدل أم أنه ما زال متحمساً لها كما كان سابقاً، فوجئ الآن بأن ذكر الانتخابات لم يعد يثير فى نفسه تلك النشوة القديمة التى كان يحس بها من قبل، إنه لا يكره أن يكون سيداً فى قومه، بل لعله لا يكره أن يسعى المتصرف لتمكينه من الفوز بهذا

المنصب، ولكن المسألة تبدو لأول مرة خالية من ذلك البريق الذى كان يدهشه ويخترق قلبه كالسحر، إنه الآن وهو ينظـــر إلى الموضوع بهدوء ودونما إثارة أو حماس لا يجد فى نفسه القدرة على التسليم بأن القضية بهذه السهولة التى يتحدث بها المتصرف وكأنه يتحدث عن تعيين غفير أو ســائق يلحقــه بمكتبه، من أدراه أن الحكومة ليس لها مرشح أخـــر يهمهــا الوصول به إلى هذا المركز، ثم لماذا تتخلى عن نائب أثـــب ولاءه لها وتفضل عليه رجلاً مثله لا أحد فى الحكومة يعرف عنه شيئاً عدا المتصرف، ثم حتى لو سلم جدلاً أن للمتصرف من النفوذ ما يستطيع به إقناع الحكومة بقبوله نائباً عن هـــذه المنطقة، فلماذا لا يبادله ثقة بثقة، لماذا هذا الإصرار العجيب على أن يضمن حقه أولاً، إنه صادق فى وعده له بـــالزواج من ابنته بعد أن تنقضى هذه الأيام الحرجة، فلماذا الاستعجال إذن؟ خواطر ظلت تراوده ولكنه يعرف أنـــه لـــن يســـتطيع الإفصاح عنها، وبعد أن التقى المتصرف بكل الحجج التـــى أراد أن يثبت بها صحة رأيه فى إقامة العرس الآن، أضاف شيئاً لم يكن اليتيم قد فكر فيه أو خطر له على بال، عنـــدما قال بابتسامة لا معنى لها:

- أما إذا كان السبب وراء رغبتك هذه هو أن تستفيد من مرتب ابنتك بعد تعيينها، فإنه لا مانع عندى من أن تقدم إليك مرتبها كاملاً ولمدة عامين إذا أردت.

هل لابد أن يربط كل شئ فى الدنيا بالمال والمنفعة، ولكن لا بأس، فحقائق الحياة لابد أن تكون حاضرة فى أذهان أمثاله من أصحاب المناصب والطموح، وهى مسألة يستحق أن يفكر بها عندما يأتى الوقت لذكر الشروط وكتابة عقد القران، إن عليه أن يتعلم من هذا الرجل إذا أراد لنفسه النجاح، ولكنه يعلم الآن أن علاقته بالمتصرف قد وصلت إلى تقاطع طرق يوجب عليه أن يتخذ موقفاً وأن يتحمل نتيجة هذا الموقف، إن قضية كهذه أصعب من أن يتخذ فيها قراراً سريعاً فهو لا يريد أن يفقد العلاقة الحميمة التى تربطه برجل ملك مفاتيح المستقبل، ومن ناحية أخرى فهو لا يريد أن يذعن هذا المساء لمشيئته له كل مواقعه.

- أمهلنى بعض الوقت للتفكير واستشارة أهل بيتى.

ها قد هرب من المواجهة وأرجأها إلى مناسبة أخرى قال المتصرف ساخراً:

- لقد عدنا مرة أخرى للاستخارة برأى النساء.

لم يقل اليتيم شيئاً، إحساسه بالنصر لأنه لم يخضع لطلباته لم يمنع شعوراً بالإثم يتسلل إليه وهو يرى علامات الخيبة وقد ارتسمت على جبين الرجل الذى غمره دائماً بأفضاله، رآه يمد يداً فاترة للوداع، فأخذ يده يصافحها بقوة وحرارة وكأنه يطلب منه الصفح.

(٢٦)

كان الشيخ نصر الدين أول من جاء إلى المسجد، توضأ وصلى ركعتين تحية المسجد، قرأ حزباً كاملاً من القرآن، وانتظر حتى امتلأ صحن المسجد وردهاته الداخلية بالقادمين لصلاة الجمعة، حان موعد الصلاة وقام للجلوس على المنبر وفى يده كتاب تمزق غلافه واصفرّت صفحاته وامتلأ بالأشرطة اللاصقة تربط أجزاءه المفككة، ارتفع الأذان الأول والثانى والثالث، فوقف وفتح الكتاب يقرأ بأسلوب منغم أشبه بقراءة التراتيل الخطبة الأولى لصلاة الجمعة:

»الحمد للّه، الحمد للّه الذى خلق أبانا آدم من طين وسواه، وجعل ذريته متفرقة فلا يعلمها أحد سواه، ففريق

أفقره وفريق أغناه، وفريق أسعده وفريق أشقاه، وفريق منعه وفريق أعطاه، وفريق أبعده وفريق أدنـــاه، وفريـــق أماتـــه وفريق أحياه، أما بعد. .. «.

ثم مضى يكمـــل الخطبـــة التـــى اختتمهـــا بالحـــديث الشريف:»أعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك«.

وجلس قليلاً يتمتم ببعض الأدعية ثم قام للخطبة الثانية وهى الخطبة التى يتكرر قولها فى كل صلاة جمعـــة حتـــى صار يقرأها من الذاكرة دون أن ينظر فى صفحات الكتـــاب المفتوح بين يديه، دعا واستجار وطلب مـــن اللّـــه العـــون والمغفرة والهداية لسائر المسلمين، ومـــن خلفـــه أصـــوات المصلين تردد فى بطء وخشوع آمين، آمين، أقفـــل الكتـــاب وقال وهو يهم بالهبوط من فوق المنبر الكلمات التى تعود أن يخاطب بها المصلين استعداداً لإقامة الصلاة:

»عباد اللّه، اذكروا اللّه يذكركم، واستغفروه يغفر لكم، واشكروه على نعمه يزدكم، وأقم الصلاة إن الصـــلاة تنهـــى عن الفحشاء. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء ".

تكسر الصوت وتهدجٍ، ترنح وهو يهبط الدرج وتعثر، تلاشى صوته، ثم أغمض عينيه وتهاوى ساقطاً بـــين أيـــدى

عدد من المصلين فى الصف الأمامى، أخذوه إلى جانب مــن المسجد وأسندوا ظهره إلى الحائط، رشوا فوق وجهه الماء، استعاد وعيه، ولكنه لم يكن قادراً على الوقوف، تقدم واحــد منهم ليؤم بهم الصلاة بدلاً منه، وعندما فرغوا من صـــلاتهم نقلوه إلى بيته ليرتاح وينام، دون أن يعرف أحد ســبباً لهــذا المرض المفاجئ الذى أصاب الشيخ.

فى صباح اليوم التالى غادر الشيخ نصر الدين مسكنه متجهاً إلى مركز شرطة »قرن الغزال«، أثار وجــوده فــى المركز شيئاً من القلق والفضول لدى أفراد الشــرطة الــذين تحلقوا حول براد الشاى يتناولون إفطارهم، أدخله أحدهم إلى الضابط الذى تلقاه مرحباً مستفسراً عن صحته، متسائلاً عن السبب الذى دعاه إلى الخروج من بيته وهو مازال متعباً لــم يتعاف بعد، قال الشيخ:

– لقد جئت لأعترف أمام اللّه وأمامكم بما ارتكبت من إثم وخطيئة.

استغرب الضابط متسائلاً عما يمكن أن يرتكبه شــيخ تقى مثل هذا الشيخ من مخالفات، لعله نسى أداء فرض مــن الفروض أو تأخر فى أداء صلاة أو صدقة أو زكاة، وظن أن

مراكز الشرطة سلبت اختصاصات الملائكة وصارت تتدخل فى شؤون كهذه، واصل الشيخ حديثه:

- يريحنى كثيراً أننى جئت لأعترف، فالاعتراف بالذنب فضيلة كما تعلم، ومن نعم اللّه على عباده أن جعل باب التوبة مفتوحاً دائماً للعصاة التائبين.

قال الضابط وهو ما يزال غارقاً فى حيرته:

- إنك مثال للخير والصلاح والاستقامة يا شيخ نصر الدين، ولو أن البشر جميعاً كانوا صالحين مثلك لما وجد ضابط مثلى عملاً ولانقرضت مهنتنا من الدنيا.

- كل ابن آدم خطّاء، ولكننى عازم بنية صادقة على إصلاح الخطأ وتصحيحه، ومن أجل هذا جئت لأضع نفسى تحت تصرف العدالة.

وأضاف قبل أن يمنح الضابط فرصة للسؤال:

- إن الطفل الذى يتحرك فى أحشاء تلك الصبية إنما هو طفلى.

امتلأ وجه الضابط بتعبير غريب لم يكن اندهاشاً أو استغراباً أو سخرية بقدر ما كان وجوماً وسكوناً، كأنما تعطلت حواسه، غير مصدق لما يسمع، أو غير قابل لأن

يسمع ما يسمع، أو يرى ما يرى، فى حين واصل الشيخ اعترافه غير عابئ بما طرأ على وجه الضابط من تحولات:

– لقد ارتكبت معها الفاحشة التى نهت عنها السماء، إنها الغواية التى يبثها فى قلوبنا الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس، فلم أعرف كيف أقاوم ضعفى، وفعلت ما فعلته معها عندما جاءت مع الفجر تعترض طريقى عند برج النعام.

– ولكن من هى؟

قالها الضابط بصوتٍ واهن ضعيف لم يعبأ الشيخ بسماعه فمضى يقول:

– لذلك فقد جئت لأسجل اعترافى وأبدى استعدادى للزواج منها فى الحال.

وعاود الضابط طرح السؤال بصوت استعاد شيئاً من حيويته هذه المرة:

– ولكن من هى يا شيخ نصر الدين؟

– أريد أن أتزوجها ستراً للفضيحة ورحمةً بالجنين الذى فى بطنها.

عاد الضابط يلح على معرفة اسم المرأة التى زنى بها الشيخ:

- لم تقل لى من هى.

صمت الشيخ قليلاً قبل أن يقول:

- جميلة ابنة عامر اليتيم.

ما الذى جرى لهذا الشيخ الذى لابد أنه قد بلغ السبعين من عمره، لم يكن ما قاله قابلاً للتصديق، كان الضابط على يقين من أن شيئاً ما خطأ، لعله فى نظام الكون، هل هو الجنون؟ ولكن الشيخ هادئ الأعصاب يتحدث بطلاقة وعفوية ويدلى بأقواله حول حادثة الزنى بوقار واتزان، لا تحس وراء سحنته أى أثر لتلك الشحنات البركانية التى تقذف بها عادةً الأعماق الموتورة لرجل مجنون.

لم يجد الضابط شيئاً يقوله للوهلة الأولى، ظل صامتاً يتأمل الشيخ الذى يطفح وجهه بسعادة من أزال عن قلبه حملاً كبيراً، مهيباً، جليلاً، وقد بدت لحيته الكثيفة وكأنها صنعت من السحب البيضاء، أحس برغبة لأن يخرج إلى فناء المركز يستنشق الهواء، وفى يقينه أن عطباً أصاب جوهر الحياة حتى جعل عقلاً تربى فى رحاب كتاب اللّه وصمد

كالقلاع الكبيرة فى وجه أهواء النفس يتهاوى وينهار، تـــذكر أن الشيخ كان ضحية مزاح ثقيل عندما أرسلوا إليـــه غولـــة وهمية تلاقيه عند الفجر قريباً من برج النعـــام وتســـاءل إذا كانت تلك الحادثة قد تركت فى عقله أثراً لم يبرأ منه حتـــى الآن، عاد وفى يده طاسة الشاى التى قدمها للشيخ قائلاً:

– يبدو أنك متعب قليلاً يا شيخ نصر الدين، وأرى أن تذهب إلى البيت لترتاح بضعة أيام وسوف تـــدرك أن هـــذا الإثم الذى ارتكبته مع الفتاة ليس إلا أضغاث أحلام، سأنســـى أنا الموضوع وأرجو أنت أيضاً أن تنساه فلا تـــأتى بـــذكره لأحد من الناس.

وقف الضابط ومد يده مودعاً، صافحه الشـــيخ ولكنـــه ظل جالساً فى مكانه لا يتحرك، ممســـكاً بيـــد الضـــابط لا يتركها.

– أعرف أنك تريد أن تتستر على، لكننى لا أســـتطيع أن أقبل هذا الفضل، لقد زارنى فى النوم كوكبة من الشـــيوخ الأفاضل الذين أخذت على أيديهم العلم وكانوا غاضبين لأننى فعلت ما فعلت وكتمت الأمر، وأمرونى أن أعتـــرف بـــذنبى

وأعلن للناس خطأى وأتقدم للزواج منها علـــى ســنّة اللّـــه ورسوله.

حاول الضابط صادقاً أن يقنـــع الشـــيخ بـــأن ينســـى الموضوع، استعمل كل ما اهتدى إليه من حجج، توسل إليـــه أن يؤجل اعترافه بضعة أيام حتى يتأكد من أن هذه الحادثـــة لم تكن مجرد شيء رآه أثناء النوم، رجـــاه أن يفكـــر فيمـــا سيلحق باسمه الذى كان دائماً نقياً من أوحال وما سيسببه من كدر لأهل القرية الذين أحبوه واختاروه إماماً ومرشداً لهم فى أمور الدين، وأبلغه بأنه إذا ما فتح المحضر فلابـــد مـــن أن يأخذ التحقيق دورته الكاملة وسيضطر عندئذٍ للـــتحفظ عليـــه وإيداعه سجن المركز كما تقضى بذلك التعليمات وســـيلحق الأذى الفتاة التى قال إنه ارتكب معهـــا الفاحشـــة وستســـاق للتحقيق أمام الناس، وسيرفع القضية إلى السلطات المركزية فى عاصمة المحافظة، ولكن الشيخ استمر فـــى إصـــراره، رافضاً أن يغادر المركز أو يتنـــازل عـــن أقوالـــه مكـــرراً استعداده للزواج منذ هذه الليلة بابنة عامر اليتيم.

بقى الضابط يتأمله وهو يكتم غيظه، برغم شـــيخوخته فهو مازال قوياً موفور الصحة، لعل الفتاة وجدت فيه شـــيئاً

أغواها، أو لعله افتتن بجمالها فكتب لها تعويذة من تلك التعاويذ التى يعرف هؤلاء الفقهاء أسرارها، فجعلها تسير فى نومها للقائه عند تلك الخرائب، ثم لحق به الندم فجاء يسجل اعترافه، كل شيء قابل للاحتمال والتصديق، وغاضباً صاح منادياً شرطى التحقيق، جاء الشرطى مهرولاً، فسأله بلهجة حانقة أن يأتى بالسجل ويفتح محضراً للشيخ يأخذ فيه كل أقواله ويختمها بتوقيعه ثم يودعه غرفة السجن، فى حين قرر أن يذهب بنفسه إلى بيت اليتيم.

بدت المهمة صعبة وكريهة، تمنى لو عهد بها إلى أحد أفراد الشرطة، ولكنه أراد أن يذهب بنفسه لعله يستطيع أن يعالج الموقف بأقل قدر من الضجة والإثارة، سأل السائق أن يذهب إلى المستودع الحكومى أولاً، تنحى باليتيم جانباً وأخبره بما حدث، قائلاً بأنه حاول إقناع الشيخ بالعدول عن أقواله، رافضاً أن يفتح له محضراً أو يأخذه مأخذاً جاداً إلا أنه أصر على إثبات أقواله، وهو ينتظر الآن مصيره فى سجن المركز، وإن التحقيق سيأخذ بالتالى دورته ولابد من سؤال ابنته وعرضها على الفحص الطبى.

بدا وجه اليتيم كوجه رجل مات وانطفأت فيه الحيــاة، حركه الضابط من كتفه وكأنه خشى أن يكون فعلاً قد مات، لكنه رآه يقول وهو مازال ميتاً:

- هل قلت الشيخ نصر الدين؟

قال الضابط فى اقتضاب وإعياء:

- شىء لا يصدق، ولكنه هو.

وجد اليتيم بجواره صندوقاً فارغاً تهالك فوقــه وقــد تحول إلى حجر جامد بلا حياة ولا حركة، كان الضابط يدرك مدى الصدمة التى أصابت اليتيم، فجلس بمحاذاتــه صــامتاً يجفف عرقاً غزيراً ينز من جبينه وعنقه وينتظر اليتيم حتــى يعود إلى الحياة.

لم يكن بمستوصف القرية ما يكفى من المعدات لإجراء الفحوص التى يتطلبها التحقيق، فكان لابد من أخذ جميلة إلى عاصمة المحافظة، كان الضابط قد أجرى معها تحقيقاً سريعاً فى مربوعة البيت، أبقى الباب مفتوحاً وسألها علــى انفــراد وبصوت بطيء، هامس، سؤالاً واحداً حول ما إذا كــان قــد جرى اتصال جنسى بينها وبين الشيخ نصر الــدين، باكيــة، محمومة، تنتفض غضباً، وحزناً، وحرجاً ومهانة، استنكرت

هذه التهمة، وباكية محمومة دخلت مع والـــدها والممرضـــة التى جاءت تصحبها، صندوق سيارة الإسعاف، فـــى حـــين ركب الشرطى المكلف بمرافقتها وجلب التقارير الطبية عـــن حالتها بجوار السائق، وما حدث بعد ذلك فقد كـــان كابوســـاً اختلطت فيه أصوات الصغار الذين تحلقوا كالجرذان حـــول سيارة الإسعاف، ورجال القرية الذين رأتهم من خلال زجاج نافذة السيارة المتسخ يقفون على جوانب الطريق يرقبونها وقد انعكس اتساخ الزجاج على وجوههم فبدت مشوهة، قبيحـــة، كأنهم أشباح خرجوا لتوّهم من إحـــدى الخرافـــات، إلـــى أن وصلت إلى مستشفى المدينة، ووجدت جسدها عارياً، مباحـــاً لنظرات ولمسات أكثر من رجل وامرأة، بينهم أجنبى يـــتكلم لغة غريبة، كانت قد رفضت بقوة خلع ملابسها فى حضـــرة هؤلاء الناس، ثم وجدتهم يرغمونها على التعـــرى إرغامـــاً وينضون عنها ملابسها عنوةً، وهى صارخة متشنجة، تدفعهم عنها وتمنعهم عن جسمها بلا فائدة، واضطروا فـــى النهايـــة إلى إعطائها حقنة مخدرة أفقدتها وعيها، ولم يكن مهماً بعـــد ذلك أن تأتى التقارير مؤكدة سلامتها، كاشفة جنـــون الشـــيخ وتخاريفه، لم يعد مهماً بالنسبة لها أن تعرف ما يحدث لـــذلك

الشيخ، أو ما تقول ألسنة القرية عنها، فقد بدت وكأن حالة الغيبوبة التى أحست بها عندما أعطوها حقنة التخدير قد استمرت معها ولم تشأ أن تفارقها، عادت إلى البيت ساهمة، واجمة، لا تكلم أحداً، ولا ترد على أحد، ولا تمد يدها بالتحية لأحد يمد لها يده، كأنها لا تريد شيئاً ولا ترغب فى شىء إلا أن تموت.

كانوا قد أخذوا الشيخ إلى محكمة بعاصمة المحافظة ثم اتضح جنونه فأبقوه أسبوعاً للعلاج وتركوه بعد ذلك يغادر المصحة، رآه أهل القرية يعود من رحلته وقد حلقوا له شعر رأسه ولحيته، ضاع الوقار وضاعت المهابة وظهرت عيوب البدانة وقصر القامة ونتوء الوجه الذى صار مثل طائر ميت سلخوا عنه الريش، ذهب بعض أصحابه ومريديه ومن بينهم الشيخ مسعود يطرقون بابه للزيارة والمواساة، خرج إليهم يبصق فى وجوههم ويشتمهم بكلمات قبيحة نابية تطول شرف أمهاتهم ونسائهم، أطرقوا برؤوسهم خجلاً وأدركوا أن فجيعتهم فى الرجل فجيعة دائمة، فى حين أقفل هو باب بيته، وظل هناك لا يغادره إلى أن مات بعد ذلك بأسابيع قليلة.

كانت القرية قد وجدت فى القصة الجديدة طعاماً شهياً لأحاديث السهر فى ليالى الصيف التى تدلت نجومها كبيرة وقريبة من الأرض مثل القناديل، وعلى غير عادتهم صار الناس يطيلون السهر فى الحلقات التى تعقد أمام الدكاكين، ويرفض الواحد منهم أن يعود مبكراً إلى البيت لكيلا يحرم نفسه من الاستماع إلى آخر التفسيرات والتحليلات لما حدث، كما دب نشاط جديد فى أوساط النساء، فصرن يكثرن من التزاور والتجمع حول براريد الشاى وقد وجدن موضوعاً مثيراً لقصة تحدث أمام أعينهنّ عن شيخ تقى، ورع، ترك الصلاة، والمسبحة، والعبادة، وهام على وجهه فى حب بنت اليتيم. وكانت أكثر التفسيرات لسلوك الشيخ رواجاً، التفسير الذى يقول بأن روح الدرويش قد تلبست جسم الشيخ نصر الدين، لقد ذهب إلى بنت اليتيم ليطرد تلك الروح المعذبة التى تسكنه ولكن الدرويش الذى خرجت روحه مطرودة من بيت معشوقته، انتقم لنفسه واستولى على جسم الشيخ يسكنه بكل عذاباته ولوعته، وهكذا أصبح الشيخ نصر الدين درويشاً مهووساً بعشق جميلة، يتخيل أنها تواعده ليلاً وتأتيه ليضاجعها بين الخرائب القديمة، ومنهم من مضى يؤكد أن

الشيخ كان صادقاً فى كلامه عن ليلة الحب التى قضاها معها، لقد أغوته جميلة وراودته عن نفسه حتى نسى علمه وتقواه وسقط فى الإثم والخطيئة، فهى ليست إلا روحاً شريرة استهدفت أكثر رجال القرية تديناً وطهراً لكى تسلبه عقله ودينه، وإن التقارير الطبية التى تتحدث عن سلامتها ليست إلا حيلة تمنع بها الحكومة استفحال الأمر وارتكاب جرائم القتل، وعندما يأتى صوت يعترض على هذا الرأى قائلاً:

- ولكن هل تعتقد أن شيخاً فى عمره مازال قادراً على فعل ذلك الشيء.

يرد عليه الآخر مؤكداً:

- إن فى تاريخ قريتنا رجالاً تزوجوا وأنجبوا وهم فى التسعين.

ويرتفع أكثر من صوت محذراً بأنه إذا كان الدرويش أول ضحاياها فإن الشيخ نصر الدين لن يكون آخرهم، إن رؤوساً كثيرة سوف يصيبها الدوار وتسقط فى ذات الحفرة التى لا قرار لها والتى سقط فيها الشيخ والدرويش.

(٢٧)

ترك العيد عمله وهجر دراسته وأقام فى القرية غير عابئ بالرسالة التى تلقاها من إدارته تهدد بطرده إذا لم يعـــد إلى عمله، عافت نفسه الانضمام إلى هذه الحلقات التى يعقدها أهل القرية كل ليلة يلوكون فيها موضوعاً واحداً لا يلمونـــه، رأوا شيخاً مهووساً يذكر اسم جميلة فوثبوا علـــى الفرصـــة يملئون بها الفراغ الموحش الذى يأكل أيامهم بعد أن بـــارت أسواقهم ودكاكينهم وضاعت أحلامهم فـــى المصـــنع الـــذى وعدتهم به الحكومة، جاءت جميلة شمساً تضىء ظلام الكهف فخرجت العناكب والعقارب والجعارين وطيور الليل تعـــزف نشيداً واحداً ضد هذا الضوء، ابتعد عـــن مجالســـهم كارهـــاً الحديث معهم أو الالتقاء بهم، لم يعد كما كان ســـابقاً يبـــادر بالتحية كل من يلاقيه، بل صار إذا سمع تحية من أحد تظاهر بأنه لم يسمعها، أو هو فعلاً لا يسمعها، لأنه أغلق أذنيه عـــن أصواتهم، وأغلق عينيه عن رؤيتهم، وأوصد عقله وقلبه فى وجوههم، هجر الجلوس فى المقهى والذهاب إلى الـــدكاكين وسوق يوم الجمعة، ولم يعد يختلط بأحد أو يزور أحداً سوى أمى سعيدة التى صار يتردد على بيتها كل يوم، يسألها أسئلة معادة، مكررة، عن جميلة وتجيب نفس الإجابـــة، وعنـــدما

تتأخر يوماً عن الذهاب إليها، يلومها على هذا التقصير، ويلح عليها فى الذهاب، فكانت تذهب وتعود دون أن تأتيه بجديـــد، فجميلة ما زالت فى ذهولها، غارقة فى صمتها، لم يسمع أحد منها كلمة واحدة منذ أن عادت من رحلة الكشف الطبى.

حاول العيد ذات يوم أن يذهب إلى المدينـــة ليلتحـــق بعملة على أن يعود فى عطلة نهاية الأسبوع ولكنـــه مـــا أن وصل إلى هناك حتى وجد نفسه يترك المكتب بعد أقل مـــن ساعة، ومتبرماً ضجراً ظل يتجول فى شوارع المدينة علـــى غير هدى، لم تكن "مغارة الحلم" مكاناً يرحب بضيوفه قبـــل مجيء الليل، ولكنه مدفوعاً بالملل والكآبة وجد نفسه يـــذهب قبل الظهر إلى هناك، فأجا صاحبه البيت نائمة، أدخلته على مضض وأدارت قرص الهاتف تبحث له عن جليسة ثم ألقت السماعة وعادت إلى نومها عندما لم تجد له أحداً، بحث عن شئ يبدد به الوحدة والملل فى انتظار مجيء الليـــل وبدايـــة السهر، وجد كومه من المجلات النسائية والفنية التى صـــار يقبلها دونما رغبة، ثم ما لبث أن رمى بها وقد تذكر أنه جائع لم يتناول إفطاراً ولا غداء، ذهب إلى المطبخ يبحث عن شئ يأكله، رأى الرفوف تمتلئ بزجاجات النبيذ فأدرك أنه اهتدى

إلى بغيته، لم يكن يشرب الخمـــر إلا لمامـــاً وإذا شـــرب لا يشرب إلا كأساً واحدة مسايرة لرفاق السهرة ولكنه لأول مرة يحس برغبة قوية فى الهروب إليها والاحتماء بغيبوبتها مـــن سام ورتابة هذا اليوم الطويل الذى لا يريد أن ينتهى، أرغـــم نفسه إرغاماً على ابتلاع الكأس الأولى والثانيـــة، شـــربهما بنفور واشمئزاز، راق له الشراب بعد ذلك، فأحضر صحون المزة التى تبقت فى المطبخ من سهرة الليلة الماضية وصار يرتشف الكأس وراء الأخرى بشراهة ولذة، صعدت الأبخرة إلى رأسه، وتضاءل الكون بكل ما يرزح بـــه مـــن همـــوم ومشاكل حتى صار فى حجم عقب الســـيجارة، جـــاء الليـــل سريعاً والعيد منتش مخمور، رأى المكان يمتلئ بنساء شـــبه عاريات ورجال يعرف بعضهم ولا يعرف بعضهم الآخـــر، يعانقون النساء ويغنون احتفالاً بعيد ميلاد إحدى الحاضرات، كان فى شبه غيبوبة غير واع بما يدور وما يقال، وعنـــدما أفاق افى الصباح وجد بجواره امرأة نصف عارية تسيل فوق وجهها الدميم المساحيق والأصباغ وتفوح منها رائحة التبـــغ والعرق والخمور، آثار القى على ملابسه ومطارق الألم فى رأسه، خرج هارباً، ناقماً على نفسه، وبحث عن سيارة أجرة

ذاهبة إلى قريته، حشر نفسه بين ركابها، وعاد إلى ضياع آخر بين طرقات القرية.

- يجب عرضها على الطبيب دون تأخير.
- وهل أصابها ما أصابها إلا بسبب الأطباء.
- ليس من العدل أن نقف مكتوفي الأيدي ونحن نراها تضيع أمامنا.

هاهو مرة أخرى يقف عاجزاً غير قادر على أن يفعل شيئاً من أجلها، تستحم وحدها في نهر الجحيم وهو يقف على ضفة النهر يمسح عن وجهه العرق يلعن العجز والزمن ويبحث عن معنى لمعاناة الإنسان وعذابه في عالم من العبث واللا جدوى، سمعته أمي سعيدة يقول كلاماً غامضاً يعبر به عن تبرمه بالدنيا وشكه في أن هناك قوانين تحكم هذه الفوضى، فقالت:

- لا تفقد إيمانك يا ولدي ولا تنس أن هناك واحداً أحداً، فرداً صمداً، لا يغفل ولا ينام.
- ليس هناك من هو أكثر إيماناً من الشيخ نصر الدين.

- إنه ليس أول إنسان يفقد عقله.

ولن يكون آخر إنسان، فما هذه الطبول التـــى تمـــلأ الآن رأسه بالضجيج إلا إشارة لقدوم شئ، قال يسألها:

- متى تأتى الإشارة بنهاية الكون؟

قالت المرأة العجوز وكأنها أخذت كلامه مأخذاً جاداً، وكأنها تنتظر مجيء هذا اليوم فى زمن قريب.

- عندما تشرق الشمس من الغرب.

لعلها قد أشرقت من الغرب الآن، ولكـــن لمـــاذا لا تحاول أمى سعيدة إحضار جميلة إلى هذا المكان ولو لمـــرة واحدة، إنه على يقين من أن لقاء يتم بينه وبينها سوف يعيـــد لكون شيئاً من توازنه ويمنع الشمس مـــن أن تشـــرق مـــن الغرب.

قال يشرك أمى سعيدة فى حيرته:

- إننى لا أجد تفسيراً لهذه الحمى التى أصابت القرية، رأيت أكثر الناس طيبـــة وســـذاجة

يمشون فى الطرقات وقد نبتت لهم أنياب زرقاء.

- الدنيا أكثر تعقيداً من أن تعرف امرأة مثلى تفسيراً لأسرارها.
- قد أفهم دوافع الرجال الذين تمنوها لأنفسهم وعندما عزت عليهم صاروا ناقمين يكحتون التراب فى وجهها، ولكن ما سر هذا السعار الذى أصاب النساء، إننى اشتبك فى عراك دائم مع أمى لأنها تصر على عقد هذه المجالس التى تقتات على سيرة جميلة، فى بيتها كل يوم، تشفياً من عامر اليتيم.
- إن النساء لن يغفرن لها هذا الجمال الذى أبطل كل جمال آخر.

لعن فى سره هذه القرية التى تقدس القبح وتكره أن تنبت فى تربتها الكالحة السواء زهرة جميلة واحدة، قال بين أسنانه:

- من قال إن العصر الحجرى قد انتهى؟

اشتعل فى قلبه حنين عارم لأنــه يــرى عينيهمــا، ويراهما الآن وفى هذه اللحظة، دقات الطبــول فــى رأســه تدعوه أن ينطلق من هذا المكان ويذهب الآن إليها، تساءل إذا كان هذا الإحساس الذى يعذبه الآن هو ذاته الذى تتحدث عنه القصص ويتغنى به المغنون، ولكن من يحب جميلــة لــيس كمن يحب امرأة أخرى، إنها نسيج وحدها بين النساء، تذكر الدرويش وكيف أحاله حبها من نبات بشرى لا يفهم ولا يعى قوة بركانية هائلة جاءت تزلزل الأرض وتقذف الحمم، كــان حباً بائساً فجاء يرمى بكتل النار فوق جميلة، يدمرها ويدمر نفسه، وتذكر الشيخ نصر الدين، عمر كامل من الزهد وقهر العواطف ونكران الذات وإخماد الرغبــات الإنســانية التــى تعتمل فى مجاهل النفس، ما إن رأى وجهها حتى اســتيقظت تلك العواطف المشنوقة وعادت إلى الحياة تحولت إلى سرب من الطيور الجارحة التى انطلقت مجنونة تفتــك بفريســتها، وهاهو ذات الحب يدفعه الآن لأن يرتكب حماقة كبرى فــى حقها، رغبة مجنونة لا يستطيع كبحها تطالبه الآن بأن يذهب إليها ويروى عطش عينيه إلى رؤيتها، تمنــى لــو أن أمــى

سعيدة تعده الآن بإحضارها وتجنبه مغامرة الذهاب إليها واقتحام بيتها كالمجنون.

لكن أمي سعيدة لا تعد بشيء.

كان نداء الطبول يزداد عنفاً في رأسه، وطائر النار يحوم في قلبه ويجعله لا يقوى على البقاء، فقام من فوره ويخطى سريعة سار باتجاه بيت اليتيم.

(٢٨)

أسدل عامر اليتيم الريش فوق جراحه، قرر بينه وبين نفسه أن يعتبر ما حدث صفحة سواء يجب أن تطوى بعد أن تأكد للناس سلامة شرفه وشرف ابنته، أو هكذا يجب أن يظهر أمام الناس، اعتكف في البيت ليومين أو ثلاثة أيام، وجد أن البقاء في البيت يطيل عمر المحنة، يزيده مرضاً وينقص شيئاً من كبريائه أمام الناس ويملأ رأسه بأحلام سوداء تأتيه في النوم واليقظة يرى خلالها نفسه يأخذ مدية ويغرسها في قلب الشيخ نصر الدين، ما ذنب رجل سكنت روحه العفاريت وفقد عقله، هاهو البناء الذى ظنه آمناً ينهار

فوق رأسه حجراً حجراً، الشيخ الذى وعده بالجنة فر هارباً إلى عالم الجن والأبالسة بعد أن قذف به إلى الجحيم، المتصرف خرج من بيته غاضباً وامتنع عن زيارته ولن يأتى مرة أخرى إلا إذا حدد له موعداً قريباً لإقامة العرس، والعروس ذابلة مريضة، تحتمى بالصمت، وتنتظر فى أية لحظة أن تذوب وتتلاشى فى الهواء، ولكى لا يفقد هو أيضاً عقله، فقد ترك جلسة البيت، وبنفس مكسورة عاد إلى عمله بالمستودع، وبقلب تسلل العطب إلى إيمانه عاد إلى حضور صلاة الجماعة فى المسجد، يمشى فى الطريق وهو يدير وجهة إلى الناحية الأخرى لكيلا يرى حلقات الرقص البدائية التى يعقدها أهل القرية حول فريسة ابنته التى عادوا بها تواً من الغابة.

وما أن يأتى الصباح ويذهب اليتيم إلى عمله حتى تترك زوجته ابنتها فى البيت بصحبة إخوتها الصغار، ترتدى لحافها وتذهب لتطوف بأضرحة الأولياء، تحمل لهم النذور، وتضىء لهم الشموع وتحرق الأبخرة وتدعو لابنتها بالشفاء، وتبحث عن الفقهاء الذين يكتبون لها أحجبة تعود بها لابنتها وتطلب منها أن تعلقها فى عنقها أو تحرقها وتستنشق دخانها

أو تنقها فى الماء وتشرب ماءها، ولكن جميلة ترمى بها فى كل مرة بعيداً عنها وهى جافلة لا تقول شيئاً، ليتهـا تـتكلم، تسب أو تشتم، ولكنها دائماً صامتة، تقـرأ الكتـب وتسـمع الأغانى فى المذياع وتساعد أحياناً فى أعمال البيت، ولكنهـا لا تقول شيئاً، ولا تعلق بشيء، حتى ذهب فى ظن أمهـا أن ابنتها قد أصبحت بكماء غير قادرة على النطق.

كانت قد عادت لتوها من إحدى جولاتها بين القبور، خلعت لحافها وبحثت عن ابنتها، رأت باب غرفتهـا مغلقـاً فجاءت تدق عليها الباب، لـم تسـمع رداً، فـدفعت البـاب ودخلت، كانت جميلة تتمدد فوق سريرها مستغرقة فى النوم صاحت بها:

- هيا انهضى، لقد انتصف النهار وأنـت مازلـت نائمة.

ارتفع صوتها ينادى جميلة مرات عديدة، ولكن ابنتها ظلت نائمة لا تسمع النداء، تقدمت من سـريرها وأمسـكت بكتفها تهزها برفق، ظلت جميلة نائمة فهزتها بعنـف هـذه المرة، وعندما لم تسمع من ابنتها رداً أدركت أن الأمر ليس

طبيعياً فصرخت تناديها وتمسك بكلتا يديها تهزها بكل ما تقدر عليه من قوة، أصابها الذعر وهى ترى ابنتها غارقة فى نوم غريب لا تقوم منه، صارت تبكى وتصرخ، ترتمى فوقها ثم تشدها من شعرها وتصفعها فوق وجهها وقد جاء ذلك الخاطر يملأها رعباً وجنوناً، خاطر أن تكون ابنتها قد أسلمت الروح، فهى فعلاً تبدو جثة هامدة، احتبست أنفاسها وفارقتها الحياة، وقبل أن تبدأ فى النواح وشق الجيوب والخروج إلى الشارع تصرخ وتكحت التراب طالبة النجدة، رأت ابنتها تفتح عينيها وتديرهما فى وجهها فشهقت وانهارت على ركبتيها فوق الأرض وتمسك قلبها بكلتا يديها كأنها تخشى عليه السقوط، خرجت الكلمات من بين أنفاسها اللاهثة، متقطعة، مرتعشة، باكية.

- لقد أفزعتنى، كدت أظن أنك فارقت الحياة، فما الذى حدث؟

كان الفزع يرتسم على ملامح جميلة أيضاً، لأن ما حدث لها شئ لا تفسير له سوى أنها ماتت وعادت إلى الحياة مرة أخرى، إنها تعلم الآن جيداً أنها لم تكن نائمة، ولم يكن ما رأته حلماً من أحلام النوم أو اليقظة، لقد استقلت فوق

الفراش تقلب صفحات كتاب مدرسى، أحسـت بتعـب فـى عينيها فوضعه بجوارها تستريح قليلاً وذهبت تتجول ببصرها فى سقف الغرفة، ثم فجأة رأت نفسها وكأنها خرجـت مـن جسمها، وارتفعت تحوم فوق السرير ثم وقفـت قريبـاً مـن السقف، كانت تستطيع أن ترى جسمها هامداً وقـد فارقتـه الحركة والحياة، ممدداً على السرير كأنه جسم مرة أخـرى، وأن ترى وجهها هادئاً وشاحباً شحوب الموتى، وشبه ابتسامة ترسم على شفتيها، وأن ترى أيضاً تلـك الظـلال الباهتـة الزرقاء تحت عينيها المغمضتين وأكثر من ذلك كله كانـت تستطيع أن ترى من خلال الجدار، رأت أمها عندما دخلـت البيت وخلعت عن جسمها اللحاف الذى ترتديه عند الخروج، ورأت أطفالاً من بينهم إخوتها يلعبون أمـام البيـت، ورأت العيد وهو يقطع الطريق فى خطى سريعة باتجاه بيتهم، ثـم رأته يقف قريباً من البيت عندما رأى رجـلاً يحمـل سـلة خضار وبقى يشيعه بنظراته حتى يختفى، كانت تسـتطيع أن ترى هذا كله، وكانت تحس بسعادة عظيمة وهى تطفو فـى الهواء متحررة من الضيق الذى كان منـذ لحظـات يأخـذ بخناقها، لقد اختفت كل تلك الهواجس التى قذفت بها إلى دنيا

الصمت والكآبة، وحل مكانها سلام وطمأنينة، وراحة عميقة لا تذكر إنها أحست بمثلها فى حياتها، كأنها اتحـــدت بـــروح الكون وصارت جزءاً منها، رأت أمها تدق بـــاب غرفتهـــا فكرهت أن تأتى الآن وتأخذها من هذه الحالة الآمنة البهيجة، وتبدد هذا الصفاء وهذه النشوة التى تغمر الآن روحها، رأتها تدخل الدار وسمعت الكلمات التى قالتها ورأتها عندما تقدمت نحوها تهزها بعنف وهى تحاول إيقاظها، ثم حالة الذعر التى أصابتها عندما عجزت عن النهوض والاستجابة لدعوتها كى تستيقظ، ثم رأت حالة الأمن والسلام تغادرها وهـــى تفـــتح عينيها لتجد أمها منهارة تبكى، وعندما سمعت بعد ذلك الباب يدق وعرفت أن العيد هو الذى جاء ازدادت يقيناً بـــأن مـــا حدث لها لم يكن حلماً أو وهماً أو خيالاً وإنما تجربة غريبـــة رأت العيد يدفع الباب بقوة ويقتحم البيت كالزوبعة قائلاً:

- أريد أن أراها.

سألته من فورها أن يعود من حيث أتى، سألته وهى ترتعش خائفة من أن يكون قد جرى لعقله شـــئ، مـــذعورة وهى ترى ابنتها ما أن تنتهى من مجنون حتى يظهـــر لهـــا

مجنون آخر، كأن السماء صارت تمطر مجانين، ولكنه عاود السؤال صارخاً:

- أريد أن أراها الآن.
- اكفنا شرك، واذهب إلى حال سبيلك، يكفى ما نحن فيه من البلاء.
- لن أذهب حتى أراها.

كانت جميلة قد سمعت ذلك كله فأصلحت شعرها وخرجت من غرفتها لترى العيد، زادها الضعف والشحوب شفافية فبدت فى عينيه كأنها تنتمى إلى عالم آخر أكثر جمالاً وعذوبة وسحراً، وقف مبهوراً صامتاً، يطفئ لهف عينيه إلى رؤيتها، افترت شفتاها عن ابتسامة ترحيب وفرحة باللقاء، تمنى لو أنه يستطيع أن يعانقها، ولكنه اكتفى باستمرار البهجة التى غمرته لحظة ظهورها، توقف نداء الطبول فى رأسه، وعاودته طبيعته الهادئة، تحقق ما جاء من أجله ولن يطالب بالمزيد، ولكن جميلة منحته أكثر مما أرد عندما مدت يدها قائلة:

- أهلاً يا عيد.

دفقة أخرى من النشوة جاءت تسرى فـــى شـــرايينه وهو يضع يده فى يدها ويستمع إلى الكلمــات التـــى قالتهــا ويغمض عينيه كأنه يرى حلماً، والأم التى كانت تقف فى بهو البيت حانقة، غاضبة، تصرخ فى وجــه العيــد أن يــذهب صارت الآن تكبر وتهلل وتشكر الله وقد انبســطت تجاعيــد وجهها ودمعت عيناها غبطة وفرحة، ومسرعة ذهبت إلـــى المطبخ وأحضرت المشروب احتفالاً بالمناسبة وإكراماً للرجل الذى أعاد النطق لابنتها.

لم تستطع أن تدعوه إلى الجلوس والبقاء خشــية أن يأتى أحد الناس ويلقاه جالساً مع ابنتهــا، فظلــوا جمــيعهم واقفين، قالت وهى تمد له كوباً من رحيق الرمان الممــزوج بالماء:

- كدت أفقد الأمل فى أن تعود ابنتى إلـــى الكـــلام مرة أخرى، لم يكذب من أسماك العيد، فها قــد صنعت لنا عيداً فى بيتنا.

ثم التفتت إلى ابنتها تعاتبها:

- لماذا يا ابنتى تلقين هذا الرعب فى قلبى، لماذا بقيت صامتة، تاركة أملك وأبيك للحزن وشماتة الأعداء؟

غرفت جميلة فى الصمت من جديد، والعيد يتأملها بعيون عطشى ولا يقول شيئاً، والأم تركت مطبخها وظلت واقفة تجفف رطوبة عينها وتحاول أن تسمع ابنتها تتكلم مرة أخرى، وكأنها لا تصدق أنها حقاً قد قالت للعيد أهلاً، تكلمت عن الأولياء الصالحين الذين استجابوا لدعوتها، وعن الوعد الذى قطعته لسيدى أبو قنديل بأن تذبح كبشاً تطعمه لزائرى ضريحة إذا ما وعد النطق لابنتها، ألحت بالأسئلة ترغمها على الكلام، قالت جميلة مصهورة فى وهج المعاناة التى عاشتها:

- لو عرفت بهجة الصمت مثلى لما وجدت رغبة بعد ذلك فى الكلام.

(٢٩)

جاء الخبر كالعاصفة التى تهب فتملأ عيونهم بالتراب، نسى أهل القرية أحاديث جميلة والدرويش ونصر الدين وانشغلوا بالخطر الذى جاء يداهمهم ويهدد قريتهم بالانقراض.

بدأ الخبر شائعة جاء بها القادمون من المدينة قائلين بأن الحكومة لم تعد ترى فائدة من وجود قرية مثل "قرن الغزال" بعد أن نضبت الصحراء من البدو وانتهى دورها كمركز تجارى واختفت منها مصادر الرزق الأخرى، ولذلك فقد وضعت الحكومة خطة لترحيل أهلها ضمن مشروع جديد للحد من الإنفاق، وستنقل العائلات التى تقطن "قرن الغزال" إلى مناطق أخرى للاستفادة منهم فى استصلاح أرض زراعية جديدة بالمناطق الساحلية يستوطنون بها، وتساءلوا عما حدث لمصنع الزجاج الذى ستقيمه الحكومة ليكون مورداً جديداً للرزق، فأخبروهم أن البعثة العلمية التى جاءت لإنشاء المصنع لم تكن إلا لجنة عسكرية يرأسها ضابط أمريكى لبحث إمكانية الاستفادة من موقعها وأبنيتها فى إنشاء قاعدة تدريب عسكرية للأمريكيين، وأن مصنع الزجاج لم

يكن إلا ذريعة لإخفاء هذه الحقيقة ولضمان تعاون المواطنين وعدم استفزازهم للضابط الأمريكى وبين مصدق ومكذب صاروا يتناقلون الخبر ويضربون كفاً بكف استغراباً لهذه البدعة الجديدة التى لم يسمع أحد بمثلها من قبل:

- القرى الأخرى فى الدنيا تكبر وتتحول إلى مدن، وقريتنا تمحى من فوق الأرض، إنها مهزلة

وذهب بعضهم ممن يتقنون القراءة والكتابة ينقبون فى الكتب القديمة التى بحوزتهم، والتى أوردت اسم القرية قائلين بأنها تأسست مباشرة بعد انتهاء عصر الجليد، وأنها قرية ذات تاريخ عريق تمتلئ بآثار القلاع التى حارب منها أجدادهم الغزاة، وأن اختفاء "قرن الغزال" سيكون خسارة للجنس البشرى بأجمعه.

لم يتوقف أحد منهم ليسأل عن النفع الذى سيعود عليهم إذا انتقلوا عن القرية، كلهم اعتبروا الأمر كارثة تحل بهم، وفكرة مجنونة تريد أن تقتلعهم من جذورهم وتخرجهم من ديارهم وترمى بهم فى الخلاء، كثرت الاجتماعات التى صاروا يعقدونها لتدارس الموقف، ما أن يفرغوا من اجتماع حتى يهرولوا إلى اجتماع آخر، أمام المسجد بعد كل صلاة،

ولدى دكان الشيخ مسعود وبيته، وفى ساحة السوق، حلقات تعقد وحلقات تنفض سعياً للوصول إلى وسيلة يواجهون بها الموقف.

- كيف نترك أرض آبائنا وأجدادنا وأوليائنا، وقبور من ماتوا من أهلنا وأحبائنا؟

- إن فى الحكومة وزيراً أمه من قبيلة "المهاريس" التى ظلت تناصبنا العداء لأجيال وأجيال، ما إن وصل إلى الوزارة حتى جاء يطالب بالثأر والانتقام لأخواله.
- لقد أعجبته (اللاقبى) الذى عبه تلك الليلة، فقرر ذلك الضابط الأمريكى أن يستولى على القرية وأشجار نخلها.
- سيتشتت شملنا وتذهب ريحنا إلى الأبد، وتشمت القبائل الأخرى بنا إذا نحن استسلمنا لهذه البدعة التى اخترعها الحكومة.
- إنهم سيقومون بتهجيرنا كما فعل اليهود بأهل فلسطين.

وفى النهاية عقدوا العزم على إرسال وفـد برئاسـة الشيخ مسعود لمقابلة المسؤولين لاستجلاء الحقيقـة وتقـديم عريضة للحكومة يلتمسون منها العدول عن هذا القـرار إذا كانت حقاً قد قررت ترحيلهم عن قريتهم، ملئـوا صـفحات كثيرة بالحديث عن مآثر القريـة وتـاريخ المعـارك التـى خاضتها ضد الغزاة، والأولياء والعلماء الـذين أقـاموا بهـا وماتوا فوق أرضها، ثم أخذ الوفد العريضة وبدءوا بالـذهاب إلى المتصرف الذى لم يكن يعرف شيئاً عن هذا الموضوع، ولكنه تجنباً للظهور بمظهر الجاهل الذى لا يعرف شيئاً عن مخططات الحكومة، لم يجزم لهم بشئ، بقـى يقـول كلامـاً عائماً دون أن يؤكد الخبر أو ينفيه وهو يحس بالحرج خوفـاً من أن يكتشف هؤلاء الناس جهلة فتهتـز مكانتـه وتضـيع بالتالى هيبته فى القرية، أوقعوه فى ورطة أكبر عندما سألوه عن المصنع الذى وعدتهم به الحكومة، لم يكن متأكـداً مـن شئ بعد أن جاءت هذه الشائعات التى تنـذر بقـرب نهايـة القرية، فتش فى ذهنه عن حيلة تنجيه مـن هـذا المـأزق، أخبرهم بأن المشروع يحتاج إلى دراسة جديـدة لأن هنـاك صناعة ظهرت حديثاً تهدد المصـنوعات الزجاجيـة هـى

صناعة "البلاستيك" رمى بهذه الكلمة التى لا أحد منهم يعرف لها معنى، فأدرك أنه أربكهم وأن أحداً منهم لن يعـود إلـى سؤاله مرة أخرى، تركوه وذهبوا إلى المحافظ في عاصـمة المنطقة، دخلوا عليه يقدمون له العريضة، وضـع المحـافظ العريضة جانباً لكى يقرأها فيما بعد وسألهم عـن حـاجتهم، أبلغوه بالأخبار التى يتناقلها الناس عن تفكير الحكومـة فـى إعادة توطينهم بمناطق أخرى، وعما إذا كان ذلك حقيقـة أم مجرد شائعات كاذبة، أفادهم بأن البعثة العلمية التـى زادت قريتهم وضعت تقريراً أوصت فيه بترحيلهم وأن الموضـوع مازال قيد البحث، ولكنه وعدهم خيراً قائلاً بأنه سيعمل على إقناع الجهات أرض جديدة خصبة بدلاً من بقائهم فى قريـة مجدبة قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع، وانقاذهم من حياة الفقر والبطالة، وقف لكى يودعهم صححوا له سوء التفاهم الـذى وقع بينهم قائلين بأنهم بالعكس من ذلك إنما جاءوا يطـالبون بإبقائهم فى قريتهم ويرفضون ترحيلهم عنها، وأن العريضـة التى يحملونها إنما هى التماس من أهل القرية إلى الحكومـة بأن تعجل عن قرار الترحيل.

قال بوجه محتقن تمكن منه الغضب والاندهاش.

- هل تقصدون بأنكم تريدون حياة الجوع الفقر والمذلة؟

- رمى فى وجوههم العريضة وطـــردهم مـــن مكتبه.

عاد الوفد فى مهمته خائبا، وخيمت فـــوق الـــرؤوس سحابة ثقيلة من الهم وانتظار المجهول، بحثوا عن نائبهم فى البرلمان عله يرفع الأمر إلى سلطة أعلى ولكنه اختفى بحجة أنه ذهب للعلاج بإحدى المصحات فى الخارج، غرقوا فـــى دوامة القلق والهوان، يسيرون فى طرقات القريـــة يقلبـــون النظر فى أبنيتها كأنهم يعيدون اكتشافها، كأن كل واحد منهم يريد أن يملأ عينيه بمشاهدها قبل أن يغرقها الطوفان القادم، وكانوا عندما تجمعهم لقاءاتهم الليلية قريبا من شجرة الأثـــل فى ساحة السوق ويتطلعون إلى السماء وهى مليئـــة بنجـــوم تتدلى فوق رؤوسهم كالعناقيد، متوهجة ولامعة، وقد طـــاب الهواء ورطبت أنسامه بعد نهار شديد القيظ، يحسون بالأسى لأنهم قد لا يلتقون هذا اللقاء مرة أخرى وقد لا يجدون نجوماً كهذه النجوم أو سماء كله السماء فى أية بقعة أخرى، ويدور

الحديث مراً، ساخراً، حول الكارثة التى تواجه بلدتهم، وحول عالمهم الذى ينهار ويتلاشى أمام أعينهم.

- إنهم يعدوننا بالجنة فى الأرض التى سينقلوننا إليها.
- ولكنهم لا يعلمون أننا نحيا هنا عيشة الملوك، النوم والبطالة، وهيهات أن نرضى بغيرهما بديلاً.
- إنك لا تعرف جنة الحكومة، سيأخذونك إلى أرض خلاء ويعطونك فأساً ويقولون لك هيا احفر يا كلب.
- يقولون إنهم أعدوا لنا فى المشاريع الجديدة أكواخاً من الصفيح كأنها القصور.
- سيتم توزيعنا بين مناطق مختلفة وعليك أن تتصل بأمك أو أختك أو أخيك عن طريق برنامج بريد المغتربين فى الإذاعة.
- ها هم حكامنا الوطنيون ينفذون ما فشل فيه بالبووجرسيانى وبودوليو، فيؤجرونها قاعدة عسكرية للأجانب.

- لا ترفع صوتك فقد جاء الطربوش.

لم يكن من عادة المتصرف أن يخرج ليلاً يتجول فى القرية، ولم يكن من عادته أيضاً أن يختلط بالناس فى مثل هذه المجالس التى تضم رجالاً اختلفت أقدارهم ومستوياتهم فهو يحتفظ دائماً بتلك المسافة بينه وبين الناس التى يراها ضرورية لحفظ الهيبة والاحترام، رأوه قادماً نحوهم فوقفوا جميعاً يرحبون به، كانوا يجلسون فوق الأرض، تحرجوا من دعوته للجلوس مثلهم، فأسرع أحدهم واحضر كرسياً من دكانه القريب، استغرقتهم كلمات الترحيب والمجاملة ولم يتطوع أحد منهم لفتح الموضوع حتى بادر المتصرف بالكلام.

- ما أكثر الذين يضعون اللوم على الحكومة وينسون أن الحكومة جزء من الشعب.

قال أحد الجالسين مداهناً:

- والشعب جزء من الحكومة.

قال المتصرف جاداً:

- بارك الله فيما قلت، وينسون أن الأموال التى تنفقها إنما هى أولاً وأخيراً أموال الشعب.

كانوا قد عادوا إلى جلوسهم فوق الأرض فى حـين ظل هو جالساً فوق الكرسى الوحيد الذى جاءوا به إليه فبـدأ أمامهم كبيراً شامخاً كأنه رجل عرف أسرار الكون، رفعـوا أبصارهم إليه ينتظرون النتيجة التى يريد أن يصل إليها.

- ولذلك فإنه ليس من العدل أن تنفق الحكومة كل هذه الأموال فى مكان لم يعد يخدم غرضـاً ولا يحقق لأهله مورداً ولا يجنى الوطن مـن وراء ذلك خيراً ولا فائدة غمرتهم سحابة من القلـق، هل يعنى ذلك أن ترحيلهم قد صار قراراً يـأتى المتصرف الآن لتنفيذه.

- إن أرض الوطن زاخرة بـالخيرات والمنـاطق الخصيبة التى تنتظر السواعد الشـريفة تعـزق أرضا وتخرج كنوزها، فما الذى يبقينا فى هـذه البقعة التى لا مورد فيها ولا رزق، سوى بضعة أشجار من النخل التى قاومت الجفاف لسـنوات طويلة وسوف لن تلبـث أن يصـيبها العطـش وتموت وهى الأخرى، تقولون إنها أرض الآباء

والأجداد، وما رأيكم فى ذلك المجاهد الذى ذهب من هذه القرية ليستشـــهد فـــى معـــارك الشـــط والهانى وسوانى بنيـــادم والقرضـــابية والجبـــل الأخضر، هل يرضى بهذا الكلام الغريب الـــذى تقولونه.

تبادلوا النظرات فى صمت، ها هو يوظـــف جهـــاد آبائهم لصالح فكرته وفكرة الحكومة ناسياً أنه إنما يجليهم عن قريتهم ليبيعها إلى مستعمر جديد، أراد أحد الجالســين بـــأن يقول ذلك ولكنه تذكر بأنه عامل تنظيفات بالمتسوصـــف وأن المتصرف سوف يطرده من عمله إذا قال كلاماً يغضبه، رأه المتصرف بهم بالكلام فقال مشجعاً:

- نعم، تفضل.

أحس بالورطة التى أوقع نفسه فيها فبحث عن كـــلام آخر يقوله بحيث لا يغضب المتصرف.

- لقد عاشت "قرن الغزال" فى حمى ولى من أولياء الله الصالحين هو سيدى أبو قنديل، فكيف بـــالله عليك تريدنا أن نتنكر له ونرحل عن هذه القرية

تاركين ضريحه بلا مزارات لا شموع ولا نذور.

- سأنقل لك ضريحه إذا شئت.

رآهم يتبادلون النظرات فأحس بأن جملته استفزت إيمانهم بالأولياء والصالحين، ولكنه لم يكثرت، لقد وصل الآن إلى ما يريد أن يقوله، وسيقوله بحسم واختصار ووضوح.

- ما أنصحكم به الآن هو أن تكتبوا عريضة جديدة ممهورة ببصمات وتوقيعات كل كبير وصغير فى القرية، تطالبوا فيها الحكومة بأن تسرع فى تنفيذ المشروع وترحيلكم إلى الأرض الجديدة، ومن يمتنع عن التوقيع فلتعلموا جميعاً أنه عدو لأهل هذه القرية، لا يريد لكم خيراً ولا نفعاً.

ألقى بتهديده وانصرف، ها قد اتضح كل شئ،فالحكومة لا تريد فقط ترحيلهم ولكنها تريد أن يركعوا تحت أقدامها متوسلين إجلاءهم عن قريتهم.

- ها قد جاء الطربوش وصاحبه يضعاننا فى محنة جديدة.
- رأيت طربوشه من بعيد فبدا لى فى الظلام كأنه يحمل فوق رأسه غراباً.
- لن أضع توقيعى على هذه العريضة حتى لو تنازل لى عن طربوشه.
- إنها المهانة والإذلال إنها اللعنة تطارد "قرن الغزال".
- ما أحرانا بأن نذهب ونطلب الصفح من جميلة ابنة عامر اليتيم، فلا شك أنها هى التى تطارد القرية بلعناتها.
- لو كان ذلك صحيحاً فإنها تستحق الرمى بالحجارة.

أدى المتصرف المهمة التى كلف بها وعاد إلى بيته يفكر فى هذه التطورات الجديدة وتأثيرها على حياته ومشاريعه، لقد ذهب صباح اليوم إلى عاصمة المحافظة مستجلياً حقيقة الأمر، معاتباً لأنهم أبقوه فى الظلام لا يدرى ما يقول لأهل القرية، أبلغه المحافظ بأن الموضوع أكبر من

هذه الاعتبارات الصغيرة فهو مخطط سياسى للدولـــة أملتـــه المصلحة العليا للوطن وما على أمثالهما من مسئولى الحكـــم المحلى إلا الطاعة والتنفيذ، إنه يتصل بعلاقة الحكومة بدولة صديقة تريد تأجير مكان فى الصـــحراء يصـــلح للتـــدريب العسكرى فأعطتهم هذه القرية التى لا حاجة لأحد بها، ولكن الحكومة لا تريد أن يأتى ترحيل أهل القرية بالإكراه وإنمـــا تريده أن يتحقق بناء على طلب الجماهير ورغبتها، لكـــى لا يأتى من يقول بأن الحكومة قد أجلت النـــاس عـــن قـــريتهم لتقديمها قاعدة عسكرية للأجانب، وتجد أبـــواق المعارضـــة والإذاعات المعادية فرصـــة للتنديـــد بالحكومـــة ومهاجمـــة سياستها، وعلى المتصرف أن يتدبر الأمر ويأتى بعريضـــة أخرى من أهل القرية تشكو الفقر والبطالة وتطالب الحكومة بالتدخل السريع لإعادة توطينهم فى مناطق أخرى تتوافر فيها مورد الرزق والحياة، وستكون بعد ذلك مكرمة من الدولـــة تتحدث بها الصحف والإذاعات عنـــدما تتنـــازل عـــن إرادة المواطنين وتلبى حاجتهم وتجهد نفسها فى البحث عن مكـــان لائق لاقامتهم ويتحول اللوم إلى شكر وثناء وتضـــيع علـــى

الأبواق المعادية فرصة ثمينة لإحراج الحكومة، وأنهى حديثه قائلاً:

- وأنت بلا شك أكفأ من يقوم بهذه المهمة.

نعم، نعم، بكل طيبة ورضا، بل هو يجد متعة عظيمة عندما تواجه الحكومة أزمة يستطيع أن يثبت فيها أنه أقدر الناس على فرض إرادتها وتنفيذ أوامرها، ولكنه لا يريد أن يخرج من هذه القرية التى كتب عليها الفناء خاوى الوفاض، لا يريد لهذا الجهد الذى بذله من أجل الحصول على جميلة يضيع مع الرياح التى جاءت تعصف بالقرية وتقتلعها من جذورها، لم يعد هناك ما يكفى من الوقت لأن تجرى الحكومة انتخابات فى هذه القرية بعد الآن، ومعنى ذلك أنه فقد أهم أوراقه فى اللعبة التى يلعبها مع عامر اليتيم، إنه لا يعترض على هذه السياسة التى أملتها المصلحة العليا للوطن، ولكنه كان يتمنى لو تأخر هذا القرار بضعة أشهر أخرى حتى لا تتناقض المصلحة العليا مع المصالح الدنيا لرجل مثله، لابد أن يبحث عن أساليب أخرى يعالج بها الموقف، فاليتيم ليس إلا عاملاً تابعاً له، وجميلة لن تكون لأحد غيره، وعليه أن يحسم الأمر الآن وقبل ظهور مفاجآت جديدة.

(٣٠)

وهذا كبش آخر ينحر اليوم فى بيت اليتيم، لم يكن هذه المرة لإطعام زائرى ضريح سيدى أبو قنديل، إنما أنه يـذبح لإطعامهم وإطعام زوار بيتهم من نساء وصبايا جـئن إلـى جميلة مهنئات بالنجاح فى إجازة التدريس، البيت الذى عشش فيه الحزن يستعيد الآن شيئاً من بهجة الحياة، والأم تطـوف بين الزائرات تخدمهن وتقدم لهن الطعام، نشـطة، سـعيدة، كأنها عادت إلى صباها، فها هى جميلة تخـرج مـن حالـة العبوس والشرود، وتستعيد قدرتها على المرح مـن جديـد، تضحك وتتكلم مع البنات فى يسر وعفوية ولم يبق من تلـك الحالة القديمة التى لازمتها لأيام طويلة إلا بعـض الوقـدات التى تتفجر فى حالات الضيق والغضب.

- نسأل اللّه أن يديم علينا هذه النعمة.

لم تجد على لسانها سوى هذه الجملة، تقولها، وتعيـد قولها بلا ملل، وكأنها صارت تدرك بالحدس الذى اكتسـبته من خلال المحن التى رأتها، أن هذه اللحظـات إنمـا هـى لحظات نادرة فى هذا البيت، وأن السحب السوداء التى تنعقد فوق سماء القرية، إثر تواتر الأخبار بنقل أهلها إلى أمـاكن

أخرى، سوف تفرغ قريباً ما فى جعبتها من عواصف ورعود.

قالت لزوجها بعد أن انتهى الحفل، وهما فى غرفة النوم:

- جميلة.

- ما بها؟

- لقد عانت كثيراً، ولم يعد ممكناً أن تقسو عليها كل هذه القسوة.

- كنت دائماً أبحث عن مصلحتها.

- قل الحق يا رجل، لقد كنت تضع مصلحتك هى الأولى.

- ما هذا الكلام الذى تقولينه يا امرأة، منذ متى كانت مصلحتى تتناقض مع مصلحة ابنتى.

- الشهادة التى نالتها ضمان للمستقبل فلا خوف عليها بعد الآن.

- أفصحى يا امرأة، ما الذى يشغل بالك؟

- ما أن تسمع سيرة المتصرف حتى تركب جسمها العفاريت.

ــ سأمهلها حتى ترضى.

– أليس من سبيل لأن تصرفه عنا؟ لماذا تـــذعن لــــه وكأن ابنتنا لن تجد زوجاً غيره؟

– لعلك تفكرين فى ابن تلك المجنونـــة التـــى جـــاءت تتهجم على فى بيتى.

لم تكن قد أخبرته بزيارة العيد إلى بيتهم وأثر ذلك فى شفاء ابنته، لقد خافت من غضبه، فهى تعرف أنـــه منـــذ أن تخاصم مع أمه صار لا يطيق سماع اسمه، فما بالك إذا مـــا عرف أنها استقبلته فى بيتها، ولكنها جازفت بالقول:

– ليس هناك فى البلدة كلها من هو أليق بالعيد ليكـــون زوجاً لابنتنا.

عرفت الآن أنها قد أخذت جانب العيد فـــى الصـــراع الدائر وأنها تضع نفسها مباشرة فى مواجهة العاصفة.

أمسك اليتيم بذراعها غاضـــباً، أمســـكه بقـــوة حتـــى أوجعها.

– لا أريد أن أسمع منك مثل هذا الكلام مرةً أخـــرى. قطع اللّه البنات وخلفتهن.

وفى اليوم التالى جاء المتصرف زائراً.

- تأخرت عن المجيء إلينا، فجئنا نسعى إليك.

- ما أنت إلا صاحب البيت.

هنأه، بنجاح ابنته فرد له اليتيم التهنئة عندما تـذكر أن ابنة المتصرف أيضاً تدرس مع ابنته، تقبل المتصرف التهنئة شاكراً وعقّب قائلا:

- هذه ليست إلا الفرحة الصغرى التى ستعقبها الفرحة الكبرى بإذن اللّه.

أدرك اليتيم ما يرمى إليه فأراد أن ينتهى من حسم هذا الموضوع بلا إبطاء.

- مازلت أطلب أن تمنحنى وقتاً، فها هـى المشـاكل تعصف بنا من كل جانب.

ولكن الوقت يمضى، وما تبقى من وقت علـى نهايـة القرية لا يسمح بهذا الترف الذى يطلبه اليتيم، اختار أولاً أن ينفى عن نفسه تهمة أن يكون مسؤولاً عما ألمَّ بالقريـة مـن أحداث، قبل أن يدخل فى الموضوع الخاص.

- ليس هناك مشاكل وعواصف، الأمر مرهون بإرادة أهل القرية، هم يقررون بإرادتهم الحرة ما يريدون، وما على الحكومة إلا التنفيذ.

- سأكون بعون اللّه أول الراحلين.

أمعن المتصرف النظر إليه كأنه لا يصدق أن يقول اليتيم هذا الكلام، ها هو يكشف أوراقه كلها، ضاعت أحلام المجد القادم مع الانتخابات وجاء يتحلل الآن من كل الارتباطات والمواثيق التى تربطه معه، قال محاولاً أن يبنى أرضاً يقف عليها بعد أن جاءت كلمات اليتيم تقوض كل شىء":

- لا تستعجل الأمر يا يتيم، هذه مسألة يقتضى تنفيذها سنوات وسنوات، إنها ليست خيمة تطوى وينتهى الأمر.

بادره اليتيم قائلاً:

- لقد عودتنا الحكومة دائماً سرعة الإنجاز والتنفيذ.

لم يجد المتصرف مفراً من أن يلجأ إلى الكذب هذه المرة.

- ولكن الانتخابات ستمضى كما كان مخطط لها، وها أنت بعد أن تعلمت القراءة والكتابة صرت أكثر الناس جدارة بها، وليس من شك أن فوزك سيكون بالتزكية.

ارتسمت على وجه اليتيم ابتسامة ساخرة.

- لم أعرف من الكتابة والقراءة غير أن أرسم اسمى، بل لعلى قد نسيته فى خضم الأحداث، لا شك أن فى الدنيا من هم أكثر جدارة منى.

أدرك المتصرف أن حلم الاختلاء بجميلة فى غرفة نوم مغلقة صار يضيع الآن من بين يديه، وأن اليتيم يلعب لعبة لا يدرك خطورتها، جاء يتظاهر بالزهد فى المناصب بعد أن عرف اتجاه الريح، كتم غيظه قائلاً:

- ها أنذا أرى أجنحة الأحلام الكبيرة تتكسر، فما الذى حدث؟

لم يقل اليتيم شيئاً. ليس لذلك إلا معنى واحد فى ذهن المتصرف وهو أن اليتيم يقفل فى وجهه الباب، ولكن ما مصير الهدايا التى جاء بها، الأموال التى أنفقها بغير حساب، الخدمات التى قدمها لليتيم وأسرته، هل يذهب كل ذلك هباءً كمن يحرث السباخ، هل ينسى أنه صنع منه سيداً بعد أن كان رجلاً عديم القيمة يسكن وسط الخرائب مع العقارب والفئران والصراصير، وأذل نفسه بالمجىء إلى زيارته طيلة هذه الأشهر، أم أن الغرور لعب برأسه حتى ظن أنه ند له، سيعرف كيف يرد له الضربات، وسيرغمه على أن يأتى إليه

خانعاً، ذليلاً، يتوسل أن يرضى بابنته زوجةً لـــه، وقبـــل أن ينصرف أراد أن يعطى اليتيم فرصةً أخيرة لعله ينفى هـــذه الظنون.

- أما أنا فما زلت ملتزماً بالعهد.

وصمت قبل أن يضيف:

- ومازلت راغباً فى عقد أواصر المصاهرة بيننا كما تم الاتفاق.

وعندما بدأ اليتيم يسوق الحجج التى تمنعه من الموافقة على إقامة العـــرس قبـــل مجـــيء الصـــيف القـــادم، أدرك المتصرف أن هذا إيذان بالقطيعة بينهما، وأنه سوف لا يدخل بيته بعد الآن أبداً، لأنه صار منذ هذه اللحظة عـــدوه الـــذى سيستعمل كل الأسلحة لسحقه وهلاكه.

ضرب الباب خلفه بعنف وخرج.

انتفض اليتيم وهو يسمع دوى الباب، وأدرك أنـــه الآن قد صار يتيماً مرةً أخرى.

(٣١)

انطلق أفراد الشرطة يطوفون شوارع القرية يلتقطون السائرين فى الطرقات ويدقون الأبواب ويخرجون الرجال الذين اعتكفوا فى بيوتهم ويذهبون إلى المصلين فى المسجد والجالسين فى المقهى وأصحاب الدكاكين وزبائنهم أو من جاء يجلس ويشرب الشاى معهم، وعمال الورشة والمستودع، وزوار المستوصف وعماله، والمشتغلين بمحطة الكهرباء ومحطة الوقود ومضخة المياه ومعلمى المدارس وعمالها، ويذهبون يتجولون بسياراتهم خارج القرية يلتقطون الرعاة وساكنى العشش يسوقونهم إلى قصر المتصرفية للتوقيع على الالتماس الذى يطالبون فيه بنقلهم من قريتهم، يهددونهم بالضرب والسجن، ويرغمونهم على الذهاب، رفض عاشور أن يذهب مع الشرطى الذى جاء به المقهى يأخذهم للتوقيع قائلاً بأنه سيبقى ليرعى أشجار النخيل التى أورثها له والده وأوصاه قبل أن يموت ألا يتركها أبداً، وأنه لا يريد شيئاً من الخدمات التى تقدمها الحكومة وسيعرف كيف يتدبر حياته بدونها، تكاتف معه بقية الجالسين فى المقهى، اشتبكوا فى عراك مع الشرطى الذى أطلق صفارته فجاء عدد آخر من

أفراد الشرطة يسوقونهم إلى المركز، أدخلوهم واحداً بعد الآخر إلى دار "العروسة" التى يضعون بها "الفلقة" ضربوهم على أقدامهم حتى تورمت، وفتحوا لهم محضراً بحجة أنهم اعتدوا على شرطى أثناء تأدية واجبه الرسمى، ولم يطلقوا سراحهم إلا بعد أن رضوا بالتوقيع على الالتماس، أشاعت هذه القصة جواً من الرعب فى قلوب أهل القرية فتقاطروا على مبنى المتصرفية يلتمسون النجاة لأنفسهم بالتوقيع على ما تريده الحكومة.

قال المتصرف عندما جاء كاتبه يضع أمامه الالتماس مصحوباً بقوائم طويلة امتلأت بالتوقيعات والبصمات:

- هل بقى أحد فى القرية لم تأخذا موافقته؟
- لم يبق إلا النساء والأطفال.
- إذن فهو قرار اتخذته القرية بالإجماع.
- نعم بالإجماع يا سيادة المتصرف، لم يبق إلا أن يعتمدها شيخ القرية، وقد أرسلت فى طلبه.
- وماذا تراهم يقولون؟

- إنهم يلهجون بالثناء على الحكومة التى أتاحت لهم هذه الفرصة للتعبير عن مشاعر الحقد والكراهية ضد قريتهم.

قالها ضاحكاً فرد المتصرف على سخريته قائلاً:

- كنت أتمنى لو أتيحت لنا فرصة من الوقت لتهيئة الأذهان وإقناع الناس بالفكرة، ولكنها أوامر الحكومة وقد وجب تنفيذها.
- إن أحداً لا يلومك يا سيادة المتصرف، ولكنهم يلومون ابنة اليتيم.
- وما دخل ابنة اليتيم فى موضوع كهذا.
- لقد صورت لهم عقولهم إنها سبب اللعنة التى تطارد القرية.

لمعت عيناه اندهاشاً وإعجاباً، قفز على الفكرة باحثاً فيها عن شئ بفضله من العمل نتيجة إهماله وغيابه المتكرر، وسيتدبر الآن طريقة يستفيد بها من هذه المعتقدات الساذجة التى يحملها أهل القرية عن ابنته ويستغلها لقهره وإذلاله، سينتقم لنفسه من هذه الفتاة التى رفضت بلا خجل ولا حياء اليد التى بسطها إليها لانقاذها من الفقر والمذلة، ولن تمضى

سوى أيام قليلة حتى يأتى بها والدها ضارعاً متوسلاً طالباً الصفح، إنه يعرف هذا النوع من البشر.

قال يخاطب كاتبه:

- من يدرى إن لاعتقاد هؤلاء القوم أسبابه ودوافعه، أليست هى من دفعت بأحد الناس إلى الموت ودفعت برجل آخر إلى الجنون.
- إنك لا تصدق مثل هذه الخرافات يا سيادة المتصرف.

ولكن المتصرف شرح لكاتبه كيف أنه يصدقها، وأن على الكاتب أيضاً أن يصدقها، وأن يجعل الناس جميعاً يزدادون اقتناعاً وإيماناً بأن الشر الذى يطارد القرية إنما جاء بسبب هذا الشؤم الذى ولد مع ميلاد ابنه اليتيم، لأن أبخرة الغضب والنقمة التى تتصاعد الآن فى الصدور سوف تتحول إلى سحب تنذر بمجيء العواصف، وإذا لم يبحثوا عن سبيل لتصريفها فى اتجاه آخر فإنها ستتحول نحوهم وسيجدون أنفسهم ذات صباح فى مواجهة جمهور هائج لا يحكمه عقل ولا منطق يريد هلاكهم.

أدرك الكاتب ما يهدف إليه المتصرف، لقد عاشره طويلاً، وانتقل معه إلى مكان إلى آخر، عيناً له على الآخرين، وحافظاً لأوراقه وأسراره، قال وهو يهم بالانصراف.

- عرفت ما تريد، وسأفعل ما يمليه الواجب.

خرج من المكتب ليجد الشيخ مسعود واقفاً بالباب ينتظر الإذن بالدخول، كان بجواره ضوء الهلال الذى كان آخر من جاء للتوقيع، لقد اقتضى الأمر إرسال ثلاثة من أفراد الشرطة لإجباره على الحضور، كان يقول للشيخ بصوت متهدج كأنه البكاء، غير عابئ بوجود الكاتب الذى وقف يأذن برأسه للشيخ بالدخول:

- هل نرضى بتنفيذ مشيئتهم كما تفعل النساء.

رد عليه الشيخ وهو يخطو باتجاه مكتب المتصرف:

- لا تعاند من إذا قال فعل.

بادره المتصرف قائلاً عندما رآه:

- لم يبق إلا توقيعك يا شيخ مسعود.
- من أجل هذا جئت.

ثم أضاف بعد لحظة وصمت.

- ولكن هل كان لابد من استعمال هــذا الأســلوب لإرغام الناس على التوقيع؟

كان الغضب واضحاً فى صوته وملامح وجهة، قال المتصرف بأســلوب نــاعم، مخاتــل، تعــود أن يســتعمله لامتصاص المواقف المتفجرة:

- إننى فى حيرة مثلك يا شيخ مسعود، هــل كــان لابد أن نجرهم إلى الجنة بالسلاسل، أمــا كــان الأجدر بهم لو جاءوا طواعية ودون إكراه.

قال الشيخ مسعود دون أن يعبــأ بمــا فــى لهجــة المتصرف من تظاهر بالبراءة:

- ليت الحكومة احتفظت بجنتها وسلاســلها بعيــداً عن هذه القرية.

قالها وكأنه يخاطب نفسه ثم أضاف:

- وهل تريد أن ترغمنى أنا أيضاً على التوقيع؟

- قال المتصرف وكأنه لا يشك شكلاً صامتاً كمن يبغى أن يقذف بنفسه من فوق الجبل.
- لقد رأيتنى بنفسك أطوف على مكاتب الحكومة أطالب بالغاء هذا القرار، فكيف بالله عليك تريدنى اليوم أن أرفع إليهم التماساً بعكس ما كنت أطالب به.

كان واضحاً انه يرى فى الأمر مسألة تمس كرامته الشخصية، وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول:

- إننى لا أستطيع التوقيع.

لم يكن المتصرف متهيئاً لسماع مثل هذا القول، فتح عينيه وفمه اندهاشاً ثم تدرك نفسه وأطلق قهقهة عالية كمن سمع نكتة أعجبته وأرد أن يستعيدها.

- ما الذى تقول يا رجل؟

- أقول إننى لا أستطيع التوقيع.

انطفأت ضحكة المتصرف، قال وهو يترك مكتبه ويقف فى مواجهة الشيخ الذى وقف مجاراة له:

- إن هذا عصيان للحكومة.

وبغشامة البدوى الذى اتخذ قراره ولم يعد يعبأ بالنتائج قال الشيخ:

- اعتبره عصياناً إذا شئت، واعتبرنى مستقيلاً من مشيخة القرية.
- لم تعد هناك قرية حتى تكون شيخاً عليها، وسأجد نفسى مضطراً للقبض عليك وإرسالك للمحاكمة.
- ما هى التهمة يا ترى؟

ودونما تفكير وكأن له جهازاً فى رأسه يتولى تجهيز الاتهامات وتقديمها إلى لسانه فى يسر وسهولة قال المتصرف:

تحريض الناس على الشغب.

(٣٢)

دارت الشمس دورتها وعادت مرة أخرى تنفث قيظها الشديد الذى تشربه الأرض وتعيده صهيداً لافحــاً كــالوهج الطالع من الأفران، ورجال القرية غارقون فى موجة الحــر والذل والغبار، يبحثون عن ظل حائط أو شجرة يدسون تحتها رؤوسهم ويناقشون فى همس أمر الشيخ مسعود الذى أخذوه إلى السجن، لقد قالوا نعم فجاء هو يقول لا، ويحسون بــالإثم لأنه الآن يدفع الثمن بالنيابة عنهم جميعاً، ويجهدون أنفســهم فى البحث عن وسيلة يخرجون بها الرجل من محنته. عندما كان الحاكم إيطالياً يرتدى برنيطة ويرطن بلغة غريبة ويضع فوق رأسه علماً مثلث الألوان ويقدس تمثالاً للبــؤة ترضــع شبليها، كانوا يعرفون أن هذا هو الاستعمار، فيرفعون فــى وجهه البنادق ويحاربونه بالسكاكين والعصى والحجــارة إذا عزت البنادق، ويجاهدون من أجل يوم تؤول فيه أمورهم إلى حاكم من أبناء الوطن، وعندما جاء هــذا الحــاكم واســتعار أسلوب الأجنبى فى معاملتهم وقعوا فى الحيرة والهوان، إنــه يملك ملامح كملامحهم وسحنة لوحتها الشــمس كســحنتهم، يتكلم ذات اللغة التى يتكلمونها بل هو يتكلمها بأسلوب أكثــر

فصاحة وإشراقاً منهم، ويحفظ بأفضل مما يحفظون أحاديث النبى وآيات القرآن الكريم ويأتى على ذكرها فى أحاديثه معهم، يضع فى يده مسبحة ويعتمر طاقية أو طربوشاً ويحضر معهم صلاة الجمعة وفوق رأسه يرفرف علم يحمل هلالاً ونجمة ولوناً أحمراً يرمز إلى دم الأجداد المسفوح فوق تراب الوطن، ماذا يفعلون معه وكيف يجدون القوة لمحاربته، كانوا يحاربون الأجنبى، لأنه أجنبى جاء يحكمهم فهو استعمار وعدو للدين والوطن ويتحملون الموت فى سبيل ذلك لأنه شرف ووطنية وشهادة جزاؤها الجنة. يغرقون فى دوامة الحر والذل والغبار، ينظرون إلى الأهلة والنجوم التى تملأ الأعلام التى ترفرف فوق أبنية الحكومة، ويتأسفون على اليوم الذى سلموا فيه بنادقهم للجالسين فى ظل هذه الأعلام.

إنه موسم نضوج البلح، أكثر مواسم القرية نشاطاً وبهجةً، انتهت مواسم الحرث والحصاد والخروج لملاقاة الربيع بعد أعوام الجفاف الطويلة، ولم يبق إلا هذا الموسم يقيمون له الأعياد والأفراح، يرسلون الغناء ويعزفون المزامير ويضربون الدرابيك ويلتقون بعائلاتهم تحت أشجار النخيل التى تشابكت تصنع سقفاً يقيهم الحر ويعودون بالليل

يقيمون السهرات فى ضوء القمر ويشتغلون بتقطيع العراجين وتعبئة الرطب فى الصناديق والعودة بهـا لتجفيفهـا فـوق السطوح أو لشحنها فى سيارات نقـل صـغيرة يؤجرونهـا لتسويق البلح فى المدن الأخرى.

ولكن بهجة هذا الموسم انطفأت، قد يذهب أحدهم بـلا احتفال يقطع عرجوناً لإطعام أهله أو لوضعه فى صـندوق أمام دكانه إذا كان صاحب دكان، أما البقية فقد تركوا الـبلح فى عراجينه طعاماً للطير وانشغلوا بهذا الهـم الـذى جـاء يداهمهم على حين غفلة وينتظرون يوماً تنفـرج فيـه هـذه الأزمة ليقيموا بعد ذلك الأفراح ابتهاجاً بنضوج ثمار النخيل.

ولكن الحلقات لا تعقد إلا لتنفض مرةً أخـرى دون أن يهتدوا إلى شيء محدد يفعلونه، تعبير أخرس عن السـخط، وخوف من مجابهة وبطش الشـرطة، وإحسـاس بـالهوان يجعلهم يفقدون الشهية للنوم والطعام.

قال ضوء الهلال الذى يحن ليوم يدوى فى الرصاص، ويحلم بمجيء الحرب، وقد رأى جماعة مـن أهـل القريـة يعقدون اجتماعاً فى الضحى تحت شجرة الأثل:

- لعن اللّه الجبناء والمخنثين.

وبصق فى الأرض.

لقد تعودوا بذاءاته، فضحكوا ولم يردوا عليه.

كان رواد المقهى الدائمين أمثال عاشور وسليمان مع صاحب المقهى سلطان قد جاءوا هم أيضاً ينضمون إلى الجالسين تحت الشجرة بعد أن سحب الشرطى الذى عاركوه رخصة المقهى واستصدر أمراً بإقفاله لمدة أسبوع، قال عاشور وهو يمسح العرق الذى يتصبب غزيراً فوق جبينه وعنقه وصدره:

- لقد خلقنا لنكون أحطاباً للنار، وإلا ما الذى يجبرنا على البقاء فى قرية فتح اللّه عليها باباً من أبواب جهنم، ونتحمل فى سبيل ذلك الأهوال التى رأيناها فى دار العروسة.

قالها بسخرية ولكنها حركت شيئاً فى قلوب الرجال الذين تضمهم الحلقة، ما الذى يدعوهم حقاً إلى البقاء فى هذه الأرض التى ما أن يأتى الضحى حتى يصير ترابها حديداً مصهوراً، إذ مهما كان نوع الحياة التى سينقلونهم إليها فلن تكون بأية حال أسوأ مما هم فيه الآن، جلسوا صامتين كأنهم يحاولون أن يجدوا شكلاً واعياً لهذه الرغبة الغامضة فى التشبث بأرض ميتة نضبت منها كل أسباب الحياة، وينظرون

حولهم يستنجدون بالهضاب البعيدة والبيوت والدكاكين والأبراج وأشجار النخيل المتناثرة عبر دروب القرية فتبدو صامتة، حيادية، كأن الأمر لا يعنيها، ويهبطون بأنظارهم إلى الشجرة التى يجلسون فى ظلها وقد نفرت عروقها وامتلأ جذعها بالثقوب والحروق من آثار رصاص معركة قديمة.

- من أين سنلقى شجرة مثل هذه اخترقت جسمها مئات الرصاصات ومع ذلك ظلت عنيدة تتحدى بأعرافها الخضراء زمن القحط والطرابيش؟

قال أحدهم ذلك محاولاً بلهجة ساخرة تفسير هذه الرغبة فى البقاء.

- لكنها عقيم لا تطرح ثمراً ولا تطعم من جوع.

- يكفى أنها تمنحنا الآن ظلاً، فلا تكن جاحداً ناكراً، إن هذه الشجرة وطن.

لازال فى القرية من العجائز من يعتبرها شجرة مباركة يستجير بها ويقيم تحتها الصلاة ويستنجد بها فى الملمات.

- إذا كانت حقاً شجرة مباركة فلعلها لن تتخلى عنا.

- ها قد عدنا نستنجد بالأشجار لحمايتنا بدلاً من أن نحمى نحن الأشجار.

- ليته قال نعم فأنقذ نفسه من السجن وأنقذنا نحن من هذا الإحساس بالعار.

دارت الرؤوس تلتفت شمالاً ويميناً خوفاً من أن يكون أحد الوشاة قد جاء يتصنت إلى كلماتهم، إنهم يحاولون تجنب الخوض فى الموضوع الذى يستفز الحكومة لأنهم لا يريدون زيارة أخرى إلى دار العروسة، ولكن الحديث فى المواضيع الأخرى لا يطاوعهم، فيصمتون طويلاً ويعودون إلى الموضوع بالهمس والإشارة.

رأوا على البعد رجلاً قادماً نحوهم، خشوا أن يكون عيناً من عيون الحكومة فسكتوا عن الكلام، وعندما تبينوه وجدوا أنه عمران يرسف فى ظله الذى يجره تحت قدميه كالأغلال، لقد صار هو أيضاً مهموماً بهذا الخبر الجديد الذى سيحرمه كنزاً جاهد عمراً فى سبيل العثور عليه، فأصبح يأتى ويشارك فى جلساتهم بالصمت والاستماع، استفزه عاشور قائلاً:

- هناك من يقول بأنك قد عثرت على الكنز وأنك تخبئه فى بيتك مدعياً الفقر خوفاً من أن تأخذه منك الحكومة.

ظنه يتكلم جادّاً فأقسم باللّه وكتبه ورسله أنه لم يعثر على شيء حتى الآن، ولكن الأمد لن يطول، فقد أكمل حفر أغلب المناطق ولم تبق إلا المناطق التى ينتهى عندها ظل الجدار، ولهذا فهو لن يستجيب لنداء الحكومة بترك القرية الآن، حتى لو فقد عمله وأقفلوا المخبز فسيبقى فى مكانه حتى يعثر على الكنز الذى وعدته به الملائكة، أفهموه بأن المسألة لا خيار فيها وأنهم سيقومون بشحن أهل القرية جميعاً فى سيارات نقل كبيرة.

- سأعود حتى لو أخذونى إلى آخر الدنيا.

- ولكنها ستكون منطقة عسكرية يضربون حولها سياجاً من الأسلاك الشائكة المكهربة.

- ومع ذلك سأعود.

- ستصعقك الكهرباء أو يخترق جسمك رصاص الحراس.

تقلصت ملامح وجهه وكأنه يريد أن يبكى، نظر إلى وجوههم يطلب النجدة، ولكن أحداً لا يتقدم لنجدته، هل يضيع

جهد العمر هباءً، تساءل فى حيرة إذا كان ثمة وسيلة لمنع الحكومة من تنفيذ هذا القرار، قال عاشور:

- إنها مشكلتك وحدك يا عمران، فليس كل إنسان موعوداً بكنز مثلك، ولكن. .

- ولكن ماذا؟

- سنقف معك إذا وعدت بأن تقاسمنا الكنز.

أقسم باللّه وكتبه ورسله بأنه سيجعل فى كنزه حقاً للسائل والمحروم وسيبنى لهم مسجداً كبيراً وسيتقاسم كنزه مع كل من يقف معه فى سبيل إلغاء هذا القرار، فوعدوه صادقين بأنهم سيتكاتفون معه وسيقفون من أجله صفاً واحداً حتى تتراجع الحكومة عن قرارها.

كان العيد عائداً من غابة النخيل يحمل سلة وضع بها عرجوناً من البلح جاء به إلى أمه عندما التقى بضوء الهلال يمشى بجوار الحائط يطارد الظل، كان ساخطاً يتكلم مع نفسه ويلوح بيديه فى الهواء بعصبية كأنه يعارك الأشباح. لقد حمل السلاح وهو صبى يحارب الطليان وسافر فى زمن الهجرة مع المهاجرين وأقام بقرية خلف الحدود يرعى أهلها الأغنام ويضع أذنيه على الأرض ينتظر أن يسمع وقع خطى

الطليان وهم يرحلون، وعندما رحلوا عاد، مات أهله جميعاً ولم تبق معه سوى طفلة ولدت هناك أسماها »راجعة« أملاً فى يوم يعود بها إلى قريته، جاء سعيداً يحمل طفلته بين ذراعيه، وجد أن عساكر الطليان قد حل مكانهم عساكر الإنجليز، فعاش متأزماً يمنى النفس بالحرب، لقد اقتضى الأمر حرباً كونية حتى خرج الطليان، وهو يريد الآن حرباً كونية أخرى تصلح الخلل الذى أصاب الكون، كبرت ابنته وأصبحت ممرضة بمستوصف القرية فأخذ مرتبها يشترى به زيتاً ودقيقاً يخزنهما للأيام المهولة القادمة وينذر أهل القرية بقرب مجىء الحرب، كان يسأل العيد كلما لقيه أن يكتب له مذكراته التى سيكشف فيها الخونة الذين باعوا الوطن ويتنعمون الآن بالنياشين والأوسمة، ولكنه اليوم كان غاضباً يزفر ويبصق فى الأرض ولا يقول شيئاً.

– ماذا يا عمى ضوء الهلال، هل قامت الحرب؟

– حتى أنتم يا من ذهبتم إلى المدارس تتفرجون كأن الأمر لا يعنيكم.

– ما الذى حدث؟ لعلك لا تعلم أن الدوتشى قد شنقوه فى شوارع روما.

- ولكن من يشنق دوتشى هذه البلدة، أحمد اللّه أننى مازلت أحتفظ بالبندقية التى حاربت بها الطليان وإذا ما بقيت الأمور على هذه الحال فسأخرجها من الحفرة التى خبأتها بها وسأذهب وأعتصم بالجبل وأبدأ بإطلاق النار.

قال العيد وهو يعلم أن الرجل لا أمان له، وقد يعلن الحرب فى أية لحظة:

- أرجوك أن تنتظر حتى أعود إلى المدينة ثم ابدأ بإطلاق النار على كل من تراه.

- الهروب، هذا ما تفكرون به جميعاً، بلادكم تباع للأجانب وأنتم تهربون، ألم تعلمكم هذه المدارس شيئاً آخر غير المذلة والخنوع؟

- لقد طال شوقنا إليها، فأين هذه الحرب التى وعدتنا بها؟

لم يكن الأمر فى نظر ضوء الهلال مزاحاً، فالحرب بالنسبة له قد بدأت فعلاً.

- كنت دائما أعتبر الشيخ مسعود شيخاً ضعيفاً، جباناً، لا رأى له ولا موقف، ولهذا أبقت عليه الحكومة، ولكنه هذه

المرة أثبت أنه رجل، وعلى بقية أهل القرية أن يثبتوا أنهم أيضاً رجال.

إنه الرجل الوحيد الذى يتكلم فى هذه المواضيع بلا حرج، تحرر من خوفه حتى صارت صراحته شذوذاً فما عادت تثير أعوان الحكومة ووشاتها، لم يكن العيد قد فكر كثيراً فيما حدث، لقد جاءوا إليه يدقون باب بيته كغيره من أهل القرية، اعتذر بأنه مقيم فى المدينة حيث مقر عمله، ولكنهم رفضوا أن يتركوه، ساقوه كغيره من الناس ليضع إمضاءه على الورقة، لم يكن حتى ذلك الوقت قد حدد موقفاً مما يجرى، بل لعله رأى فيه انتقاماً عادلاً تلاقيه قرية ظلمت نفسها ومنحت أيامها عطاء سخياً للفراغ والبطالة ولم يعد أمام أهلها شيء يفعلونه سوى أن يبعثوا بطلبات إلى الحكومة يتسولون العمل بمكاتبها عسساً ومباشرين، منهم من تحقق حلمه وصار يتقاضى أجراً ضئيلاً مقابل هذه البطالة الجديدة ومنهم من ينتظر، وتفرغوا جميعاً لسف التراب الذى تأتى به الرياح القادمة من الصحراء، يفتعلون المعارك لأتفه الأسباب وليس على ألسنتهم سوى الشتائم والسباب وتسقط الشائعات والأكاذيب، قرية تتآكل وتتلاشى وكان لابد أن تلاقى هذا

المصير، حتى وإن لم يكن انتقاماً فهو إنقاذ لهـم مـن هـذا العطب الذى تسلل إلى أرواحهم فصـارت تصـدأ وتشـيخ ويتبخر منها الدفء والحب، ويستسلمون فى بلادة لهذا الواقع ويتآلفون معه كأنهم سعداء بهذه الحياة التى لم تعد حياة وإنما انتظاراً لمجيء الموت، لقد ترك هو أيضاً عمله وأقام بيـنهم يتناول الطعام من صحافهم ويتنفس الهواء الـذى يتنفسـونه ويستسلم مثلهم إلى حالة البلادة التى تغلف الحياة فـى هـذه القرية، تسبح بهم الأرض فى دورتها اليومية وكأنهم ليسـوا جزءاً منها، بنوا فى عقولهم أسواراً تعزلهم عن ضجيج الحياة وإيقاع العصر واستكانوا لحياة الكسل والبطالـة وارتضـوا بالعيش تنابلة فى قرية انتهى زمانها.

لا شك أنه كان سيفر من هذه القريـة طلبـاً للنجـاة وهروباً من هذه الرمال الرخوة اللزجة التى صارت تمتصـه مثلهم، لولا ما يربطه بجميلة، ولا يسـتطيع أن يغفـر لهـم سلوكهم العدائى ضد هذا الشيء الوحيد المبهج، المضيء، فى قرية يأكلها البؤس وتملؤها أكداس القبح، تيبسـت أرضـها وأملحت عيون مائها فلم تعد تلد إلا العقارب وأشواك العوسج وثمار الحنظل، لقد كان سعيداً بأن يـرى عـالمهم يتقـوض

وينهار ويغمره الطوفان، حتى لو لم تكن الحكومة صادقة فى منحهم أرضاً زراعية جديدة فإن مجـرد أن يتركـوا هـذه الخرائب ويبتعدوا عن هذا الخلاء سيكون فى ذلك علاج لهم. لقد كانوا بحاجة إلى هذا النبأ الـذى زلـزل الأرض تحـت أقدامهم لكى يعودوا إلى بشريتهم التى صاروا ينسلخون عنها يوماً بعد يوم. هذا كان رأيه قبل أن تأتى رسـل الحكومـة يسوقونه مكرهاً للتوقيع ويجعلونه يرى الأمور فـى ضـوء جديد، لقد عرف لحظتها عمق الإهانة التى تلحقها الحكومـة بالناس، إنها لا تأخذهم بعيداً عن قريتهم لأنها تحبهم أو تشفق عليهم أو تريد لهم الخير. إن ما تفعله مجرد حلقة أخرى من حلقات الإذلال والمهانة التى تبدأ بتزييف الانتخابات وتنتهى إلى أخذ هذه القرية التى تمتلئ بقبور الرجال الذين ماتوا وهم يكافحون الأجنبى وتأجيرها إلى أجنبى جديد، لقد كان بإمكان الحكومة أن تبنى مصنع الزجاج الذى وعدتهم به فتمـنحهم بذلك عملاً وتعيدهم بشراً وتجعل قـريتهم صـالحة لحيـاة الإنسان، ليتها كانت صادقة فى الاستفادة من جهـودهم فـى استصلاح أرض زراعية جديدة يرحلون إليها لا مجرد حيلة لجعل هذه القرية قاعدة عسكرية للأحلاف الأجنبية، إن فـى

الأمر استفزازاً لكل تلك المشاعر التى تأصلت وتعمقت عبر قرون طويلة من مصارعة الموجات المتلاحقة من جنود الغزو، لعل الذى بنى هذه القرية فى عمق الصحراء كان هارباً من بطش حاكم أجنبى، فجاء يبنى قلاعه ويمنع أى إنسان غريب يطأ أرضه، فكيف بهم الآن وهم يواجهون حكومة تريد أن تأخذ منهم قريتهم بأبنيتها وهضابها وأوديتها وغابات نخلها وسمائها ونجومها وشمسها وقمرها، تعطيها لدولة أجنبية وتقذف بهم إلى المجهول. لقد كانوا ضائعين فقدمت لهم الحكومة الآن هدفاً يجتمعون عليه وتتوحد حوله أحاديثهم، يعطى لجلساتهم معنى وينتشلهم من أحاديث السحر والأشباح والتلهى بالشائعات والأكاذيب، أيقظ الخطر الداهم الخلايا التى تآكلت ودفع الدماء فى شرايين القلب قوية دافقة تعيد النبض للوجوه التى تكلست وتمنح كلماتهم التوهج والحرارة، وفى قلب الصورة يقف ذلك الموظف البائس الصغير الذى عينوه متصرفاً فى هذه القرية فاحتمى ببعد المنطقة عن المدينة ونصب نفسه ملكاً يحكم بالحق الإلهى، فشلت الرشوة والمداهنة فى أن تجعله يفوز بجميلة فجاء اليوم يفرقع سوط القوة فوق الرؤوس، يفصل والدها عن عمله لكى

يرغمه على تقديم ابنته له اتقاء لشره، يضرب الناس ويقودهم إلى السجن دون أن يلقى عقاباً.

رأى أمه فرحة بعرجون البلح الذى كان باكورة إنتاج النخيل لهذا الموسم، صارت تأخذ العرجون وتقلبه بين يديها، تشمه وتقطف منه بلحاً تذوقه وتدعو الأطفال الذين تصادف وجودهم أمام المنزل تفرق بعضه عليهم وترسل بعضه الآخر للجيران، وتلومه لأنه لم يأخذها إلى هناك لترى البلح وقد نضج، وتقطع على نفسها عهداً بأن تذهب كل يوم مع بقية العائلات لقضاء الأمسيات بجوار النخيل، تأكد له عند ذلك أن أمه سوف لا تستطيع أن تعيش بعيداً عن شجيرات نخلها حتى لو منحوها كل مزارع الملك.

عندما جاء الليل وانضم العيد إلى الحلقة الكبيرة التى عقدت بساحة القرية، لم يكن ذلك لأن لديه شيئاً يريد أن يقوله، أو لأن فى ذهنه تصوراً لما يجب أن يعمله، كل ما فى الأمر أنه أحس بأن عليه فى مثل هذه الأوقات أن يكون بينهم وأن يتصرف مثلهم وأن يعانى معاناتهم وألا يبقى منطوياً على نفسه لا يفعل شيئاً سوى التفكير فى الهروب. كان التجمع كبيراً، ودار الحوار هامساً، يطوفون حول الموضوع

ولا يتحدثون عنه بشكل مباشر، ولكن عبارة واحدة قالها أحد الجالسين أمدتهم بشحنة جديدة من الانفعال والحرارة وجعلتهم يتخلون عن صمتهم وتحفظهم، قال الرجل:

- إن السجن أرحم لنا من هذا الحال.

حقاً، ما الذى سيخسرونه لو أنهم قالوا كلمتهم فى وجه الحكومة، قد يسوقونهم إلى السجن، ولكن السجن لن يكـــون أكثر وطأة من هذا الإحساس بالقهر والعجز والمذلـــة الـــذى يجعلهم يكرهون أنفسهم، دار الحديث صريحاً حول القريـــة التى ستعود مرة أخرى إلى قبضة الأجانب، والشـــيخ الـــذى سجنوه ظلماً، ومصنع الزجاج الذى وعدوهم به ثم اكتشـــفوا أنه مجرد خدعة ومكيدة، والعمل الذى يجب أن يقومـــوا بـــه لإسماع صوتهم إلى الحكومة، وجد العيد نفسه يتحدث لأهـــل القرية عن المدينة التى عرف شيئاً حول أســـاليب مكافحتهـــا لقمع الحكومة، إن فى المدينة أصواتاً كثيرة تجاهر بالعـــداء لسياستها، هناك نقابات عمالية واتحادات طلابيـــة ورجـــال وطنيون ينظمون المظاهرات ضد القواعد الأجنبية ويكتبـــون المقالات والمناشير التى تندد بها، وإن صوت القرية لابد أن يصل إلى كل هؤلاء الناس، يجب ألا تبقى قضيتهم محصورة

فى حدود القرية يعبث بها المتصرف كما يشاء، وإنما يجب أن ينتقلوا بها إلى ساحة أوسع وأكبر لتصبح بالتالى قضية كل هذه القوى التى تصارع الحكومة، وأبلغهم أنهم إذا ما كتبوا عريضة أخرى فإنه على استعداد لأن يأخذ نسخاً منها إلى المدينة ويقوم بتوزيعها على هذه الاتحادات والنقابات والصحف الوطنية، استقبلوا كلماته بشىء من الاندهاش والفرحة، فهم لأول مرة يعلمون أن هناك فى الدنيا من يعادى الحكومة أو يثور فى وجهها ويرفض سياستها، فالحكومة إذن ليست غولاً كبيراً قادراً على زرع الرعب وفرض إرادته على الناس، وإذا كان أبناء المدينة المرفهين، الناعمين، الذين يمضغون العلك، ويعيشون فى قصور على شواطئ البحر، ويتناولون أكلهم جاهزاً فى المطاعم، يستطيعون مقاومة الحكومة فكيف إذن يصيب الذل رجالاً جدتهم المجدوبة التى أرعبت الصحراء وجدهم صانع البارود وصاحب برج النعام وطعامهم الشمس والريح.

وفى الصباح جاء رجال الشرطة يطوفون على البيوت، يلتقطون كل الذين حضروا الاجتماع ويقودونهم إلى مركز الشرطة للتحقيق، كانت قد ظهرت على جدران القرية

كتابات تندد بالحكومة وتطالب بإقالة المتصـرف وإطـلاق سراح الشيخ مسعود، نفى العيد أن تكون لـه علاقـة بهـذه الكتابات، سألوه عن سبب إقامته الطويلة فى القرية مـع أن عمله يقتضى منه البقاء فى المدينة فأجابهم بأنه جاء لقضـاء إجازة الصيف بجوار أمه وحضور موسم قطف ثمار النخيل، أبلغوه بلهجة حاسمة أن وجوده فى القرية غير مرغوب فيه، وأن عليه أن يعود منذ هذه اللحظة إلى عمله ويبتعد عن إثارة المشكل إذا أراد لنفسه النجاة.

(٣٣)

ظلت جميلة تنتظر كل يوم أن تعود إليها تلك الحالة التى رأت فيها نفسها تترك جسمها فوق السرير وتطوف فى عالم من البهجة السماوية وتخترق برؤيتها الجدران وتستمتع بالالتحام بروح الكون وصفاء الأبدية، كانت تعيد نفس المشهد الذى رأت فيه تلك الرؤية وعاشت فيه تلك التجربة النادرة المبهجة، تتمدد فوق سريرها وتحدق بعينيها فى السقف، وعندما لا تعود إليها تلك الحالة كانت تحاول أن تطوى ذكراها فى صدرها وتنسى أنها قد رأت ما رأت، ولكنها لا تستطيع، ما أن تقرر أن تمتنع عن التفكير فيها حتى تجد أنها قد عادت إلى تلك التجربة تستحضر تفاصيلها وتجهد نفسها فى البحث عن تفسير لها، ورأت أن سمعها قد ازداد إرهافاً بعد ذلك اليوم إلى حد أنها تتصور أحياناً إنها تستطيع أن تسمع حركة السحب الصيفية البيضاء وهى تزحف على بطونها فى أديم السماء، تمنت لو أنها تجد الشجاعة لأن تخبر أحد الناس بما حدث لها وتشركه معها فى حيرتها، أمها على وجه الخصوص، ولكنها تعرف أن أحداً لن يصدقها، حتى أمها سوف تظن أنه قد جرى لعقلها شىء ما، وسوف تزداد

خوفاً عليها، تابعت بفتور الأحداث التى مرت بهــا القريــة وموجة الخوف التى تجتاح الناس بسبب إرغامهم على تــرك بلدتهم، أخبرتها أمى سعيدة بأن العيد بخير وهو مازال مقيماً بالقرية ينتظر موعداً للقائها، لم تعد بشىء، فهى تحس بأنهــا لم تتحرر بعد من وطأة تلك الكآبة التى لازمتها طويلاً، حتى حبها للعيد صار حباً بائساً، البؤس أصبح رداءً ينسحب على كل شىء حولها، كأنها لم تعد تجد معنى للهدف الــذى مــن أجله يولد الإنسان ومن أجله يعيش، إنها لا تستطيع حتى أن تزهو بجمالها بعد أن أصبح هذا الجمــال مصــدر آلامهــا ومعاناتها، لقد أحست بشىء من الراحة وهى ترى المتصرف يتوقف عن زيارة بيتهم، ويسحب ظله الثقيل من فوق رأسها، ولكنه عندما رأته يطرد والدها من عمله فى اليــوم التــالى أدركت أن الأمر لن ينتهى عند ذلك الحد، وأنه مــازال فــى جراره ما يملأ به كؤوساً أخرى من الشقاء يسقيها لهم جرعة جرعة، والدها يدخل البيت صامتاً ويخرج صــامتاً ويجلــس وحيداً فى المربوعة لساعات طويلة وليس على فمــه ســوى »لا حول ولا قوة إلا باللّه« كان واضحاً أنه بدأ ينسحب إلى عالمه القديم عندما كان كمّاً مهملاً لا يعرف كلاماً غير هــذه

الكلمة ولا يعبأ بأحد ولا يعبأ به أحد، يسدل ملامحه فى رتابة وانكسار وقد عاد إلى وجهه ذلك الإعوجاج الذى يبدو بارزاً فى طرف فمه الأيسر، يشيعها بنظرات آسية حزينة تشـــعر معها وكأنه يتهمها بأنها مسؤولة عن فصـــله مـــن العمـــل، وتتساءل أحياناً إذا ما كان حقاً يريدها أن تقبل بالمتصـــرف زوجاً لها لكى يرفع نقمته عنهم، وتحس بالأســـى لأنهـــا لا تستطيع أن تساعده، فهى فى حالة نفســـية تتضـــاءل معهـــا الأشياء وتفقد معناها، ذابت الألوان جميعها فى لون ســـديمى وما عادت تستطيع التمييز، عالمها ضيق، وصغير، ومحدود، لا تكاد تخرج لحظة واحدة من البيت، ومنذ أن أقامت أمهـــا حفلاً بمناسبة الشهادة التى نالتها لم تعد ترى أحداً يزورهـــا سوى أمى سعيدة، لقد ظنت أن خبر نجاحها سوف يســـعدها كثيراً باعتباره حلماً طالما تمنت تحقيقه، ولكنها وجدت نفسها تستقبل الخبر ببرود كأنه لم يعد يعنى لها شيئاً، لعـــل هـــذه الجدران التى تحاصرها من كل جانب هى المسؤولة عن هذا البرود الذى تسلل إلى روحها، أو لعل روحها التى عاشـــت تجربة الفرح السماوى لم تعد تطيق البقاء فـــى هـــذا العـــالم المجدب الرتيب، وتحن إلى الذهاب إلى عالم أوسع وأرحـــب

وأكثر بهجة وجمالاً، تأتى لحظات تتمنـــى معهــا لــو أنهــا تستطيع أن تنطلق تتسلق الجبل أو تجرى فى الصـــحراء أو تعود طفلة صغيرة تعدو بين أشجار النخيل وتقذف عراجينها بالحجارة، لقد استيقظت اليوم على صوت المـــؤذن لصــــلاة الفجر تردد أصداءه الهضاب المحيطة بالقرية فبدا لها كـــأن الهضاب تناديها وتدعوها لأن تترك البيت وتخرج راكضــة عبر المدى الرحب، فتحت باب غرفتها تريد الذهاب وتلبيــة هذا النداء لكنها رأت والدها قد اســتيقظ يباشــر الوضـــوء والاستعداد للصلاة، فعادت إلى سريرها ودخلت فى روتينها اليومى تسمع المذياع وتقرأ كتاباً أو مجلة ثم تمــل الســماع والقراءة وتحاول أن تعين أمها فى أعمال البيت ولكنها تحس بالإعياء والسأم فترتمى مرةً أخرى فوق سريرها تحدق فـــى السقف وتنتظر غيبوبة الفرح بـــلا جـــدوى، ومـــا أن جـــاء الضحى وتبخرت طراوة الصباح وصار جو البيــت خانقـــاً تحت وهج الشمس اللافحة حتى قررت أن تخرج، لا تـــدرى إلى أين ولكنها لابد أن تخرج الآن ولو للحظات قصيرة ثـــم تعود، وضعت المنديل فوق رأسها، واتجهت إلى الباب غيـــر

عابئة بأحد، هرولت أمها وراءها تسأل بلهفة عن المكان الذى تنوى الذهاب إليه، أجابتها دون تفكير:

- وهل هناك مكان آخر غير بيت أمى سعيدة؟

رجعت الأم ترتق جوارب زوجها ولم تقل شيئاً.

مرحِّبة، مستبشرة، استقبلتها أمى سعيدة، فهــذه هــى المرة الأولى التى تأتى فيها جميلة إلى بيتها بعد غيبة طويلة، قالت لها بعد أن مدت المندار ووضعت فوقه الوسائد ودعتها إلى الجلوس:

- ها قد عدت إلينا بعد غربة طويلة.

فجِّرت هذه الجملة كوامن الوجع فى أعماقها، هل حقاً عادت من غربتها، وهذه العزلة التى تعيشها، وهذه المــرارة التى تملأ حلقها، وهذه الأشياء التى فقدت طعمها ومعناهــا، وهذه السحب التى تعبر السماء وتملأ أذنيها بالضجيج، حتى إذا كانت قد عادت، فهى لم تعد إلا لتشهد آثار هذا الحريــق الهائل الذى اجتاح الدنيا أثناء غيبتها فامتلأ العــالم بحقــول الرماد. انهمكت أمى سعيدة فى حديث طويل عن الأحــداث التى تمر بها القرية ولكن جميلة كانت غائبة تتســاءل بينهــا وبين نفسها إذا كان من الصواب أن تحكــى لأمــى ســعيدة

الرؤية التى رأتها، وما تزال تملأ عقلها وقلبها، وتشيع جــواً من الفوضى فى تفكيرها، لعل لدى هذه المرأة الحكيمـــة مـــا يعيد إلى الأشياء نظامها الذى فقدته، ولكنهـــا مـــرة أخـــرى ترددت فى أن تقول شيئاً، ليبقى ما رأته سراً غالياً تحتفظ به لنفسها، تتعذب به عذاباً شهياً دون أن تشرك فيه أحداً غيرها، انتبهت إلى أن أمى سعيدة تتحدث عن الشهادة التى أخـــذتها وتسأل عن مشاريع للمستقبل، كأنهـــا لا تعلـــم أن حماســـها للأشياء قد خبا، وأن هذا النجاح لا يعنى لها شيئاً، المستقبل، الكلمة ذاتها بدت غريبة، لقد وقفت زمناً على حافة الدنيا، أو أنها اعتقدت بأن ما عانته إنما هو وقوف على حافـــة الـــدنيا وعلامة من علامات النهاية، فكيف تستطيع أن ترى أبعد من هذه الحافة التى وقفت عندها، حتى الرؤية التى رأتها لم تجد تفسيراً لها سوى أنها تمرين مبدئى على الموت، لقد كان اللّه رحيماً بها فأراد قبل أن يأخذها إلـــى جـــواره أن يريهـــا أن الموت ليس بالبشاعة التى يتصورها البشر وأن ما أحسته من أمن وسلام وسعادة قصوى خلال تلك اللحظـــات يجعلهـــا لا تخشى الموت إذا جاء، إنها الآن لا تخشاه، بل هـــى تنتظـــر بشوق وحنين اليوم الذى تعاودها فيه تلك الأفـــراح الإلهيـــة

وتعرف أنه لن يكون بعيداً، وسوف لا تستجيب هذه المـرة لنداء أمها عندما تأتى لتوقظها، ستستمر فى معانقـة الفـرح الأبدى. المستقبل، وجدت نفسها تعيد الكلمة فـى خاطرهـا وكأنها تسمعها لأول مرة.

- هل قلت المستقبل؟ إننى لا أدرى.

إنها تحاول الآن سبر عواطفها، تحاول أن تتفحص ما الذى صارت تعنيه هذه الكلمة بالنسبة إليها وتمـد بصـرها لترى ما تحمله الأيام القادمة فوق جناحيها، ولكنها لا تستطيع أن ترى غير الشظايا المتناثرة هنـا وهنـاك، لقـد عرفـت مصيرها، وها هو حاكم القرية يواصل حصاره ويتفنن فـى التنكيل بوالدها وها هى القريـة كلهـا مهـددة بـالانقراض والاختفاء، وها هو الضجيج الذى يملأ الدنيا تسـمع صـداه كالأنين تعيد ترجيعه الجبال المحيطة بالقرية، وها هو نـداء يتحرك فى أعماقها بأن تترك كل شىء وترحل بعيداً عن هذه الدنيا، فأى صورة للمستقبل يمكن أن تتكون لديها.

- يجب أن أكون أكثر احترازاً فى حديثى معك. فهذه أول مرة فى حياتى أتحدث إلى معلمة.

إن طنيناً عظيماً كان يملأ رأسها عن المعلم ورســالته فى الحياة، كانت تحس بأنها عندما تملك هذه الشهادة فكأنهــا انضمت إلى قافلة الأنبياء الذين يصنعون الضوء ويطاردون عساكر الجهل والظلام، ولكنها كانت بريئة لم تســمع أنــين الجبل ولا آهات السحب التى تزحف على بطونها فى السماء.

تناهى إليهما طرق على الباب فقامت أمى سعيدة لترى الطارق، كان العيد قد جاء لتوه من مركز الشرطة، أخبرتــه بأن جميلة قد جاءت لزيارتها وأنه ليس من اللائق أن يــراه الناس يدخل بيتها وهى موجودة، وإن من الأفضل ترتيب لقاء آخر كما حدث فى المرات السابقة، أدرك حرج الموقف ولعن فيِ سره الناس الذين لا هم لهم إلا مراقبة الآخرين، وقف لا يدرى ماذا يفعل، إنه لا يستطيع أن يــدخل ولا يســتطيع أن يكبح توقه الشديد لرؤيتها، رأته أمى سعيدة مرتبكاً لا يقــوى على الذهاب فسألته أن ينتظر قليلاً لكــى تشــاور جميلــة، وجدتها غير عابئة بما يقوله الناس، ماذا يمكنهم أن يقولــوا أكثر مما قالوه فليدخل وليكن ما يكون، ترددت المرأة العجوز تهيباً للموقف وعندما رأت إصرار جميلة وإلحاحها عــادت

إليه، أطلت برأسها تستطلع الشارع وعندما لم تر أحداً سألته أن يدخل.

صافح المرأة التى أحبها أكثر من أى شىء آخر فـــى الحياة، أبقى يدها فى يده وكأنه لو تركها لانسلت من حياتـــه كالشعاع ،. وجلس بجوارها فوق المندار يتأمل عينيها وقـــد أصبحتا هالتين تحيطهما الكآبة الزرقـــاء، وتفيضـــان حزنـــاً وجمالاً وحباً، لقد ازدادت شحوباً ونحولاً وشفافية عن آخـــر مرة رآها فيها فأصبحت خيطاً رفيعاً من الضوء، ســـوف لا يتوقف أبداً عن حبها لأنه لو توقف يوماً واحداً لفقد كل مبرر للحياة، بدت فى عينيه وكأنها لحن عذب حزين يعزفه علـــى الناى أحد الرعاة فى حقل أخضر فسيح تسيل فيـــه جـــداول الماء وتبتسم من فوقه النجوم، أدرك أنه فى حضورها يصبح إنساناً آخر، لقد نسى الآن دوامة الحر والغبار وأيام التشـــرد والطواف اليائس حول بيتها ومطاردات الشرطة وعـــرائض الاحتجاج على الحكومة، إنسان تحرر من أحزانـــه وارتفـــع محلقاً فوق همومه ومشاكله وتخلى عن هذا القطيـــع الـــذى تسحقه الحياة اليومية بروتينها وتفاهتها وصار أكثـــر قربـــاً والتحاماً بالينابيع التى تصنع النور وتجدد دورة الحياة وتمنح

الإنسان الوسامة والفرح. هنأها بنيل الشهادة واعتبـــر ذلـــك انتصاراً فى معارك التحدى التى خاضتها منذ أول يوم ذهبت فيه إلى المدرسة، وبداية انتصارات أخرى على كل المتاعب التى عاشتها، ما أكثر النساء اللاتى فى سنها من أهـــل هـــذه القرية ممن حرمن أية فرصة للخروج مـــن دائـــرة الجهـــل والأمية، وها هى الآن قد كسرت الطوق ونفذت من حصـــار الظلام وصارت قادرة على أن تصنع حياتها بنفســـها ودون حاجة إلى عون من أحد.

لا شك أن موضوع هروبهما قد صار الآن مســـألة لا ضرورة لها، فها هو المتصرف كالثعبان الذى فقد ذيلة إثـــر ضربة فأس، يعود مذعوراً إلى الشق الذى خرج منـــه فـــى الجدار المتهالك الهرم الذى سيؤول قريباً إلى السقوط، جلس هناك يلعق جراح هزيمته ويلجأ إلى أسلوب رخـــيص فـــى الانتقام وذلك بطرد والدها من العمل، إنه الآن يواجه أعتـــى العواصف – قال لها يطمئنها – التى لن تتوقف حتى تطـــيح به عن عرشه الوهمى، وسيكون العيد أحد الـــذين يصـــنعون هذه العواصف ويطاردونه بها، أخبرها بالزيارة التى قام بها رجال الشرطة صباح هذا اليوم إلى بيته يأخذونه إلى المركز

للتحقيق، بدا الانزعاج فى عينى جميلة التى توقعت شراً كأن هذه القرية أصبحت عشاً للعقارب، وسألته أمى سعيدة غاضبة إن كانوا قد جرءوا على مسه بسوء، طمأن المرأتين إلى أنه خرج من المركز سليماً دون أن يناله أذى، كل ما فى الأمر أنهم طلبوا منه أن يعود إلى عمله بالمدينة ولذلك فهو لن يستطيع أن يقيم بالقرية، سيبقى هناك وسيكتفى بزيارات سريعة فى أيام العطلات، وهو لا يمانع فى ذلك لأن وجوده فى المدينة سيجعله أكثر نفعاً لقضية القرية حيث سيباشر فور وصوله الاتصال بالاتحادات والنقابات لتكون شريكة فى مكافحة المخططات التى تسعى لتأجير القرية إلى جيش أجنبى، وستكون قرية »قرن الغزال« التى عاشت مهملة مجهولة حديث الناس فى المدينة، يأتى على ذكرها الخطباء وتكتب اسمها الصحف وتكون رمزاً للنضال ضد العسف والظلم، وسوف تجد الحكومة نفسها مرغمة على طرد المتصرف وأعوانه والتراجع عن قرارها بتحويل القرية إلى قاعدة عسكرية وبناء المصنع الذى وعدت كاذبة بإنجازه. مضى يتحدث بتدفق وحماس كأنه عثر فى هذه القضية على شيء أمضى زمناً طويلاً يبحث عنه، لقد كان يرى الصراع

يدور شرساً، عنيفاً، ينال من حبه ويلحق الأذى بحبيبته دون أن يهتدى إلى وسيلة يدفع بها هذا الشر، فوقــف عــاجزاً لا يفعل شيئاً، ولكنه الآن يحس بأن هذه القضية قد فتحت أمامه باباً كبيراً للعمل من أجل خلق بيئة جديدة لا ترتضى القمــع ولا تخنق الحب ولا تنبت حكامــاً يســتعيرون دور الآلهــة ويملكون الأرض ومن عليهــا، ومنحــت صــراعه ضــد المتصرف معنى أكثر نبلاً من مجــرد النــزاع الشخصــى، وأضافت إلى حبه بعداً جديداً يجعله أكثر عمقــاً وارتباطــاً بالأرض والجذور، وهو حريص على أن تعرف جميلة كــل هذا، فالصراع الآن يأخذ شكلاً أكثر شمولاً واتساعاً ونتائجه ستكون أبعد أثراً فى حياتها وحياته. تابعت جميلــة حديثــه باهتمام وهى تضم قلبها على الشوق العظيم الذى تحمله لــه وتمنت فى نفسها ألا يكون العيد قد اقــتحم هــذه المعــارك وارتضى أن يعرِّض نفسه للخطر من أجلها، إنها تحبــه مــا تزال، ولكنها صارت ترى الأشياء فى ضوء جديد، إنها كمن عرف موعد موته فلم يعد يثيره شىء، ولم يعد يسعى إلــى شىء، لا يعقد آمالاً على أحد، ولا يرى فائدة من أن يعقد أحد آمالاً عليه، ولذلك فهى تتمنى أن يعتنى العيد بنفســه التــى

أهملها طويلاً، بدروس الجامعة التى التحق بها، وبعمله الذى تخلى عنه وجاء ليقيم فى قرية تطاردها الشرطة والريــاح، ينتظر لحظة مسروقة من عمر الزمن يلتقيان فيها، لا تريـــده أن يستيقظ ذات يوم فيجد أن الأيام قد سرقت منه جزءاً مـــن العمر الذى يجب أن يكرسه لبناء حياته ومستقبله، إنها لا تثق بما تأتى به الأيام، وهى تحت وطأة هذا الأسى الــذى يمــلأ قلبها لا تحس بأنها قادرة على تقديم شىء له، إنهــا متعبــة حزينة لا تجد فى نفسها القدرة على أن تمنحه السعادة التـــى يرجوها من هذا الحب، ولا تستطيع أن ترى غير هذه الحبال الثقيلة السوداء التى تشدها إلى واقــع بــائس مــريض، ولا تستطيع أن تقفل أذنيها عن دبيب الموت الذى تسمعه يتقــدم بخطى بطيئة نحوها، ومن الظلم له ولها أن تبقيه مرتبطاً بها يدور فى هذه الدوامة حتى يصيبه الإنهاك والــدوار ينتظــر أملاً لا يتحقق. سمعته يقترح عليها أن تطالب بتعيينهــا فـــى المدينة، سيقيم لها عرساً عظيماً هناك وسيدعو عائلتها للإقامة معهم فى البيت الذى سيؤجره لها وستصفو لهما الحياة بعــد هذا العناء الكبير.

كانت أمى سعيدة قد تركتهما وذهبت تسقى أعشابها وتطعم دجاجها.

شعرت جميلة بالارتباك وهى تبحث عن كلمات تشرح بها موقفها، ظلت صامتة لا تقول شيئاً، علق العيد عينيه بشفتيها ينتظر كلمة منها، أحست بقلبها يبكى تحت وطأة ثقل الأحلام التى تتهاوى وتسقط وتتحول إلى جبل من الأنقاض والركام. سمعها تقول بصوت واهن ضعيف:

- لا أرى فائدة من كل هذا.

أصابه كلامها بالاندهاش والاضطراب، بذل مجهوداً كبيراً للتغلب على نفسه التى تريد أن تتحول إلى شظايا، لم يكن ينتظر منها إجابة كهذه وهى التى اقترحت منذ أسابيع قليلة أن تهرب معه. لأول مرة يسمع هذه الرنة الغريبة فى صوتها الذى بدا مخنوقاً وكأن يداً تطبق على عنقها، كأنها تكره نفسها إكراهاً على قول كلام لا تريد قوله، لعله المتصرف مرة أخرى، لعل والدها قد خضع لتهديده وأقنعها بقبوله زوجاً تضحية من أجل أسرتها، تساءل فى ألم وحيرة إذا كان الأمر كذلك، أسرعت ترجوه ألا يسىء الظن بها، فهو يعرف أنها لن تكون لأحد غيره. ليت للإنسان أجنحة

مثل الطيور فشوقها للرحيل إلى المدن البعيدة لا يعادلـــه إلا الحب الذى تحمله للعيد، ولكن ماذا نفعل للأحلام الكبيرة التى تأبى أن تتحقق فى يسر وسهولة، لابد أنه يعرف أن الأمـــور أكثر تعقيداً من هذه الصورة البديعة التى جاء يرسمها عـــن عرس عظيم ترن فيه الأوتار وتصدح فيه الحناجر بالغنـــاء وهما فى ثياب العرس يتعانقان عناق العشاق الـــذين حققـــوا أقصى أمانيهم فى الحياة، ومن حولهما أسرته وأسرتها وقـــد اجتمعوا على الحب والصفاء، وهل تتوق لشىء أكثـــر مـــن ذلك، ولكن هل تستطيع أن تخدع نفسها وأن تدير وجهها عن حقائق الحياة القاسية المرة التى تنتصـــب أمامهـــا كأحجـــار القبور. سمعت صوته يأتيها وكأنه يأتى من قاع بئر مهجورة تمتلئ بصفير الرياح:

– هل هو حكم على علاقتنا بالموت؟

هدأت من خاطره قائلة بأنها لا تعنى ما ذهب إليه، كل ما فى الأمر أنها تريده أن يرجئ التفكير فى موضوع الزواج الآن لكى يمنح نفسه وقتاً يعيد فيه ترتيب حياته ويهتم قلـــيلاً بالأشياء التى أهملها طيلة وجوده قريباً منها، وإنها ســـتتوقف عن لقائه عدة أشهر لكى تتيح لنفسها فرصة أن تلقاه وهـــى

أكثر استعداداً له، فليس من العدل أن تذهب إليه وتستمر فى لقائه وهى محملة بكل هذه الأثقال من البؤس، ولا تريد له أو لنفسها أن يفتحا معركة جديدة مع والدها الذى مازال غاضباً منه، ولن يمضى وقت طويل حتى تكون هذه الفوضى التـــى تشيع فى دنياهما قد وجدت حلاً. ولكن العيد دافـــع بشراســـة عن حبه الذى رأى الخطر يتهدده من الداخل هـــذه المـــرة، أفهمها أنه لن يستطيع أن يتأخر أسبوعاً واحداً عن رؤيتهـــا ولن يستطيع أن يتوقف دقيقة واحدة عن حبها، وفـــى ختـــام حديثه أطلق استغاثة أخيرة كاستغاثة قـــارب يشـــرف علـــى الغرق:

– إننى الآن بحاجة إليك أكثر من أى وقت مضى.

انسحبت جميلة إلى عالمها الخاص، وتركته ينظر فـــى بلاهة إلى عينيها غير مصدق أن دفاعه قد وصل إلى طريق مسدود.

لم تشأ أن تقول له إنها شاهدت ذات صـــباح روحهـــا تغادر جسمها ثم تعود إليه مرةً أخرى، وإنها رأت فى ذلـــك إنذاراً بقرب نهايتها وإنها تريده صادقة أن يوطن العزم على فراق لا لقاء بعده.

ثم رأى الدموع فجأة تملأ عينيها، وتنهمر فى البكـــاء بحرقة وأسى. لم يدر ماذا يفعل، حاول أن يقول شيئاً يعتـــذر به عن إثم اقترفه فى حقها دون أن يعلم، ولكنه قبل أن يفـــتح فمه بالكلام رآها تقف وتسوى المنديل فوق رأسها اســـتعداداً للخروج، قفز واقفاً أمامها حائلاً بينها وبين الباب كأنه يريـــد أن يمنعها من الذهاب، وجهه فى وجهها وعيناه فى عينيهـــا، وجسمه مرتعش لا يكاد يقوى على الوقوف، كانت هى قـــد توقفت عن البكاء ولاحظ وهو يراها واقفة مدى ما أصـــابها من النحول كأنها طيف هبط من السماء، رآها تقتـــرب منـــه وتضع رأسها على كتفه وتعلـــق ذراعيهـــا بعنقـــه، طوقهـــا بذراعيه وضمها إلى حضنه وأحنى رأسه فوق رأسها، بقيـــا لحظة على هذه الحال، ثم وجد نفسه يأخذ وجهها بين يديـــه وينظر فى عينيها المليئتين بالفجيعـــة المبللتـــين بالـــدموع، اقتربت بفمها من فمه، أسلمت شفتيها إلى شفتيه، رحل إلـــى مدينة أسطورية تمتلئ بغناء الطيور وتغتسل فـــى بحيراتهـــا النجوم وتقيم فيها الأشجار أعراساً للعاشقين، بقى فى مكانـــه يستمرئ الخدر اللذيذ الذى سرى كالنسغ فى عروقه، ثم أفاق من خدره وقد اختفت الطيور والنجوم والأشجار والبحيـــرات

وينظر حوله فيرى فراغاً موحشاً بانتظاره، لقد منحته قبلتها ومضت فى طريقها كما تمضى سحابة العطر، خرجت دون أن تقول وداعاً.

أراد أن ينطلق وراءها ولكنه رأى أمى سعيدة تقف قريباً من الباب تسأله أن يبقى ساعات أخرى لكيلا يراه الناس خارجاً بعد لحظات من خروجها فيعرفوا أنه كان يلتقى بها ويملئوا القرية بالشائعات. استسلم لتعليمات المرأة العجوز، لم يخبرها بشىء مما حدث بينهما ولم يكن صعباً عليها أن تتكهن بما جرى، لقد سمعت جزءاً من النقاش، اكتفت بأن سألته قائلة:

- هل ستذهب اليوم إلى المدينة؟

- حالما أخرج من هذا البيت.

- إنه عين الصواب.

- وستمضى أشهر طويلة قبل أن أعود إلى هنا مرةً أخرى.

سكت قليلاً ثم أضاف:

- هذا إذا لم تشرق الشمس من الغرب إيذاناً بأفول نجم هذه القرية إلى الأبد.

- حتى وإن لم تكن هناك قرية فستجدنى أسقى أعشابى فى هذا المكان الذى لن أغادره إلا إلى مقبـــرة ســـيدى أبـــو قنديل، إننى أدعو فى صلاتى بألا يتأخر ذلك اليوم طـــويلاً، فأنا كما تعلم امرأة وحيدة، لا أحد بجوارى يعيننى على تحمل شيخوخة عاجزة.

- بعد عمر طويل إن شاء اللّه.

- أرجو أن تلقى الأمور أكثر يسراً وســـهولة عنـــدما تعود.

- هذا ما أرادته هى، لقد حكمت علـــى بالحيـــاة فـــى المنفى دون أن تمنحنى فرصة للدفاع.

- إن لديها أسبابها التى تعرفها، فلا تحزن يـــا ولـــدى وكن على يقين بأنها تحبك أكثر مما تحبها.

منحته كلماتها شيئاً من الهدوء والسكينة، انتظر وقتـــاً كافياً ثم استأذن قائلاً:

- أرجو أن تذكرينني دائماً بالبركة والدعاء.

- ليجعل اللّه لك فى كل خطوة سلامة.

(٣٤)

عارية، قاسية، صخرية، غارقة فى ضـــوء الشـــمس، أطلت الهضاب القريبة، تمتلئ بالحزن وجلال الصمت.

ومن بيته فى الطرف الآخر من القرية جاءوا يحملون على أكتافهم نعش الشيخ نصر الدين الذى مات مع الفجر فلم ينتظروا بجنازته حتى صلاة العصر كما جرت العادة وإنمـــا خوفاً من أن يصيب هذا القيظ جثمانه بالتعفن، جـــاءوا مـــع الضحى لتشييعه ودفنه بمقبرة سيدى أبو قنديل.

بدأ الموكب بعدد قليل من الناس، وعلى امتداد الطريق كان مزيد من الرجال ينضمون إلى الجنازة، ويتناوبون على حمل التابوت الذى يضم رفاته، وما أن وصلوا إلى المقبـــرة حتى تجمع حشد هائل من أهل القرية يرددون فـــى صـــوت واحد:

- لا إله إلا اللّه.

صلوا عليه صلاة الجنازة، وأودعوا جثمانه التـــراب، وقدموا لأفراد أسرته العزاء، ولم يبق إلا أن يعـــودوا إلـــى أعمالهم وبيوتهم، وفى حين جلس بعض الشيوخ حول القبـــر

يقرءون سورة يس وانهمك بعض أقارب الميت فى البكـاء، ظل بقية الناس واقفين فى أماكنهم لا يغادرون المقبرة كمـا هى العادة فى مثل هذه المناسبات، برغم القيظ الـذى يلفـح الوجوه ويحيلها إلى وجوه سوداء، ظلوا جمـيعهم واجمـين، تحرقهم الشمس ويغطيهم الحزن، يمسحون العرق ويطردون الذباب ويستمعون فى صمت إلى سورة يـس التـى يرتلهـا المرتلون، ويرفضون الذهاب كأنهم ينتظرون حدثاً لا يعرف أحد منهم ماذا يكون.

" يس، والقرآن الحكيم، إنك لمـن المرسـلين، علـى صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم، لتنذر قوماً مـا أنـذر آباؤهم فهم غافلون، لقد حق القول علـى أكثـرهم فهـم لا يؤمنون، إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهـم مقمحون، وجعلنا بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشـيناهم فهم لا يبصرون ".

ووسط هذا الجو الذى يخيم فوقه جلال الموت، ارتفـع صوت ضوء الهلال صائحاً دون أن يحس بحرج وهو يقاطع المقرئين:

– هل انقرض الرجال من »قرن الغزال«؟ هل نبقى ننوح كالنساء الأرامل وهم يسجنون شيخنا ويضربون رجالنا ويبيعون قريتنا إلى الطليان؟

قال أحد الحاضرين مصححاً:

– إنهم الأمريكان هذه المرة.

– كله استعمار فلماذا تكذبون على أنفسكم، لن تمضى سوى لحظات حتى تأتى الشاحنات تنقلكم كالأبقار بعيداً عن أرضكم وترمى بكم فى الخلاء.

عندها فقط، عندما ارتفع هذا النداء، أدركوا سبب بقائهم جميعاً فى المقبرة، لقد كانوا بانتظار كلمات كهذه حتى لو جاءت من رجل لا أحد يثق بسلامة عقله مثل ضوء الهلال، إذ سرعان ما ارتفعت الأصوات من هنا وهناك تؤيد كلام الرجل وتطالب أهل القرية بالوقوف صفاً واحداً فى مواجهة الظلم.

ولكن رجلاً من أهل الميت وقف غاضباً يطالبهم بالإنصات إلى القرآن الكريم، وتأجيل النقاش إلى حين الانتهاء من التلاوة، فامتثلوا لما قال وسكتوا عن الكلام فى حين واصل المقرئون ترتيل السورة:

" واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، وما علينا إلا البلاغ المبين، قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم، قالوا طائركم معكم أين ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون، وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ".

منذ أن سجن الشيخ مسعود وقادوهم مرغمين إلى التوقيع وهم تائهون، الغضب الذى يأكل أعصابهم لا يتحول إلى شيء يريدونه أن يكون، بقى ساكناً فى عظامهم يصيبهم بالوهن والإعياء والعجز، يدمرهم بدلاً من أن يتحول إلى شيء يدمر من يريدون له الدمار، يجتمعون ويفترقون بحثاً عن سبيل لتصريف هذه الشحنات الغاضبة دون الاهتداء إلى شيء، ولكنهم الآن وقد أتاحت لهم جنازة الشيخ نصر الدين هذه الفرصة للتجمع واللقاء، يحسون بأن الغضب الذى سكن النفوس لم يكن ينتظر إلا مناسبة كهذه ليعبر عن نفسه، ها هم الآن جميعاً يلتقون فى مكان واحد، يتكلمون بصوت واحد،

والغضب الآن يبدأ فى تشكله البطىء خارج أنفسهم، له شكل الهواء الذى تجمد وصار كتلة من الرصـــاص، لـــه رائحـــة الموت وله صوت الصمت المفعم بالتراتيل، يغطى الوجـــوه ويغطى حجارة القبور التى انتصبت كأنها حقل كبيـــر مـــن النبات المتحجر حيث ينام أسلافهم يعانقون تراب هذه الأرض ويتحللون فيه ويصبحون جزءاً منه.

" وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هـــم مظلمـــون، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ".

إن ما تريده الحكومة لـــيس أمـــراً هينـــاً يســـتطيعون السكوت عنه، إنه قلب لكل الموازين وتقويض لكل الأســـس التى بنوا عليها حياتهم وارتضوها لأنفسهم وارتضاها اللّه لهم منذ بدء الخليقة، فكيف يتركونها تنتزعهم من جذورهم كأنهم أعشاب ميتة، إنهم لن يتركوا هذه القرية، لن يتركوا أشـــجار نخلها ومزارات أوليائها وقبور من ماتوا فيها من أهلهم يعبث بهم جنود يأتون من وراء البحـــر لا يعرفـــون قيمتهـــا ولا يحترمون قدسية هذا التراب، وهم أيضا لا يحتملون فكرة أن يموت الواحد منهم فيدفن فى أرض غريبة وبين بشر غرباء،

بعيداً عن أهله وأقاربه، سيعيشون فى هذه القرية وسيموتون بها، وسيذهبون الآن فى مسـيرة كبيـرة يرفضـون قـرار الحكومة ويطالبون بعزل المتصرف ويرغمونهم على إطلاق الشيخ السجين، انتحى أحد المدرسين بمجموعـة مـن أهـل القرية جانباً يسند الورق فوق رخام أحد المقابر ويكتب لهـم العريضة الجديدة التى سيقدمونها للحكومة، اقتربت السـورة من ختامها وارتفعت الهمهمات استعداداً للكلام.

" إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول لـه كـن فيكـون، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون " صـدق اللّه العظيم.

انتهت التلاوة وارتفعت أصوات عـدد مـن الرجـال يتكلمون فى وقت واحد، كان بين الواقفين عدد كبيـر ممـن يعملون بالمرافق التابعة للمتصرفية ولكنهم جميعاً من أهـل القرية، جاءوا يشاركون فى تشييع الجنازة ثم بقـوا واقفـين عندما بقى الناس، لم يشعر أحد بأى حرج من وجودهم، بـل هم يرون فى وجود هؤلاء الموظفين والعمال الذين لا يبالون بفقد وظائفهم ما يعزز قيمة وقوة هذه المظاهرة التى لم تشهد القرية مثيلاً لها منذ عهد الحماية البريطانيـة، تـلا علـيهم

المدرس العريضة التى جاء فيها على ذكـــر مطـــالبهم وقـــد عززها بآيات من القرآن الكريم والحديث الشريف وأبيات من الشعر العربى القديم، فصفقوا له طويلاً وهتفوا معه بســقوط المتصرف وأمثاله من الحكام الفاسدين، وقام أحــد العـــاملين بالمتصرفية يتكلم بلهجة حانقة غاضبة معبراً عن ثورته ضد الحكومة مبدياً استعداده للاستقالة من إدارتها التى تظلم الناس لأن الأجر الذى يأخذه سيكون حراماً إذا كان علـــى حســـاب قهر وإذلال أبناء قريته، فهو على استعداد لأن يعيش علـــى تمر وفكريس النخيل وحشائش الأرض فى ســبيل كرامتـــه، صفقوا له طويلاً تعبيراً عن إعجـــابهم بشـــجاعته وجرأتـــه وفصاحة كلماته التى هزت بصدقها القلوب، مع أنهم يعرفونه تابعاً ذليلاً للمتصرف يبعث به كل يوم إلى الدكاكين يشـــترى له اللحم والخبز والبيض ويتسول اللبن من الرعـــاة ليأخـــذه إليه، ثم سمعوه يقول إن من رأيه أن يبـــدءوا بأنفســـهم وأن يقتلعوا الأعشاب الضارة من حديقتهم، فإن اللّه لا يغير مـــا بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولذلك فهو يقتـــرح أن تتجـــه مسيرتهم إلى بيت عامر اليتيم الذى كانت ابنته جميلة ســـبباً فى الأذى الذى أصاب شيخاً جلـــيلاً مـــن رجـــال القريـــة

الصالحين ها هم اليوم يشهدون نهاية المأساة التى عاشها على يديها، فهى ليست إلا تجسيداً لهذه اللعنة التى جاءت تطارد القرية وتؤدى بها إلى الخراب، ولن ينتهى سوء الطالع إلا إذا ذهبوا الآن إليها وطردوها من أرضهم وقاموا بحرق بيتها وأمتعتها المسكونة بأرواح شريرة كافرة.

ران على الجميع صمت ثقيل لا يقطعه إلا بكاء طفل صغير بجوار القبر.

وقفوا ينظرون فى حيرة إلى بعضهم بعضاً وقد فاجأتهم كلمات الرجل، لقد تحدث بحرارة وغضب وقال كلاماً صادقاً فرحوا به وصفقوا له من قلوبهم، ولكن هل يصدقون كلامه عن جميلة، لقد راودهم هذا الشك ذات يوم، كانوا لا يعرفون هدفاً، وظنوا أن حظاً سيئاً يطاردهم ويجلب لهم المتاعب، وبحثوا عن أحد الناس ينسبون إليه سوء طالعهم، رأوا كائناً غريباً فى بهائه وجماله مثل جميلة فاعتبروا هذا الجمال الذى لا ينتمى إلى دنياهم مسؤولاً عن نكبتهم، ولكن الآن وقد تحدد أمامهم الهدف وعرفوا المصدر الذى تأتى منه المتاعب هل يرتدون مرةً أخرى لأكلٍ بعضهم بعضاً؟، أراد المدرس الذى قرأ العريضة أن يقول شيئاً، كان

غاضباً لأن معنى ذلك أن العريضة التى كتبها لتكون علامة تحول فى تاريخ هذه القرية قد أصبحت الآن ورقة لا فائـــدة منها، ولكنه قبل أن يبدأ الكلام سمع صوتاً يرتفع مـــن آخـــر الصفوف قائلاً:

- لقد رحل اليتيم فجر هذا اليوم عن القرية.

التفتت الرءوس إلى مصدر الصـــوت، كـــان المـــتكلم عمران عامل المخبز، أخبرهم بأنه عندما كان فى طريقه إلى عمله فجر هذا اليوم رأى اليتيم يشحن أمتعته فى سيارة أجرة ويأخذ أسرته ويغادر القرية.

صاح أحد الحاضرين ملتاعاً:

- وهل رحلت جميلة هى الأخرى ؟

بدا السؤال ساذجاً لا معنى له، كان واضحاً أن الرجل الذى ألقى السؤال إنما هو أحد الذين أحبوا جميلة فى صمت وفجعوا الآن بخبر رحيلها، فانطلق لسانه يفضح مـــا عـــاش يخبئه لسنوات فى قلبه، فتشوا عنه بعيونهم ولكنه دس رأسه وسط الزحام فلم يهتدوا إليه، إنهم يعرفـــون الآن أنـــه تكلـــم بلسانهم جميعاً، فمن منهم لم يطو فى قلبه حبّاً صامتاً لها ومن منهم لم يحس الآن بالفجيعة لخبر رحيلها.

سمعوا أحد الشيوخ يقول:

- لقد كان سهلاً على اليتيم أن يرحل، فهــو لا يملــك نخلاً فى هذه القرية.

كأن أشجار النخيل أوتاد كبيرة تشد الإنسان من ثيابــه وتبقيه ملتصقاً بالأرض إلى الأبد. تذكروا أن اليتــيم عــاش بينهم غريباً ويتيماً، سطعت ابنته نجمة وحيدة فــى الســماء فجاءوا يقذفونها بالحجارة والأوحــال، أدركــوا الآن أنهــم ارتكبوا فى حق الرجل وابنته ظلماً عظيماً، التفتــوا بعيــون وقلوب أثقلها الإحساس بالذنب يبحثون عن الرجل الذى كان يحرضهم ضد جميلة، فرأوه يتسلل هارباً، جــاءت أصــوات كثيرة تكشف تآمره وتفضح علاقته بالمتصرف الذى أرســله لإفساد هذا الاجتماع وتحويل ثــورة النــاس ضــده وضــد الحكومة إلى غضب ضد جميلة التى نقم عليها لأنها رفضت القبول به زوجاً، قفز عليه بعض رجال القرية يمنعونه مــن الهروب ويجرونه إلى قلب الزحام لتنهمر الأيدى تكيــل لــه الضربات، سقط فوق الأرض ميتاً دون أن يعبأ أحد بموتــه، ثم رأوه يعود إلى الحياة ويزحف عاوياً بين القبور.

ارتفعت أصواتهم كالهدير:

– يسقط المتصرف.

– يسقط، يسقط، يسقط.

– تسقط الحكومة.

– تسقط، تسقط، تسقط.

– تعيش »قرن الغزال«.

– تعيش، تعيش، تعيش.

ساروا تحت الشمس الساطعة المحرقة التى تتوسط قلب السماء، العرق يسيل غزيراً من جباههم، والهتاف ينطلق مدوياً من حناجرهم، فتتلقفه الهضاب القريبة وتعيد ترجيعه كأنها قررت الانضمام إلى مسيرتهم.

وبعراجين مثقلة بالثمار ورؤوس خضراء يجللها الصمت أطلت أشجار النخيل، سامقة تعانق الأفق، مليئة بالكبرياء ورحيق الشمس.